عبد الرزاق بن عمر

غراثياس سوبرانو

المجد لنا.. نحن الفتيات

رواية

- عنوان الرّواية؛ غراثياس سوبرانو -المجد لنا... نحن الفتيات- (النّسخة الرّقميّة الحقيقيّة True PDF)
- تأليف؛ عبد الرزاق بن عمر (عبد الرزاق أنفو)
- الإصدار الأوّل؛ ماي 2026
- ردمك : 9798235143760 ■
- الكتلة الإفتراضيّة الحقيقيّة؛ 33 ميغا | عدد الصّفحات؛ 204| عدد الكلمات؛ 45406
- نسبة الخطأ في التّحويل الآلي للخطوط الأساسيّة، (Traditional Arabic)؛ لا تتجاوز 03 % (Calibri)؛ 00 %
- تصميم الغلاف والضّبط الفيزيولوجيّ للمستند؛ عبد الرزاق بن عمر (عبد الرزاق أنفو)

14 +

هذه النّسخة مهيّأة للطّباعة المكتبيّة، ويُستحسن استخدام آلة تجليد حراري للحصول على أفضل نتيجة

© 2026 عبد الرزاق بن عمر | جميع الحقوق محفوظة

ISBN : 979-8-2351-4376-0

نسخة رقميّة أصليّة التّحويل وعالية الجودة، موجّهة للإستعمال الشّخصيّ والتّعليميّ، وصالحة للطّباعة المكتبيّة.
يمنع إعادة الإنتاج التّجاريّ لأيّ جزء من هذه الرّواية، أو ترجمتها، أو توزيعها، دون إذن خطّي مسبقٍ من المؤلف.

9 798235 143760 >

الجزائر في : | |

مساحة خاصّة للتّوقيع أو الإهداء

عبد الرزاق بن عمر

غراثياس سوبرانو

-المجد لنا... نحن الفتيات-

أول رواية في الفكر الإنشادي الحديث

إلى كلّ الإنشاديين والإنشاديات من شتّى الحركات والمدارس والتّيارات،

وخاصّة؛ فتحي عشّاب، آسيا سعادة، سميرة فتّاحين

إلى جميع أساتذتي، القساة منهم واللينون... وكلّكم طيبون

بسم الله الرحمن الرحيم

أي تشابه لأحداث هذه الرواية مع الواقع هو تشابه عرضي غير مقصود على الإطلاق

فهرس المحتويات

تمهيد 10

الفصل 1 : قد أعذر من أنذر 11

الفصل 2 : ظاهرة تفوّقت على «أمّ كلثوم» 12

الفصل 3 : النّصف الآخر 15

الفصل 4 : حدثَ يوم الخميس 18

الفصل 5 : وزيرة السّعادة 24

الفصل 6 : لست أستاذ موسيقى 27

الفصل 7 : طريقتي الخاصّة في التّرحيب 32

الفصل 8 : ... لكنّه يوظّف الموسيقى 35

الفصل 9 : «سوبرانو» 40

الفصل 10 : مركز الإصغاء 46

الفصل 11 : الخطوات الأولى 51

الفصل 12 : أوراق الشّجر 55

الفصل 13 : تهديد داخليّ 58

الفصل 14 : وقاحة أنثى 62

الفصل 15 : ضفاف الاحترافيّة 67

الفصل 16 : تماسّ كهربائيّ 71

الفصل 17 : تفّاحة المنزل 73

الفصل 18 : مثلّث «برمودا» 76

الفصل 19 : تهديد خارجيّ 80

الفصل 20 : الإنذار 85

الفصل 21 : هروب «بثينة» 87

الفصل 22 : إعصار «باتريسيا» 91

الفصل 23 : نزاهة القاضي 94

الفصل 24 : أنا مشروعه الكبير 101

الفصل 25 : يوم الامتحان... يُكرم المرء أو يُهان 104

الفصل 26 : شكراً جزيلاً... لماء السّماء 108

الفصل 27 : شهادة ميلادي 112

الفصل 28 : حلمي... وحلم أمّي 115

الفصل 29 : خداعٌ أبيض 119

الفصل 30 : مؤامرة بمناسبة عيد الفطر 126

الفصل 31 : لا سلام مع الصّيّادين 129

الفصل 32 : الأرنوبة! 132

الفصل 33 : ثمن العصيان 135

الفصل 34 : حديث مع الملائكة 140
الفصل 35 : شجرة الحزن 143
الفصل 36 : متلازمة الانسحاب 146
الفصل 37 : كيف أنساك «سوبرانو»؟! 151
الفصل 38 : مشاريع ارتباط 153
الفصل 39 : الوجه الأنثويّ الجميل 156
الفصل 40 : لا تهيني نفسك باسم الحبّ 159
الفصل 41 : هو مشروعي الكبير 164
الفصل 42 : الثّعلوبة 167
الفصل 43 : موقفه يكفي 171
الفصل 44 : زيارات تفتيشيّة 174
الفصل 45 : مراوغة رومنسيّة 179
الفصل 46 : فراء الثّعلب 181
الفصل 47 : طعنة بسكّين المطبخ 185
الفصل 48 : تأخّر غير مفهوم 190
الفصل 49 : فستانان لخطبتي 194
الفصل 50 : المجد لنا... نحن الفتيات 198
التّعريف بالكاتب 204

تمهيد

لنصارح بعضنا بعضا؛ من هم الإنشاديّون والإنشاديّات؟.

أليسوا هم الأطفال بشقاوتهم؟... والنّاشئة بتطلّعاتهم؟... والشّباب والشّابات بأحلامهم الورديّة؟.

أليسوا هم المراهقون والمراهقات؟.

لماذا نهرب من تشريح الظّاهرة اجتماعيّا ونفسيّا؟، بل لماذا نتجنّب مواجهة الأحداث، وكأنّها غير موجودة البتّة؟، كالذي يحاول إخفاء الشّمس بغربال.

ساتّخذ من الثّقة مطيّة، فشكراً على اتّخاذك من الصّبر مفتاحا.

عبد الرزاق بن عمر // الجزائر في 21 مارس 2026

1

قد أُعذر من أنذر

– آه، لو تعرفون ما ينتظركم!، سأجعلكم تندمون على اللّحظة التي فكّرتم فيها جميعاً في الحضور هنا لخطبتي، أنا بطبعي مسالمة، والويل... كلّ الويل لمن يغضبني.

قلت هذا في نفسي وأنا أتجهّز للدّخول عليهم، مرتدية فستاني الأحمر المزركش الطّويل، وأحمل صينيّة قهوة فضّيّة اللّون والمعدن، بما أُثقلت به من أصناف الحلويّات والمشروبات.

أحاول جاهدة إلباس نظراتي ثوب الخجل حين أبسطها إلى العيون التي تحدّق بي منبهرة؛ أمّه وشقيقتاه وعمّاته وخالاته، ما شاء الله... ممتاز، لقد أتوا جميعاً بأرجلهم إلى حتفهم، وخاصّة هذا الذي سأقتله الآن.

اللّئيم المغرور، «روميو» زمانه، لم يرفع بصره عنّي منذ أن ولجت باب الصّالون.

إن شئتم الصّدق، فقد كنت في كامل زينتي... في أبهى أناقتي، تحضير مرهق كلّفني أكثر من ساعتين أمام المرآة كرها، وسيكلّفهم أضعافاً مضاعفة من جرعات غروري المشروع.

المهمّ... متظاهرةً بالتّعثّر بطرف فستاني وفي اللّحظة المناسبة تماماً؛ ألقيت على وجهه وملابسه البيضاء كلّ ما حملته الصّينيّة.

في الواقع، ألقيت عليهم كلّ ما اكتنزه بركان انتقامي لسنوات، قهوة ساخنة، وعصير بارد، أصناف من حلويّات شتّى، اكتست كلّها بالشّوكولاتة السّائلة، وصلصة الكراميل.

لقد رحّبت بهم على طريقتي الخاصّة، كي لا يفكّر هذا المعتوه مجدّداً في العودة إلى هنا، أو حتّى في رفع بصره نحوي، وأنا أمرّ في الطّريق أمام مشغله القذر، وسط دهشة أمّي وخالتي، وجدّتي و«صفاء».

لقد فهموا الآن جيّداً رسالتي، على النّحو الذي يجب أن تصل إليهم.

هذا مجرّد تحذير بسيط، وقد أُعذر من أنذر، والمجد لنا... نحن الفتيات.

2

ظاهرة تفوّقت على «أمّ كلثوم»

لستُ شرّيرة...

هم من شنّفوا أذنيّ الصّغيرتين بما دأبوا على ترديده ليل نهار، منذ نعومة أظفاري، ما زلت أتذكّر كلّ عباراتهم؛ «صوتكِ جميل»، «أنتِ معجزة لن تتكرّر»، «أنتِ ظاهرة تفوّقت على أمّ كلثوم»، «ماذا تفعلين هنا؟...»، فصدّقتهم، على اعتبار أنّهم أسرتي، وإذا لم أصدّق أفراد أسرتي أوّلا، وأثق فيهم ثانيا، فمن سأصدّق يا ترى وفيمن سأثق؟.

أبي الذي على الحائط، وأمّي عاشقة الأعراس، المعروفة هنا تدليلاً واحتراما باسم «طاطا موني»، وخالتي التي أناديها «ماما سوسو»، وأختي «صفاء» ذات الخمسة عشر ربيعا، وأخي المجنون المشاكس الصّغير «أيّوب»... ذو الثّمانية أعوام، وكلّهم لهم وجوه جديرة بالثّقة، وهذا هو مصدر سعادتي.

لست شرّيرة، لأنّي أُعتبر عند أمّي وأختي المتابعتين للمسلسلات المصريّة الكلاسيكيّة «أسمهان»، وعند أبي وعمّي أنا «سيلين ديون»؛ وعند جدّتي لأبي، التي تعيش معنا ولا تعيش معنا في نفس الوقت، «فضيلة الدّزيريّة»، أمّا أخي الصّغير، عاشق الرّسوم المتحرّكة؛ فصوتي يذكّره بمن يحبّها جداً، «رشا رزق».

المهمّ، أنّ الجميع هنا حتّى صديقاتي في الثّانويّة؛ متّفقات على كوني أمتلك صوتاً بلبليّ الطّابع، لذلك كنت كثيراً ما أرافق أمّي للأعراس، نغنّي في جلسات نسويّة صِرفة، نرقص فيها رقصاً نتخلّص به من إجهاد الأيّام وكآبتها، وتتخلّلها أحاديث، تسرد بالتّفصيل المملّ آخر ما يدور في المنطقة من أحداث.

تقول أمّي التي تعتبر حضور الأعراس هوايتها المفضّلة عبر كلّ فصول السّنة، إن الرّقص ينسيها تعب الأسبوع كلّه، رغم أنّها تظلّ تشتكي من بعض الآلام في أسفل الظّهر لأيّام متواصلة.

وإن غبت لأيّ ظرف كان، تنزعج النّساء غاية الانزعاج، لكن أمّي بخداعها ذي اللّون الأبيض، ابتكرت في الفترة الأخيرة عبارة نمطيّة، تتكوّن من تسع كلمات، جهّزتها منذ عام:

– لديها «بكالوريا» هذه السّنة، ويجب أن تحضّر لها جيّدا.

أبهرتني سرعة التّحدّث باللّغة الإسبانيّة، فاخترت الجذع المشترك «آداب وفلسفة»، المسلك الوحيد الذي يوصلني إليها، وأنا الآن في السّنة النّهائيّة، شعبة «آداب ولغات أجنبيّة»، في الثّانوية التي لا تبعد عن منزلنا أكثر من

خمسمائة متر، بعدما بذلت جهداً للحصول على معدّلات عالية في اللّغات بصفة خاصّة؛ العربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة، أمّا «صفاء» فاختارت الجذع المشترك «علوم»، لتلتحق بكلّية «الطّبّ» مستقبلا.

منزلنا فيلا كبيرة من أربعة طوابق، إضافة إلى طابق أرضيّ يحوي محلاّت واسعة، واحد منها فقط مؤجّر لأحد التّجّار، الذي يستغلّه في بيع الأجهزة الكهرومنزليّة، والباقي كلّه مغلق.

في الطّابق الأوّل يقع صالون فسيح بمساحة مفتوحة، وهو أمام الصّاعد في الدّرج مباشرة، وعلى يمينه مطبخ واسع مع مخزن للمؤونة، وإلى الشّمال يقع الحمّام.

غرفتي في الطّابق الثّاني، بالضّبط في الشّمال الغربيّ، قبالة غرفة «صفاء» مباشرة؛ وعلى يمينها غرفة جدّتي، أمّا عن شمالي، فتقع غرفة أمّي وأبي، الذي لا أراه في المنزل إلاّ نادرا، حتّى أنّ أختي حين تتحدّث عنه، تستعمل عبارة «أبونا الذي على الحائط»، تلميحاً إلى صورته الكبيرة المعلّقة في الصّالون.

في الطّابق الثالث، توجد غرفة أخي المشاكس الصّغير «أيّوب»، مع غرفتين للضّيوف تقيم في إحداهما خالتي «سميّة»، حين تأتي لزيارتنا، أمّا الطّابق الرّابع فمغلق إلى إشعار آخر كما تقول «صفاء»، التي تكرّر عمداً على مسمع من أمّي، ملمّحة إلى فيلم مصريّ قديم، اعتادتا مشاهدته:

– عيوب منزلنا ثلاثة أشياء، لو أُصلحت لازدهر العالم بأسره؛ انعدام الشّرفات، وغياب المسبح، والحاجة إلى خادمة.

فتجيبها أمّي على تبجّحها:

– ماذا أسمع؟... بيتي ومسؤوليّتي الاعتناء به مهما حدث؛ نحن جميعاً أربع نسوة، كلّ واحدة تنظّف غرفتها، والباقي نتعاون عليه، لماذا أشغّل امرأة تحمل صفة خادمة؟.

ثمّ تضيف في استهجان:

– اسمعن يا بنات، حتّى ولو بلغت المرأة قمم العلوم؛ ستكون مضطرّة للاعتناء بمنزلها، ما فائدة حصولكنّ على أعلى الدّرجات العلميّة وأنتنّ تجهلن تحضير طبق محترم لأزواجكنّ؟.

كانت جدّتي لأمّي –رحمها الله– تحبّني كثيرا، إذ يكفي أن يتطرّق أحدهم لسيرتي أمامها، فتواجهه باعتزاز نادر:

– حفيدتي ولا كلّ الحفيدات، لن تلد النّساء مثلها أبداً.

أمّا جدّتي لأبي، التي تعيش معنا الآن ولا تعيش معنا في نفس الوقت، فتقول مهدّدة بالحرف الواحد:

– لا أقبل أن تُمسّ «إلهام»، ولو بإشارة صغيرة من بعيد، «إلهام» تفّاحة المنزل.

يا سلام... هل سمعتم؟، هي من تقول هذا، أنا تفّاحة، وهل للتّفّاح أن يحمل شرّا؟!.

★★★

– أكاد أجنّ؛ ليس لديّ وقت فراغ، الدّراسة وحصص الدّعم تلتهم أحلى سنين عمري، انظري انظري!.

وتتبعها بصرخة قصيرة:

– حتّى شعري بدأ يتساقط؛ يا إلهي!، أنا متأكّدة أنّي سأصبح صلعاء إذا دخلت الجامعة، مثل عمّي... الكونت «خالد».

هذا ما تتخوّف منه «صفاء»، التي تشتكي من نحافتها، وهي تتفقّد خصلات شعرها المصبوغ، لكنّ الغريب أنّها تجد كلّ الوقت لتلبية أيّة دعوة لأيّة مناسبة، وحين أواجهها تزعم أنّي مزاجيّة، ثمّ تقول لي وهي مغمضة العينين:

– سيأتي يوم تهربين فيه من الواقع إلى الخيال، الحسّاسات أمثالك لا يحتملن تعاسة الحظّ.

3

النّصف الآخر

- أنتِ عجوز.

هذا ما تعاتب به «باتريسيا»، مغرورة ثانويّتنا، وهي تتمايل بشعرها الذّهبيّ، «حبيبة»، زميلتي في الدّراسة، فتردّ شامخة الهامة:

- لقد وضع والداي ثقتهما فيّ كامرأة ناضجة عاقلة.

فتكرّر تنمّرها، وتضيف متزعّمة حقّ المرأة في الوجود:

- لماذا ترفضين إعطاء رقم هاتفك؟، الحبّ شيء جميل، وأنتِ فاتنة، عيناكِ جميلتان، في رأيك... هل أبغي لك الشّرّ؟.

- اتّخاذ عشيق خيانة.

- دعينا من مبادئ جدّتي.

أشاحت بوجهها عنها وهي تتفقّد ألبوماً للمنشد « محمّد أبي راتب»، طلبت «ابتهاج» إعارته لها، وشقّت طريقها وسط السّاحة الواسعة، بوجه مشرق راح يتلألأ في نور الشّمس الصّباحيّة.

- البيتزا أفضل بكثير.

- من الأبله الذي سينظر إليك، أنتِ تشبهين برميل النّفط.

هذا ما تردّ به على «ابتهاج» عابسة، فتهزّ كتفيها دون مبالاة قائلة بفم ممتلئ، بالكاد أستطيع فهم ما يخرج منه من كلمات:

- وأنتِ... ماذا فعل أحمر الشّفاه الذي تضعينه خفية؟.

فتنفجر الشّلّة مقهقهات، فتصعّد الموقف باستفزاز:

- أوف... يا للرّائحة القذرة، ألا تستحمّين؟.

وتنصرف عنّا وقد شغلها شعرها الذّهبيّ عن الضّحكات التي خلّفتها وراءها بأثر رجعيّ.

★★★

أعود الآن إلى أمّي التي تصفها أختي بسائل سريع الالتهاب:

– «إلهام»، إيّاك ثمّ إيّاك؛ لا تأمني لأحد؛ الرّجال كلّهم سواء.

وكثيرا ما تحذّر «صفاء» وأحيانا تضربها، إذا بلغها أنّها كانت تتسكّع في شوارع المدينة بعد انتهاء الدّوام المدرسيّ، أو أطالت الحديث مع أبناء الجيران، أو حتّى مع أحد زملائها أمام باب الثّانويّة:

– ليست لنا بنات متبرّجات، سترتدين الحجاب العام القادم، لا أريد أن يطاردك الشّباب بعيونهم، وسيحاولون التّقرّب منك.

– لكن أمّي...

– ششوت... إيّاك من عباراتهم الرّنّانة، فالصنّارة تبقى صنّارة؛ حتّى لو غلّفوها بمعسول الكلام، وما دامت هناك صنّارة، فإنّه بالضّرورة سيكون خلفها صيّاد كامن ينتظر حمامة مثلك.

فجأة... يرتفع هرمون التّوتّر:

– اسمعيني جيّدا يا «صفاء»، قلب الفتاة مثل زجاجة العطر، يمكن أن تنكسر من أدنى خطأ، وإذا انكسرت الزّجاجة!...

وتلطم خدّها فارجة عينيها في أقصى اتّساع يمكن أن تصلا إليه.

وحين تلتفت إليّ تهدّد مستنكرة:

– من يريدك، يعرف جيّداً أين يجد أباك؛ نحن عائلة لدينا سمعتنا، شرفنا يعلو فوق كلّ اعتبار، من تعجبه عيناكِ فليرينا عينيه وعيون عائلته، أمّا اللّقاءات الغراميّة باسم الحبّ، والحديث مع حبيب القلب حتّى الواحدة أو الثّانية صباحا، فلا أقبلها أبداً... أبداً، مفهوم؟.

ثمّ تضيف وهي ترفع سبّابتها اليمنى محذّرة:

– انتبهن لوجوهكنّ؛ ألوان التّبرّج تعطي انطباعاً سيّئا، لن أعيد الكلام مرّتين.

لكنّها تتساهل فيها معنا كثيراً في الأعراس!.

أمّا على الشّاطئ فتنفجر وهي تحاول تغطيتنا بمنشفة كبيرة:

– ما هذا؟ ما هذا؟.

رغم كلّ ما يُشاع عن تفتّحنا وعن أبي الفرنكفونيّ، صاحب العينين الزّرقاوين والشّعر المنسدل، بلباسه الأوروبيّ الأنيق، ووجهه المحلوق دائماً بعناية مفرطة، الصّافي أكثر من مرآة غرفتي.

أبي –بطوله الفارع الذي يقارب المترين–، يبدو كنجم سينمائيّ قادم من «هوليوود»، يلقّبونه هنا في المنطقة «Monsieur KADER»، وهي التّرجمة الحرفيّة الفرنسيّة لعبارة «السيّد عبد القادر»، صاحب وكالة سياحيّة، يعمل ليل نهار مثل اليابانيّين، ولولا صورته الكبيرة المعلّقة على الحائط لنسينا معالم وجهه.

يكفيه أنّه يخبرنا هاتفيّاً أنّ وجهتنا السّياحيّة التي اخترناها للاستجمام على شاطئ البحر جاهزة لاستقبالنا، فنذهب دونه، لأنّه منشغل بتنظيم رحلات سياحيّة أخرى.

أمّا أخوه –الذي هو عمّي– «خالد» البالغ من العمر الآن أربعين سنة؛ أصلع الرّأس، شريكه في الوكالة السّياحيّة، وحائط التّدعيم الإسمنتيّ المسلّح على حدّ تعبير جدّتي.

– انظر لصورتك في المرآة يا رجل، لقد حوّلك التّدخين إلى شخص يستطيع الاختفاء وراء عمود كهربائيّ، من اكتشف التّبغ رجل يمقت نفسه أو يمقت العالم، ولا تخفيضات.

فيجيبه ضاحكا:

– لا تقلق «Monsieur KADER»، لن أموت باكرا.

– تزوّج أوّلاً ثمّ مت بكرامتك.

أربعون سنة وما زال أعزبا، هل تصدّقون؟... أربعون سنة دون امرأة يأوي إليها ليلاً ليحكي لها ما حدث له في النّهار، وحين نلحّ عليه يتذرّع بأيّ سبب:

– أنا أبحث عن المرأة المناسبة، لا يجب الاستعجال في هكذا مسائل.

أو –حين تحاصره «صفاء»–:

– أنا الآن أحقّق ذاتي، الزّواج مسؤوليّة أكبر من رئاسة الجمهوريّة.

تقول أمّي متأفّفة بحياء مستتر:

– من المؤكّد أنّ عفريتاً يتلاعب به، هذه نفس، والنّفس أمّارة بالسّوء.

– لماذا لا تكلّمين أبي من أجل خالتي؟؛ سنحلّ مشكلتين وسيسعد الكلّ، أتعلمين؟.

– إذا كان يريدها فلماذا هو صامت لحدّ السّاعة؟، هل ينقصه العمل أم يعوزه المسكن؟.

– ربما يمنعه الخجل.

– لا خجل في الحلال، لحظة...

وتضيّق عينيها قليلا:

– ماذا سيقول أبوك عنّي يا بنت؟، وماذا سيقول النّاس؟... والجيران والأقارب؟.

وتمسك رأسها بيديها كأنّ صاعقة هوت عليها من السّماء:

– تريد إلصاق أختها العانس بشقيق زوجها، يا للفضيحة!، «إلهام»، إيّاك أن تعيدي هذا مجدّدا.

4

حدثَ يوم الخميس

هل جرّبتِ يوماً إحساس الوقوف أمام إعلان يتلاشى أمامه الضّابط والمعيار؟.

هل ارتجفتِ مرّة كالقطّة الصّغيرة، وأنتِ تقرئين بكلّ حواسّك الخمس، ومندفعة -غير عابئة بالزّحام الذي من حولك- عبارات تقع في القلب كمكعّبات السّكّر؟، بل تجدين نفسكِ مرغمة على إعادة قراءتها المرّة تلو المرّة تلو المرّة، وأنتِ في قمّة النّشوة، غير مصدّقة البتّة، أنّ ما كان يراودك طفلة، وتحلمين به مراهقة، ترينه الآن بأمّ عينيك يتجسّد.

تعيشين زمن اللّحظة، بكلّ وضوح للصّورة وتعميق المشهد، وبكلّ صدق وسلاسة... وأناقة التّعبير.

وكلّما تعيدينَ تلك الأناقة في داخلك، غمرتكِ هرمونات السّعادة، وانتشرت في الجوّ رائحة صاحب الإعلان.

«تُعلم إدارة الثّانويّة جميع الطّلبة والطّالبات ذكوراً وإناثا، أنّه سيتمّ إنشاء فرقة إنشاديّة (بالإيقاع فقط)، فعلى المهتمّين والمهتمّات الحضور هذا الثّلاثاء على السّاعة الواحدة زوالاً إلى المدرّج الكبير.

ملاحظة: التّدريب مرّة واحدة أسبوعيّا».

هذا ما نُشر للتوّ حسب ما نقلته لنا «ابتهاج»، التي كانت غائبة هذا الصّباح، حين ولجت باب القسم، وبيدها شريحة بيتزا تحاول التهامها دفعة واحدة، مصارعة صعوبة تنفّسها، جرّاء صعودها السّريع إلى الطّابق الأوّل.

كانت حصّة اللّغة الفرنسيّة قد انتهت، ونحن الآن في انتظار أستاذة الرّياضيّات.

– رأيت الآن المراقب العامّ يلصقه على لوحة الإعلانات، وكان معه على ما يبدو أحد الأساتذة.

– من؟.

– لا أعرفه «آسيا»، يبدو جديدا، كان يتحدّث معه بسرعة، وكانت معهما أستاذة الكيمياء، ثمّ انصرف فوراً وهو يجري مكالمة هاتفيّة، تاركاً خلفه رائحة عطره.

قالتها وهي تحاول استرجاع أنفاسها المقطوعة، أو كالتي تحاول استرجاع ما علق بأنفها من رائحة شذيّة.

من لهفتي الشّديدة نزلت بسرعة البرق، محاولة تفادي حشود الطّلاب والطّالبات الذين بدؤوا يملؤون الرّواق والسّاحة، ولم يهنأ لي بال حتّى قرأت الإعلان بنفسي، حرفاً حرفا، وأعدت قراءته، ثمّ أعدت قراءته للمرّة الثّالثة، والرّابعة، والخامسة.

ما زلت أتذكّر ذلك اليوم جيّدا، الخميس من أواخر شهر سبتمبر من سنة 2015؛ حين كانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا.

★★★

حين رجعت إلى القسم، وجدت الجوّ مشحوناً بشيء آخر، فلم يُفسح المجال للحديث عن فِرقة الإنشاد، وتوسّع النّقاش فجأة، ممتدّاً نحو الشّكل المأساويّ الذي بات سمة مميّزة تُعرف بها «ابتهاج».

– من الأفضل لكِ أن تمارسي الرّياضة، وزنكِ فظيع، ويزداد فظاعة بمرور الوقت، سيأتي يوم لا تستطيعين فيه حتّى التّنفّس.

هذا ما نصحتها به «آسيا» زميلتنا، ذات الشّعر المجعّد الخفيف.

– أمارس الرّياضة؟، هل تريدين التخلّص منّي وأنا في ريعان شبابي؟.

هي جارتي البدينة التي يتجاوز وزنها المائة والأربعين كيلوغراما، نطلق عليها هنا في الثّانويّة اسم «الرّادار»، الطّالبة الوحيدة المعفاة عندنا من الرّياضة، التي تثيرها مغامرات «غريندايزر»، وتبكيها قصّة «هايدي».

– تحجبين قرص الشّمس وما زلت تشاهدين الرّسوم المتحرّكة؟، نساء آخر زمن!.

هذا ما تلومها عليه «نورة»، مراقبة الأقسام النّهائيّة، كلّما رأتها أمامها ضاربة كفّاً بكفّ.

منتفخة الجسم والوجه، لا تكاد تفرّق بين وجهها ورقبتها، متوسّطة الطّول، بيضاء البشرة، ذات شعر فاحم يصل إلى ما دون الكتفين، حين تنظر إلينا من خلف نظّارتها المربّعة الشّكل، تبدو عيناها الزّرقاوان صغيرتين جدّاً كعيني النّملة.

مشكلة «ابتهاج» تتبّع الأخبار والشّائعات؛ ومأزقها إدمانها على البيتزا.

سأشرح لكم أكثر.

نترافق إلى إحدى محلات الأكل السّريع المجاورة للثّانويّة، فتطلب قرصين كبيرين، تلتهم واحداً في رمشة عين، بينما آكل أنا شريحة من القرص الثّاني، ولا أستطيع تناول شريحة أخرى، لأنّه ببساطة شديدة، حين كنت آكل وأتصفّح «فيسبوك» في الهاتف، كانت هي تفترس الشّرائح التي تركتها، في شراهة لا تنافسها فيها سوى «صفاء»، تسرح يداها الاثنتان وتمرح على المائدة وهي ما زالت تمضغ، ثمّ تشير للطّاهي أن يسرع في تحضير الثّالثة.

– هل تعلمين ما مشكلتك المعقّدة عزيزتي «ابتهاج»؟، الدّقيق الأبيض والسّكر المكرّر والزّيت المهدرج، هذه المصائب الثّلاثة أسباب البثور التي تملأ وجهك، وسبب بدانتك، وستسبّب لك مستقبلاً أمراضاً كثيرة، يكفي أن تعرفي أنّك الآن تعانين من شيء اسمه «مقاومة الأنسولين».

هذا ما أحاول تذكيرها به، مستميتة في الدّفاع عن فكرتي، إلاّ أنّي لا أجني منها سوى كتفين يهتزّان في استهتار:

– لا أبالي، أموت وأنا شبعانة أحسن من التّضوّر جوعاً طول اليوم.

ثمّ تعقّب في اعتراض:

– لا أعرف تحديداً ما قصّتك مع الشّوكولاتة الدّاكنة؟؛ يا إلهي!، إنّها فظيعة المذاق... لا تُؤكل، هل تسمعين؟، لا تُؤكل... ياي!.

تعلنها عالياً مركّزة على فظاعة المذاق، متبعة ذلك بتقزّز، تعرف جيّداً كيف ترسمه على وجهها الممتلئ.

– السّكّر هو الذي يرفع «الأنسولين» في دمك، ويبقيك في جوع دائم، ليس غريباً إذن أن يذهب كلّ مصروفك اليوميّ في الأكل، ألا تلاحظين أنّ ذوقنا واحد؟، غير أنّ ملابسك تساير حجمك يوماً بعد يوم.

فتنظر إليّ بابتسامة باهتة، لكنّي أتعمّد وضعها في مواجهة الواقع:

– إدمانكِ على السكّر هو ما يجعل مذاق كلّ شيء آخر مرّاً.

ولكي لا نتشاجر، يجب أن تنهي إحدانا النّقاش سريعا، بعد أن ألقي إليها شيئاً أداعب به أنوثتها:

– السّمنة مقبرة الجمال، أنتِ جميلة يا «ابتهاج»، واللّه جميلة، ألم يخبرك أحد بهذا؟.

ويحمرّ وجهها خجلا، حمرة أخفّ من لون الفراولة، فتتظاهر بتنظيف زجاج نظّارتها السّميك.

★★★

طرقت باب منزلنا طرقاً حثيثا، ففتحت أختي متذمّرة والقلم بيدها:

– ما بك؟، يا لطيف، ما فائدة جرس الباب؟، لماذا اخترعوه؟.

لم أعبأ بها، وتوجّهت مباشرة نحو أمّي في المطبخ معانقة:

– وأخيراً ماما... وأخيراً سيتحقّق الحلم.

– عيونك تتلألأ من الفرح، ما الخبر؟، بشّرينا بشّرك اللّه.

ونطق أخي الصّغير، بنبرة تحمل الحيرة والتّحدّي في آنٍ واحد:

– هل ستقيم «سبيس تون» حفلاً في الجزائر؟، جهّزوا لي المال من الآن، ها قد أعلمتكم مسبقاً كي لا تتهرّبوا من الدّفع.

ثمّ جاءت «صفاء» لتسكته معتمدة على إشارة من يدها، وفي عينيها بريق مرح:

– ششششوت؛ سيخطبك؟، صحيح؟، وسيشتري لك سيّارة؟، حظّ... يا دنيا.

قالتها مشيرة برأسها نحو الجنوب في حركة ماكرة.

بعثرتني نشوة الفرح، فرحت أخلط بين الجمل والعبارات، وهم ينظرون إليّ كأنّ على رؤوسهم الطّير.

– نعم؟، يا لكِ من مجنونة؛ لديكِ امتحان يسمّى «بكالوريا»؛ انسي الأمر كلّه والتفتي لدراستك فقط، لا أريدكِ أن تعيدي السّنة؛ أكرّر... لا أريدكِ أن تعيدي السّنة.

– لكن أمّي...

– ششّشوت.

وانشغلت بمقلاة متوسّطة الحجم، كانت ترغب في تنظيفها في حوض المغسلة، استعداداً لتحضير طبق البطاطا المقليّة بالبيض، لأخي «أيّوب».

كانوا يقولون إنّ حنجرتي معجزة الله في أمَتِه، لكن حين أتت فرصة صقله واستثماره علميّاً ومجّانا، رفضوا جملة وتفصيلا، نعم هكذا... دون نقاش أو توضيح.

هل يرضيكم هذا؟.

باغتتني بالتفاتة، تاركة المقلاة تحت ماء الحنفيّة:

– لديكِ «بكالوريا»، ويقولون إنّها ستكون صعبة هذا العام، وأبوكِ يدفع مبالغ كبيرة مقابل دروس الدّعم التي لا تعدّ ولا تحصى.

– أخذ دروس دعم في كلّ الموادّ أمر لا يبدو لي منطقيّاً البتّة، مقرف... ويستنزف طاقتي العصبيّة، بل يحرمني من استغلال وقت فراغي على النّحو المرجوّ، هل خُلقت للدّراسة فقط؟.

– والحلّ في رأيك؟.

– سأحاول التّوفّيق بين الدّروس والهواية، هذه مشكلتي، حصّة واحدة أسبوعيّاً لن تفسد الطّبخة.

– ستحاولين؟، أعيدي الكلمة لأنّي لم أسمعك جيّدا، لا تغامري بمستقبلك، الأمر مفروغ منه يا بنت.

وخرجت من المطبخ تحوقل، وهي تعاني من تشنّجات في ظهرها، كانت قد اشتكت منها بعد سويعات من عودتها من عرس جارتنا «طاطا مهديّة».

بعد ثلاثة أيّام من المفاوضات العسيرة، بدأت تقول شيئاً آخر:

– نحن نعيش في مجتمع محافظ، لا يقبل الغناء من المرأة أبدا، ماذا سيقول عنّا الجيران؟، ابنة «المسيو كادار» تغنّي؟، من ذا الذي سيتجرّأ ويطلب يدك؟.

– أبي معجب كثيراً بصوت «سيلين ديون»، فلماذا لا أكون أنا «سيلين»؟، ألسنا ديمقراطيّين؟، ألسنا فرونكوفونيّين؟.

– ما هذه الكلمة؟.

قالها أخي «أيّوب» مستنكرا، منصرفاً مع صديقه الذي ناداه للتوّ للعب الغمّيضة.

شرحت لها بالسّاعات أنّ الفِرقة التي ستؤسّس ستكون للإنشاد؛ بالإيقاع فقط، وليست للغناء، فنحن لا نغنّي بالآلات الموسيقيّة، هكذا كتبوا في الإعلان المنشور الذي قرأه الجميع، أنا لا أكذب يا عالم:

– لماذا تقفون حجر عثرة أمامي؟... لماذا تتعمّدون وضع العقدة أمام المنشار؟، لماذا هذا التّناقض؟!.

وأمسكت برأسي صارخة:

– افهموني يا عالم، تقولون إنّ صوتي جميل وقويّ، ومن الخطأ تركه دون استغلال... هذا كلامكم!.

فرّت القطّة من أمامي وهي تموء مواء غريبا.

– لديكِ صوت قويّ حتّى أنّكِ أخفت «لوكا»، وأخشى إذا قمت بتطويره ستخيفين الجيران.

قالتها «صفاء» واختفت حين زمجرت في وجهها:

– لن أقدّم تنازلات، أنا على مبدئي، ولن أختبئ وراء وجهٍ منافق، هكذا ربّيتموني، أنا مشكلتكم على المستوى التّطبيقيّ، فحلّوني بالتّراضي.

– سأسأل إمام المسجد، المسألة ليست عنقود عنب تضعينه بين أسنانك.

هذا ما نالني من كلمات أمّي، لكن بنبرة انهزاميّة هذه المرّة، حين رأت التّصميم على أشدّه في عينيّ.

★★★

الإثنين، أثناء تناول فطور الصّباح.

– إذا فتحت الأمر مجدّدا سيقتلكِ أبوك؛ أنا أحذّرك من الآن.

– أهذا رأي إمام المسجد أم أنّك لم تسأليه أصلا؟، مجرّد عبارات نتخلّص بها من إلحاح الأطفال، كي لا تواجهيني... كي ترتاحي منّي.

– للأسف سنكون مضطرّين للبكاء عليكِ ولن نحضر أيّ عرس لمدّة طويلة.

همست بها «صفاء» في نفَس واحد، وهي تغادر مائدة الفطور، محافظة على مسافة أمان.

– أين هو أبي؟، إنّني لا أراه، لماذا لا يتدخّل هنا؟، أنا أحتاجه الآن، أخبروه أنّ ابنته «إلهام» تحتاجه، ليس لديّ وقت، غدا أوّل حصّة، ويتوجّب عليّ حضورها، الأمر مستعجل أكثر من طلب سيّارة إسعاف.

– أبونا هناك على الحائط.

أتاني الرّدّ سريعاً من «صفاء» وهي على السلّم، ثمّ أتى أخي الصّغير كعادته، حين يسمع أمّي تصرخ، وهو يحمل محفظته، مستعدّاً للذّهاب إلى المدرسة:

– هل ترضين لنا أن نغلق التّلفزيون ثلاثة أيام كاملة، حزناً على روحكِ الطّاهرة؟، لا أشاهد «سلام دانك»، لا أشاهد «كونان»، لا أشاهد «باتمان»، يا للفظاعة.

ثمّ صرخ صرخة طويلة كأنّه نسي شيئا:

– آآآآآآآآآآ، لا أشاهد «سبيس ستون»!، أيّ قلب تملكين يا شرّيرة؟.

لا أزعم أنّي فتاة كاملة دون عيوب، لكن –وهذا هو أهمّ شيء–... لست شرّيرة.

5

وزيرة السّعادة

أخي الصّغير «أيّوب»؛ أحمق الأسرة وعفريت الحيّ، لا يثنيه شيء عن الجري وراء القطط، يقول إنّه يحبّها، بينما هي تأنف اللّعب معه، وكم تشاجر مع أختي من أجل هرّتنا المدلّلة «لوكا».

هوايته لعب الغمّيضة مع أقرانه من الجيران، وارتداء قناع «باتمان» مع ردائه الأسود، حتّى في عزّ أشهر الصّيف.

وحين يملّ منه أبناء الجيران، يلجأ للّعب مع خالتي، ولا يهمّه إن كانت مشغولة أم لا.

- أنا أختبئ وأنت تبحثين عنّي، اتّفقنا؟... أوكي.

ويسرع للتّواري عن الأنظار دون أن ينتظر ردّا.

- ابن اختي وآخر العنقود، ماذا أفعل؟.

كانت درجة الحرارة تقترب من اثنتين وأربعين درجة مئويّة، حين ارتدى قناعه المفضّل، وخرج يتجوّل في أزقّة الحيّ، قائلاً لأمّي:

- سأبحث عن أيّ شخص يحتاج للمساعدة!، أنا هنا في خدمة الضّعفاء.

- شقيقكِ عبقريّ، أو مجنون، أو يعاني من طيف التّوحّد، ثلاثة أشياء لا رابع لها، على كلّ حال ليس وحده، أعرف شخصاً ثانياً يشبهه.

هذا ما أسرّت به «ابتهاج» لي، حين رأته أمامها بلباسه الغريب، مساء ذلك اليوم، بعد أن طلبت وساطتها.

رافقتني إلى المترل بعد انتهاء الدّوام المدرسيّ، ما إن رأتها أمّي أمامها حتّى انتفضت كالصّقر:

- كلاّ، لن تقنعيني، أرجوكِ «ابتهاج»، لا تحشري أنفكِ في الموضوع، لا تتدخّلي بيني وبين ابنتي.

وأضافت بالفرنسيّة «S'il te plaît».

أُسقط في يدي وكدت أفقد الأمل؛ فغداً يوم الثّلاثاء، ولا جديد تحت الشّمس، حتّى الآن... حتّى السّاعة الخامسة عصرا، رغم كلّ المحاولات، غير أنّي كنت مصرّة على المقاومة.

هناك شيء خفيّ في المسألة يحفّزني على التّحدّي.

آه... لحظة فقط، تذكّرت خالتي، سلاحي الفتّاك.

تناولت بعض العنب الأخضر الذي أعشقه كثيرا، ولوحاً من الشّوكولاتة الدّاكنة، لإراحة أعصابي المتوتّرة.

هذا النّوع من الشّوكولاتة يشتريه لي أبي خصّيصا، صنف خالٍ من السّكّر، ومن شحوم الخنزير، ويحوي من ثمانين إلى تسعين بالمائة من الكاكاو، وأحيانا تصل إلى مائة بالمائة، وعليه تعتبر صحيّة، لكن... لا أحد في المنزل يتناولها غيري.

حين كلّمتها في الهاتف قرابة السّاعة السّادسة، قالت إنّ الموضوع معقّد، ويستدعي المبيت، ثمّ أردفت ضاحكة:

– وتهديني لوح شوكولاتة؟.

– أنتِ خالتي وعليكِ إنقاذي، أيهون عليكِ أن أُحرم من تحقيق حلم الطّفولة؟.

– ليفعل الله ما يشاء.

لم تلبث أن زارتنا بعد أقلّ من ساعتين، وانفردت بأمّي حتّى ساعة متأخّرة.

في صباح يوم الثّلاثاء، التقيت بها خارجة من غرفتها، متعبة من نقاش البارحة، غير أنّها أشارت لي بإبهام يدها اليمنى متّجهاً نحو الأعلى، مع ابتسامة رحبة على وجهها، وقالت وهي تستعدّ لاحتضاني:

– آه يا «إلهام» الصّغيرة، لا تشغلي بالك؛ ادرسي فقط وأرينا الشّهادة، أثق فيك... لا تخذليني.

لتتخيّلوا فرحتي!.

إنّها «ماما سوسو»، المسؤولة الفعليّة عن معنويّاتي؛ سلاحي الإستراتيجيّ، الذي لا ألجأ إليه إلاّ إذا اقتضت الحاجة، لأنّها تفهمني، أكثر من أيّ شخص آخر؛ أكثر من أمّي، أكثر من «صفاء»، ومن أبي الذي على الحائط.

غير أنّي أتألّم لبقائها عزباء، وقد بلغت ثلاثين سنة، دائماً أتساءل في قرارة نفسي عن سبب تأخّر زواجها، ولم أجد تفسيراً مقنعا؛ فجمالها أخّاذ يأسر القلوب، وقلبها طيّب يستكين له أيّ رجل، لكنّي أحياناً أفكّر أنّ الله أرادها أن تبقى عزباء، لحكمة هو وحده من يعلمها، ربما كي تقف معي وتساندني، كلّما ألمّ بي وهن.

★★★

– متى جلستِ مع «إلهام» دون أن تأنّبيها؟.

– دعيني وشأني «سميّة»، أنتِ تشخّصين الحالة الخطأ.

– كيف أشخّص الحالة الخطأ؟، أنا أعي جيّداً ما أقول، أريد إفهامكِ شيئاً في غاية الأهميّة.

ورفعت حاجبيها لأعلى فقاطعتها محاولة إغلاق الملف:

– دعيني «سميّة» دعيني، «إلهام» أصبحت عقدة تؤرّقني، أختها أعقل منها وكأنّها ولدت قبلها.

– «إلهام» مراهقة، تحتاج من تأخذ بيدها إلى برّ الأمان في هذه الفترة الحسّاسة، وليس إلى من تؤكّد لها أنّها في حدّ ذاتها مشكلة.

– و«صفاء»؟، أليست مراهقة؟، لماذا لا أواجه معها أيّة مشكلة؟.

– هناك فروق فرديّة بين الإخوة والأخوات، هذا موجود في كلّ العائلات والأسر في كلّ العالم.

– أنتِ كالتي تحاول بكلّ حرص عدّ نجوم السّماء، ولكثرتها يختلط عليها كلّ شيء، فيضيع العدد والمعدود، ثمّ تحاول من جديد وتتعثّر كسابقتها، ثمّ تحاول وتتعثّر، ثمّ تحاول وتتعثّر، وهكذا دواليك، حتى أصبحت العمليّة كلّها تحدث آليّا، لكن دون نتيجة، فهل هذا يعتبر مثالاً للإصرار أم للغباء؟.

– ماذا تقصدين بهذا؟.

– لا شيء «سميّة»، أحاول إيقاظك، أنتِ تحترقين بلهيب شمعة... تذكّري.

– وأنتِ تحملين نفس الوصفة لجميع الأمراض.

– أنا؟.

– الضّمير المطمئنّ خير وسادة للرّأس.

في الشّوط الثّاني من المشاجرة تعلو أصواتهما أكثر:

– متى تفهمين أنّ ابنتك تمرّ بمرحلة حسّاسة من عمرها تسمّى «سنّ المراهقة»؟، لا يكفي أن تكون علاقتكما علاقة رسميّة فقط، يجب أن تقدّمي لها حلولاً جذريّة لمعضلاتها؛ حلولاً واقعيّة، انتبهي؛ واقعيّة.

– ألا يكفي أنّي أقدّم لها كلّ شيء؟... أنا وحدي التي تسدي إليها النّصائح، أنا أملأ مكان أبيها الشّاغر.

وأشارت بسبّابتها إلى الصّورة الكبيرة المعلّقة في الصّالون.

– هل تسمّين أوامرك نصائح؟، ثمّ تلجئين إلى المقارنة بينها وبين «صفاء»، أم أنّكِ تحافظين على وجودك الرّمزيّ كأمّ ولا تهمّك باقي التّفاصيل؟.

يا سلام!...

«ماما سوسو»، وزيرة السّعادة، بحر ليس له شاطئ، قلب عظيم وحنون، يعادل في طيبته قلوب ساكني مدينتنا عن بكرة أبيهم.

أقسم على ذلك... وأنا الممضية أسفله.

6

لست أستاذ موسيقى

يوم الثّلاثاء تربّعت على عرش سعادتي، حين أكّدت «ابتهاج» أنّها رأته البارحة يتحدّث مع المدير، وقالت إنّه يبدو شخصاً جيّدا؛ متوسّط الطّول، قويّ البنية، قمحيّة بشرته تكاد تلامس أخفّ درجة نادرة من السّواد.

طوال الطّريق وأنا أفكّر في لوح الشّوكولاتة الدّاكنة الذي أحضرته معي، كهديّة ترحيب، لكن ما إن ذكرت هذا أمام «ابتهاج»، حتّى قفزت وكأنّ مسّاً شيطانيّاً أصابها:

– إيّاك يا مجنونة؛ من ذا الذي يأكل شوكولاتة بمرارة العلقم؟، في هكذا مواقف نقدّم أشياء سكّريّة المذاق.

وراح لعابها يسيل حول شفتيها، وهي تواصل عرض نظريّتها:

– كي يأخذ عنكِ انطباعاً جيّدا، فأل حسن إن أردت، من حسن حظّكِ أنّنا وحدنا.

– أهذا رأيكِ بصراحة؟.

قلتها متردّدة، متمنّية لو تتذكّر شيئاً على حين غرّة، فتسعدني بتغيير موقفها، لكنّها أجابت بعينين مغمضتين وهي تهزّ رأسها بسرعة السّلحفاة:

– نصيحة أخويّة.

★★★

أمام مدرّج الثّانويّة، وجدنا ثلاثة طلاّب فقط، «محمود» و«عبد الكريم» و«رضا»، والباقي كلّهنّ طالبات، حوالي خمسين فتاةً كنّ ينتظرن بالدّاخل، حتّى أنّ الأستاذ نفسه كان مندهشاً من هذا الإقبال الضّخم.

كان منظر الحاضرات يخيفني، جلس الذّكور وحدهم في جهة، ونحن البنات نحتلّ كلّ شبر تقريباً من المساحة الباقية.

– هل يمكن أن أفرض نفسي بين كلّ هؤلاء؟.

تتكرّر هذه العبارة كثيراً في داخلي، وأنا أتأمّل هذا الجمع الذي أغلبه من المحجّبات؛ حجاباً شرعيّاً بلباس فضفاض يستر كامل البدن، وخمار منسدل إلى ما تحت الكتفين، وأخريات مثلي، بخمار يعلو لباساً فضفاضا، يصل

إلى ما تحت الرّكبة بقليل، يكشف عن سروال جينز أزرق اللّون، عالي الجودة، من علامة «إيفرلان»، كثيراً ما أتشاجر مع أختي بسببه.

وهناك بعض الطّالبات اللاّتي كان النّسيم العليل يداعب شعورهنّ على فترات متقطّعة، مثل أختي «صفاء»، التي قالت لأمّي قبل أيّام، حين أشارت عليها بارتداء الخمار على الأقلّ:

– لماذا العجلة؟، ما زلت صغيرة، دعوني أتمتّع بطفولتي.

– اضبطي هندامكِ جيّداً يا بنت.

تقولها بخطاب جنرال، ثمّ تتوسّع بالتي هي أحسن:

– إذا كنتِ تريدين من النّاس أن يحترموك، فاحترمي نفسك، لا أريد أن يتحدّث عنكِ الجيران بسوء، السّمعة مثل الرّائحة.

فتجيب سرّاً وقد أُقنعت جزئيّاً:

– أنا في وزن الرّيشة، من سيحدّق بي؟.

بصعوبة جلسنا أربعتنا في صفّ الطّاولات الأوّل، متلاصقات كقطع الجبن.

كان المدرّج دافئا، وكنت متلهّفة على رؤية هذا الأستاذ، وكأنّ مغناطيساً يجذبني إليه، وبدا لي أنّ الكلّ متلهّف لرؤيته مثلي، ثمّ انتابني إحساس داخليّ، سرعان ما تطوّر إلى هاجس غيابه لطارئ ما، والتفتّ نحو «ابتهاج» التي عاجلتني بالقول:

– لا تقلقي، رأيت سيّارته متوقّفة في الخارج، من المؤكّد أنّه الآن مع المدير في مكتبه.

وقفت إحدى الطّالبات عند باب المدرّج، ثمّ هتفت فجأة:

– إنّه قادم.

وجرت نحو مقعدها في حركة رشيقة، بدت حركات «ابتهاج» أمامها تصويراً بطيئا.

دخل علينا نشيطاً مسلّما، ورائحة عطره تغمر المكان، فرددنا السّلام جميعاً بصوت واحد، ثمّ ساد الصّمت، ترقّباً لما سيقول:

– يمكنكم مناداتي «سمير»، فقط، دون تكلّف، أنا موجود هنا لخدمتكم.

بصوت رتيب جميل جمال وجهه، ثمّ سار بضع خطوات مردفا:

– أنا لست أستاذ موسيقى؛ أنا هنا لأعلّمكم «فنّ الإنشاد»، تذكّروا هذا جيّدا، «فنّ الإنشاد»، الموسيقى جذع مشترك لجميع الفنون الغنائيّة الموجودة في العالم، الدّينيّة وغير الدّينيّة؛ الدّينيّة مثل «المزامير» عند اليهود، و«التّرانيم» الكنسيّة، وغير الدّينيّة مثل «الحوزي»، «الجاز»، «الريغي»، «الكاونتري»، «الروك»، «الماريياتشي»، «السّلو»... إلخ، هذا على سبيل المثال لا الحصر.

أدهشنا كلامه الذي يبعث على الاطمئنان، يا ليت كلّ أساتذتنا يتمتّعون على الأقلّ بجزء بسيط من هذه الشّفافيّة.

همست «آسيا» ببراءة الأطفال، وهي تتلمّس شعرها المجعّد:

– أين أستاذ الفلسفة المتكبّر الآن ليرى ما نراه ويسمع ما نسمعه؟.

فطأطأت «ابتهاج» رأسها مستميتة في كتم ضحكتها.

ثمّ سمعته يسأل:

– من درس أو درست الموسيقى؟.

رفعت بعض البنات أياديهنّ مع أحد الطّلبة، أمّا أنا وأخريات؛ فاكتفينا بالفرجة، وقد تملّكني تشاؤم تبدّد وأنا أسترجع أنّي هنا لأتعلّم، ويجب أن أتعلّم، مهما كلّفني الثّمن.

يجب أن تساهم المرأة في تشكيل العالم، يجب أن تضع بصمتها في كلّ ميدان تستطيع الخوض فيه.

ثمّ سأل عن المنشدين الذين نعرفهم:

– من تجيب أو من يجيب... أرجو أن يعرّفنا على اسمه.

قالت «حنان»:

– «أحمد أبو خاطر»، وأستمع كثيراً للمنشد «مشاري العرادة» وخاصّة سلسلته «يا رجائي».

وقالت «ابتهاج»:

– «أبو الجود»، «عبد المجيد الفوزان»، «مشاري العرادة»، «سعد الغامدي».

فيما لم تحدّد «إشراق» أيّ اسم.

وهمست «بثينة» بحياء:

– «موسى مصطفى».

وأضافت «زينب»:

– «أيمن الحلاّق»، «معتصم العسليّ»، «يحيى حوى».

ثمّ نطق «محمود» دفعة واحدة:

– «أبو راتب» «أبو الجود» «أبو محمود التّرمذي».

وتوالت أسماء الحضور والفنّانين.

أمّا أنا فكنت محتارة، لا أدري ما الذي يجب عليّ قوله، خطر لي اسم «سيلين ديون»، لكنّه حين نظر إليّ أجبت فورا:

– «سامي يوسف».

كان ألبومه «المعلّم» ما زال يعرف رواجاً كبيرا، وهو ما أدخله عالم الإنشاد من بابه الواسع، لكن فاجأنا الأستاذ بقوله:

– «سامي يوسف» ليس منشدا، إنّه مغرّد، مثل «ماهر زين».

فصمت الجميع مشدوهين لمدّة خلتها ربع ساعة أو أكثر، راح الأستاذ يوضّح فيها بإيجاز ما حدث:

– سجّل «سامي يوسف» ألبومه الأوّل «المعلم» بالإيقاع فقط، في فترة حرجة في تاريخ الإنشاد، وهي سنة 2003، كان ألبوماً مميّزا، لم يعرف جمهور الإنشاد مثله من قبل، خاصّة بعد تدعيمه بفيديو كليب نموذجيّ، مثّل نقلة ثوريّة، فوجد نفسه وسط العائلة الإنشاديّة.

قفزت «ابتهاج» من مكانها:

– الذي عُرض في «إقرأ»؟.

ردّت عليها بعض الأصوات:

– «mbc».

– لا بأس، «إقرأ» أو «mbc»، ما يهمّنا هنا أنّ «سامي يوسف» مغرّد وليس منشدا، و«التّغريد» فنّ غنائيّ يشبه فنّ «الإنشاد» يؤدّى بآلات العزف الموسيقيّة، أمّا «الإنشاد» فيؤدّى بالصّوت فقط، أو بآلات الإيقاع، مهما كان نوعها، ركّزوا معي... سنة 2003 سنة محوريّة في الفكر الإنشاديّ، بدأ يعرف نموّاً في بداية القرن الحادي والعشرين بسبب العالميّة، وتشابكها مع العولمة، ثمّ ظهور الحركات الإنشاديّة العالميّة، مثل حركة «الفجر الأخضر»، وحركة «البراعم»، وحركة «المقام الجديد».

ثمّ تابع مستطرداً بحركة من يديه:

– لا تشغلوا تفكيركم بمعلومات لا تحتاجونها الآن؛ لا تتعجّلوا طلب العلم.

ونحن ننظر ولا نملك سوى النّظر، مبهورين بهذا العمق الذي يتجسّد أمامنا عن شيء كنّا نراه في الفضائيّات ولا ندرك خباياه.

– سنركّز في الأيّام القادمة على تصحيح الصّوت، وتقويته بطريقة علميّة، هنا في المدرّج.

ونظر عالياً في الفضاء:

– أعتبره مقرّاً نموذجيّاً للتّدريب، شيئان... أحبّ توكيدهما لكم.

ورفع سبّابته اليمنى مساوياً بينها وبين وسطاه، ثمّ اشترط ضامّاً راحتيه إلى بعضهما:

– أوّلا؛ في الحصّة أرجو أن تضعوا هواتفكم على الاختيار الهزّاز، ثانياً؛ لا أقبل التأخّرات، لاحظوا أنّنا حين نتحدّث عن الوقت فإنّنا نتحدّث عن الدّقّة، لأنّ التّدريبات يجب أن يقوم بها الجميع في وقت واحد، ثالثاً؛ لا أقبل الغيابات إلاّ للضّرورة الملحّة، كي لا يتقدّم طلاّب عن طلاّب.

لكنّه ابتسم مواصلا:

– لا تقلقوا، سنتوقّف في فترة الاختبارات، ولا سيما اختبارات نهاية السّنة لحساسيّتها بطبيعة الحال، ونتدرّب حتّى في عطلتي الشّتاء والرّبيع.

قلت في نفسي:

– ممتاز، هذا معناه ارتياحي الكامل من عبارات أمّي المملّة حول ضرورة المراجعة.

انتبهت لكونه ظلّ واقفاً طول مدّة حديثه، ينتقل بنشاط من مكان إلى آخر، على امتداد المساحة الأماميّة للمدرّج.

★★★

ثمّ أتت اللّحظة التي قال فيها شيئاً مميّزا:

– الصّوت هو الأساس في كلّ الأناشيد، هو الأداة التي تبرز كلّ مكوّنات النّشيد أو الأنشودة، كالشّعر واللّحن والتّوزيعات، أي باختصار؛ إذا توفّر لديكم صوت سليم، فبالآهات فقط ستطربون المستمع، دون حاجتكم للكلمات.

رفعتني عباراته إلى أعلى قمّة في جبال «الهيمالايا»، وانتظرت أن يسأل عن صاحبات الأصوات الجميلة، أو على الأقلّ أن يسمع أصواتنا فيحكم بنفسه فأتلّق... لم يفعل، فتسلّلت إلى أعماقي بعض الخيبة.

غير أنّه أردف مباشرة:

– سنخصّص حوالي شهرين، لتمارين تصحيح الصّوت، وتقويته دون التّعرّض لأيّة أنشودة، وأكرّر؛ دون التّعرّض لأيّة أنشودة، بمعدّل حصّة واحدة أسبوعيّا، ما سيكون مجموعه إن شاء الله ثماني حصص، نحاول استغلال كلّ ثانية فيها.

نظرت «ابتهاج» نحوي متعجّبة:

– معناه أنّنا لن ننشد؟.

نظرت يميناً ويسارا لألتقّى نظرات تشي بعدم ارتياح عند الحاضرات؛ أسلوب العمل هذا يبدو مخيفا.

قالت «آسيا» أنّ الأمر لم يعد يعنيها، وبناء عليه لن تعود مرّة أخرى إلى هنا.

7

طريقتي الخاصّة في التّرحيب

– لا يمكن لأيّ أستاذ مهما كان علمه أن يعلّمك شيئاً ذا قيمة فعليّة، إلاّ إذا توفّرت بينكما مساحة معرفيّة مشتركة تتّسع باستمرار، هذا الاتّساع هو مرآة اكتسابك للعلم، ضعي هذا نصب عينيك... يُطلب العلم بالتّدرّج، ومن قال إنّه سيجعل منك دكتورة في ستّة أيّام، فهو جاهل أو كاذب.

هذا هو ردّه على «حنان»، التي تدرس السّنة الثّانية شريعة، حين سألته عن بعض المقامات النّادرة، مبدية رغبة عارمة في تعلّمها، بعد أن أعطته بعض التّفصيلات، أظهرتها خبيرة في ترتيل القرآن الكريم، بل راحت تناقشه في الأبعاد والمسافات.

أمّا «حبيبة» التي تدرس في الجذع المشترك «آداب»، فسألت عن إمكانيّة أن تتحوّل الأناشيد إلى بديل عن الفنون الغنائيّة الهابطة.

ألقى ببصره إلى الأعلى متنهّدا:

– الفنّ ليس للتّسلية فقط، بل هو للتّربية والتّوجيه، وأيّ شيء تستمعين إليه يا «حبيبة»، إنّما له تأثير على عقلك الباطن، تذكّري هذا جيّدا، وتذكّروا جميعا، الفنّ رسائل موجّهة؛ إمّا يكون باقات ورد فوّاحة تسعد وتنفع الكلّ، أو ألغاماً وقنابل موقوتة، تدمّر كلّ شيء في لحظة مستقبليّة، فكرة الفنّ من أجل الفنّ، فكرة ليست صحيحة إطلاقا؛ ولا يمكن أن تقنع شخصاً ذا عقل وبصيرة.

ثمّ نطقت «إشراق» التي تدرس السّنة الثّانية لغات:

– لديّ صوت معزاة، هل يمكن أن أتحسّن أستاذ؟.

انفجرنا ضاحكين على سؤالها، فيما انشغل هو بالإجابة، بعد أن ابتسم ابتسامة رسم بها كاريزماه الخاصّة.

كانت «نغم» صديقة «ابتهاج» القديمة، تحاول قول شيء ما، حين انتبه إليها:

– يبدو أنّ لديك سؤالاً يا آنسة... تفضّلي، كلّنا في الاستماع.

★★★

«إذا تكلّم إنسان عن سيرته في الحياة، فليس معنى ذلك أنّه يفتخر أو يتباهى؛ إنّما يريد تسليط الضّوء على الطّريق الذي سلكه في سفره في رحلة الحياة، فلربما استفاد من ذلك السّائرون بعده».

هذه هي مقولة شيخ المنشدين، التي ستترسّخ في نفسي بعد أربع سنوات، وأنا أتأمّل مرآتي ذات العشرة أعوام، وقد رسا تصوّري على بصمة أضعها عميقة في التّاريخ، ولا يهمّني من سيكتشف الأحفور.

ما زلت أعتبر ما قرأته من مطالعاتي على أهم المراجع جسراً يربط بين أهمّ مدرستين إنشاديّتين في العصر الحديث، مدرسة «التّتابع» التي تضمّ أبرز المنشدين، أمثال «محمّد منذر سرميني»، «أبو محمود التّرمذي»، «رضوان عنان»، وبين مدرسة «الأفكار»، التي ينتمي لها «مشاري العرادة»، وهذا الأستاذ.

– سؤالاكما يصبّان في ذات المجرى.

وأشار إلى «إشراق» و«نغم».

– في الواقع هذه مشكلة شائعة، إمّا يكون الصّوت خاطئاً أي «نشازا»، أو صحيحاً لكنّه ضعيف، هناك تمارين نقوم بها لتصحيحه إذا كان خاطئا، وتقويته إذا كان صحيحا، أصارحكم القول، هي تمارين صعبة نوعا ما، تتطلّب صبراً وجهداً ومثابرة، في الأصل... ما يحدث هو أنّ الأصوات الصّدرية متخلّفة، فتضطرّين لا شعوريّاً للاعتماد على أصوات التّجويف الأنفيّ، وإذا تقوّت الأصوات الصّدريّة، سيكون هناك توازن محسوس.

ثمّ اقترب من «إشراق» مدقّقا، كأنّه يختار كلماته بعناية فائقة:

– أعتمد عليك يا آنسة؛ النّتائج مضمونة إن شاء الله، لكن –وهزّ رأسه كبندول السّاعة– يجب بذل جهد، أليس كذلك؟.

وانتظر هنيهة يتحسّس ردّ فعلها، وحين لمح تفاعلاً إيجابيّاً في عينيها أكمل، موجّهاً كلامه إلينا:

– لا يمكن تحقيق النّجاح بالأمنيات والأحلام والحبّ فقط، الهواية فوضى تغذّيها الرّغبة النّفسيّة، وسيرورة يحرّكها الحماس نحو المجهول.

رأيت في عينيه عزماً غريبا، وإصراراً عجيباً على المضيّ قدما... مهما كلّف الأمر.

لم أفق من شرودي إلاّ على سؤال «ياسمين» عن التّعليق الصّوتيّ، وهي تثني بصوتها الذي يشبه صوت مقدّمي نشرات الأخبار على المعلّق «هاشم عبد السّلام الكفاوين»، فانساق يشرح الفرق بين مجال هذا الأخير و«الارتفاع بالنّغم»؛ مجالان مختلفان ومتشابهان في آن واحد، مسترسلاً في ما لم أستوعبه جيّدا.

وغبت عن واقعي هنيهة للمرّة الثّانية، حتّى نكزتني «ابتهاج»:

– لا تدعيه يأخذ انطباعاً سلبيّا عنك، إنّه يحلّل حركاتنا وعباراتنا.

– ماذا؟.

وتذكّرت لوح الشّوكولاتة الذي ما زال في حقيبتي ينتظر لحظة التّقديم، ورحت أطمئن نفسي أنّ الوقت المناسب له سيأتي بعد دقائق، حين ينصرف الكلّ.

في نهاية الحصّة، هبّ الجميع إليه، كمعتمر قدم لتوّه من البيت الحرام، فآثرت الانسحاب.

خشيت أن أوصف بالتملّق، واضطررت للعودة بهديّتي إلى المترل، وغصّة مريرة في قلبي... كالمرارة التي تحدّثت عنها «ابتهاج».

8

... لكنّه يوظّف الموسيقى

كان ما سبق كلّه حصّة تعارف، أمّا الحصّة الثّانية فهي حصّة العمل الفعليّ.

أحضر معه هذه المرّة كمبيوتراً محمولا، ومضخّم صوت متوسّط الحجم، ثمّ ارتدى أمامنا زوجاً من القفّازات البيضاء، وعلّق كرونومترا في رقبته، فبدا يشبه أستاذ الرّياضة.

هذا التّصرّف جعل الأمر يبدو جدّياً أكثر ممّا جلبت شخصيّته من تصوّرات لأذهاننا.

كان الجميع ينظرون إليه في صمت، ثمّ قال:

– استمعوا لهذا وحاولوا تقليده، لا فرار من الخطأ، إنّها مرّتكم الأولى، وجلّ من لا يخطئ.

يا للعبء الثّقيل الذي أزاحته هذه الجملة عن كاهلي!.

ثمّ بدأ يُسمعنا صوت «البيانو» و«الكمان» من الكمبيوتر:

– استمعوا لهذا الصّوت رجاء، هذا صوت «دو»، من درسوا الموسيقى يعرفون ذلك، سأحاول الآن تقليده بصوتي، انظروا، دووووو.

وأطال تقليد الصّوت، موعزاً لنا بتقليده معه في إشارة بيده.

همست لي «إشراق»:

– كيف نقلّده؟.

– مثلما يفعل الأستاذ، هل تجدين ذلك صعبا؟.

واصل الأستاذ تقليد صوت «دو»، تزامناً مع استصداره من الكمبيوتر، منتقلاً بين آلتي «البيانو» و«الكمان»، والدّهشة تخرس ألسنتنا، يصدر الصّوت الذي يشبه صوت «البيانو» تماما، ويردّد معه، دووووو مسترسلا، ثمّ يحوّل «البيانو» إلى «الكمان» بنقرة بسيطة، ويردّد معه بنفس الطّريقة.

تشجّعت وبدأت أردّد معه.

– هكذا يمكنكم سماع أصواتكم.

ووضع كفّيه بمحاذاة أذنيه، مثل مرتّلي القرآن الكريم.

قالت «حنان»:

– رأيت هذا عند الشّيخ «عبد الباسط عبد الصّمد»، غير أنّي لم أفهم جدواها.

– ما قمنا به الآن هو تصحيح الصّوت استناداً إلى آلة موسيقيّة لا تخطئ، وهو في الوقت ذاته إحماء للأحبال الصّوتيّة، وله قدر كبير في تفادي الإصابات.

وأشار إلى رقبته.

★★★

مضت حوالي ربع ساعة حتّى استوعبنا ما يحدث أمامنا جيّدا.

تبدو عملية تقليد أصوات «البيانو» سهلة، لكن عند التّنفيذ يتغيّر الاعتقاد إلى النّقيض تماما، كانت الواحدة منّا لا تتجاوز خمس ثوانٍ، أثناء محاولتها المستميتة.

– تنفّسوا من البطن وليس من الصّدر؛ شهيق من الأنف عميق، ثمّ أخرجوا الصّوت ببطء، نفخ البطن بالهواء هو ما يجب أن يكون، أمّا نفخ الصّدر، فينشئ ضغطاً على الرّئتين من عظام القفص الصّدريّ، إضافة إلى أنّ مساحة الرّئتين من الأسفل أكبر من مساحتها من الأعلى، حاولوا أن تركّزوا جيّدا كي تسجّل أدمغتكم الصّوت صحيحاً كاملا، فتستشعروا الخطأ وحدكم، دون تدخّلي المباشر للتّصحيح.

هذا ما كان يذكّر به من حين إلى آخر.

استمرّت العمليّة عشر دقائق أخرى، ثمّ انتقل الأستاذ إلى الصّوت الثّاني «ري»، الذي كانت عمليّة تقليده أسهل من الصّوت الأوّل.

كانت عيناه تتنقلان بين الحضور مراقباً وضابطا، بينما بدأت بعض الأعراض الغريبة تظهر على الجميع.

«ابتهاج» تبكي وهي تحاول تنظيف نظّارتها، «حنان» تسعل بقوّة كأنّ شيئاً علق في حلقها، «آسيا» أصبحت خرساء في أقلّ من دقيقة.

ثمّ بدأت أسمع سعالاً متفرّقاً من كلّ جوانب المدرّج، سرعان ما يشتدّ إلى درجة لا يمكن تصوّرها، وحين نظرت خلفي، راعني ما رأته عيناي.

– يجب أن تدركوا أنّ ما ترونه الآن أشياء عاديّة.

قالها مشيراً لنا بالتّوقّف بحركة من يديه.

همست «إشراق» بصوت مبحوح، تحاول كبح سعال فاجأها:

– كدنا نموت... ويقول إنّها أشياء عادية.

– ما عايشتموه الآن هو أعراض بداية عمل أحبالكم الصّوتيّة، أو ما يسمّى «علامات بداية التّخلّص من الكبت الصّوتيّ»، سنتعرّف على الأحبال الصّوتيّة بالصّور والفيديوهات لاحقاً إن شاء الله، كي أضعكم في إطار احترافيّ.

ثمّ توجّه إليّ بالحديث:

– ما اسمكِ يا آنسة؟.

– «إلهام» أستاذ.

– هل يمكن يا «إلهام» أن تقلّدي هذه الأصوات الحلوة؟.

تملّكتني رعشة غريبة وقد تذكّرت لوح الشّوكولاتة القابع في حقيبتي منذ الأسبوع الماضي، وبقيت جامدة مكاني شاخصة ببصري نحوه، حتّى نكزتني «ابتهاج» فانتبهت.

– ركّزي فقط يا «إلهام»، لا أطلب منك الشّيء الكثير، ركّزي وحاولي تقليد هذه الأصوات حسب قدرتك، وإذا أخطأتِ فلا بأس، كلّنا نخطئ.

وراح يقلّد:

– دووو، رييي، مييي، فااا، صووول.

كان يقلّد أصوات «الكمان» بصوته طالباً منّي مجاراته، ناظراً للكرونومتر المعلّق على صدره، ثمّ نظر للباقي شارحا:

– نحن هنا في مقام «العجم»، على درجة «دو»؛ أي في صوت «دو».

قلّدت الأصوات بدقّة استغربها هو شخصيّا، بطريقة سليمة كما طلب منّي، دون مشكلات، وسط دهشتي ودهشة الحضور، إذ استغرق كلّ صوت منّي في المعدّل حوالي دقيقة واحدة؛ غير أنّي لمّا وصلت إلى درجة «لا» توقّفت.

انقطع نفَسي وبحّ صوتي، فضحك الأستاذ معلّقا:

– لا بأس عليكِ يا «إلهام»؛ لا بأس، عمل جيّد، رائع، رائع بأتمّ معنى الكلمة، أنتِ «سوبرانو».

لأوّل وهلة اعتقدت أنّه اسم فتاة، حتّى أنّي كدت أن أذكّره باسمي، غير أنّ استرساله في الحديث أجهض فكرتي:

– أصوات النّساء نوعان رئيسان؛ الصّوت الحادّ مثل «إلهام»، وهذا يسمّى «سوبرانو»، والصّوت الغليظ «آلتو»، مثل هذه الآنسة.

وأشار إلى إحداهنّ.

همست «ابتهاج» للأخريات:

– من أقارب «غريندايزر»؟.

انفجرت «آسيا» ضحكا، وأشارت «حنان» بيدها إلينا أن اصمتن.

فيما اشتكت «إشراق» على ما يبدو من دوار مفاجئ، بيد أنّه اعتبر ذلك ملمحاً عاديا، لا يدعو مطلقاً للقلق، فهي غير معتادة على هذا الجهد، وجسمها الآن يحتاج بشدّة للأوكسجين، وبكميّة كبيرة، أكبر ممّا اعتادت عليه.

لم أعر اهتماماً لطريقة جلوس «نغم»، التي تبدو بظهرها المقوّس كعجوز صغيرة، لكنّ الأستاذ كان يقصدها بكلامه:

– حاولوا الجلوس معتدلين، باستقامة تامّة للظّهر، لأنّ الطّريقة الخاطئة ستؤدّي إلى اعوجاج فقرات العمود الفقريّ بمرور الزّمن، ولن تعمل أجهزة الجسم حينها بالصّورة المرجوّة، وخاصّة الجهازين التّنفسيّ والعصبيّ، لأنّ الاعوجاج سيضغط على النّخاع الشّوكيّ بصفة خاصّة.

ما فهمته من كلامه أنّه حين نرتفع بالنّغم سنكون في أمسّ الحاجة للهواء، أي للأوكسجين، وغيابه معناه عدم القدرة على إخراج الصّوت، وفوق ذلك زيادة الإحساس بالتوتّر والقلق، وتوارد الأفكار السّلبيّة.

ثمّ أضاف وهو يطوي الكمبيوتر المحمول:

– يجب أن نفهم ونعي كيفيّة عمل أجسادنا، لا بأس عليكم اليوم، ستجدون أصواتكم مبحوحة، أرجوكم، ليس هناك أيّ داع للقلق، أحبالكم الصّوتيّة هنا بدأت تعمل بشكل لم تكن تعمل به سابقا، لا تتناولوا العسل بعد التّدريب، من لديها زيت الزّيتون فلتشرب منه مقدار ملعقة صغيرة، تذكّروا، زيت الزّيتون بعد التّدريب، والعسل قبل التّدريب، فاحفظوا هذا التّرتيب، لا تستعجلوا النّتائج، العمل الجيّد يتطلّب وقتا، أريد شيئاً احترافيّاً، مدروساً وراقيا.

استغرق كلامه أقلّ من خمس دقائق، ثم نظر للذّكور باسما:

– لم أسمعكم يا شباب.

كان المساكين الثّلاثة يثيرون الشّفقة، أحدهم يمسك برأسه، والآخر يسعل بشدّة، والثّالث يمسح عينيه خفية، من دموع أحرجت رجولته.

– أصواتكم كلّها من نوع «تينور»، أريدكم يوم السّبت القادم إن شاء الله للتّدريب، على الثّالثة مساء هنا في المدرّج، اتّفقنا شباب؟.

هزّوا رؤوسهم إيجابا، ومن أين لهم بقوّة الحديث؟.

وأكملنا التّدريب على نفس السّياق السّابق، بعد استراحة قصيرة، كانت حديثاً هامشيّاً مع المدير الذي أتى يتفقّد الأوضاع.

هذه المرّة زادت الأعراض كثيرا، فأشار لنا بالتّوقّف، وهو يوصينا بتوخّي الصّمت، كي لا نتعب أحبالنا الصّوتيّة بالكلام، وخرجنا من حصّة لم تدم أكثر من خمس وأربعين دقيقة، والغريب أنّ الأعراض السّابقة لم تصبني، و لم أفكّر في سؤال الأستاذ حينها.

لقد غطّت فرحة ما حقّقته على كلّ شيء، أثبتّ جدارتي عن استحقاق، لم أكن أعرف أنّ الأستاذ قد انتبه لي، بل إنّي الآن أشكّل جزءاً لا يتجزّأ من خططه المستقبليّة.

★★★

في السّاحة عند المغادرة، أقسمت «آسيا» بصوت وصفته «ابتهاج» بصوت مومياء مصريّة:

– هذه المرة لن أعود، والله لن أعود، هل أنا مجنونة حتّى أفعل بنفسي كلّ هذه الأفاعيل؟، ما الذي يجبرني على هذا العذاب؟.

ثمّ أضافت ساخرة:

– ويحذّرنا من إعادة هذا التّدريب في المترل؟.

9

«سوبرانو»

من المستحيل أن أضمن توازني العقليّ أمام فرحة راحت تتملّكني رويدا رويدا، وأنا في طريق عودتي إلى البيت، فما إن وجدت أختي عند الباب، حتّى عانقتها بكلّ قوّتي، إلى أن صرخت من الألم:

– ستكسرين لي ضلعاً، ما بك؟... يا لطيف.

ثمّ غيّرت نبرتها بعد أن استطاعت التّحرّر من مسكتي:

– هل تحدّث معك؟... سيجنّ من أجلك أتعلمين؟، لقد سألني عنكِ الآن فقط، وهو يبلّغك تحيّاته... هل رأيتِ الطّراز الذي اقتناه مؤخّرا؟.

– دعيني «صفاء»، لديّ ما هو أهمّ بكثير من ذلك الجرذ، يجب أن تساهم المرأة في تشكيل العالم.

– أنتِ تتحدّثين كالسّياسيّين، وتتصرّفين كفتاة أرستقراطيّة، تواضعي قليلا... يا ساتر.

وراحت تخفض يدها ناحية الأرض في حركة مكرّرة.

– أنا متميّزة، ركّزي جيّداً في التّفاصيل.

ورحت بدوري أرفع يدي ناحية السّماء في حركة معاكسة لحركتها، متبخترة في الرّواق.

تجاهلتني أمّي التي عزّزت وجودها في المكان بنحنحة في وزن الرّيشة، وهي تدخل المطبخ مسرعة تتمتم، عادة اكتسبتها منذ خمسة عشر يوماً فقط، لكنّها زادت من كثافة النّكهة قبل يومين.

– كيف كان الغناء؟.

– ليس غناء يا فهيمة، هو إنشاد، هذه الحصّة مختلفة تماماً عن الحصّة الأولى، وصلت لصوت «صول» بأريحيّة أدهشت كل الحاضرين.

– المهمّ «أسمهان»؛ ما هو اسم الفِرقة؟.

صاحت بإعجاب مصفّقة.

– نسينا مسألة مناقشته، كنّا مشغولين بأشياء أخرى.

- وكيف كان شكله؟، صحيح أنّه يرتدي قفّازات الشّرطة؟، تملّصتِ من سؤالي المرّة الماضية بحجّة أنّه غادر باكرا.

صرفت بصري نحو السّماء:

- من؟... الأستاذ؟، أستاذ كباقي الأساتذة، ما شأنكِ به؟.

لكنّها عادت بنبرتها الماكرة:

- شخصيّة لها هيبتها، أليس كذلك؟، هكذا يتحدّثون عنه في الثّانويّة.

وأشارت برأسها إلى الجنوب، تصفّق سعيدة وهي تتراقص يمنة وشمالا.

- اغربي عن وجهي يا لئيمة، ما هذا اللّغط؟.

- رأيته البارحة حين خرج من قاعة الأساتذة.

- ليس صحيحا.

قلتها وأنا أهزّ كتفيّ تكذيبا، غير أنّها راحت تستميت في القول:

- ذو شعر أسود تخالطه شعيرات بيضاء، حلّيق اللّحية مثل أبي، وله شارب خفيف منمّق كشوارب الصّينيّين، هل تريدين دليلاً آخر؟.

- لم تريه، هذا وصف «ابتهاج»، لأنّه نادراً ما يظهر أمام الملأ.

وراحت تكمل وصفها في طمأنينة:

- يرتدي سروالاً وقميصاً رماديّين، مع سترة خفيفة سوداء، وحذاء جلديّ يقترب لونه كثيراً من لون القهوة.

ثمّ رفعت قبضتها عالية في السّماء، كالتي تحقّق انتصاراً بدا مستحيلا:

- المجد لنا نحن الفتيات.

وردّد الرّواق صدى عبارتها التي دأبت على تكرارها، كلّما تفاخرت بنزعتها الأنثويّة أمامي.

درست «صفاء» علم الموسيقى حين كانت في المدرسة المتوسّطة، غير أنّي حين أخبرتها بالتّفاصيل الدّقيقة، اعتبرت ذلك متطوّرا جدّاً، ثمّ قامت بنصف دورة كأنّها اكتشفت شيئاً مثيرا:

- هل أدعوه في عيد ميلادي القادم مع «نورة»؟، ما رأيك؟... سيأتي؟.

تعجّبت وأنا أحاول ربط شعري الذي أقلقني بانسداله على كتفي:

- دعينا الآن، ما زال عيد ميلادك لم يأتِ بعد.

★★★

انسللت لغرفتي واستلقيت على السّرير منشرحة الصّدر، ثمّ تذكّرت وصيّة الأستاذ، فطرقت مسرعة غرفة جدّتي، لأجد المصحف بين راحتيها تحفّظ «صفاء»، ما تيسّر من سورة «آل عمران».

جدّتي صاحبة الثّماني والسّبعين عاما، العجوز التي تعيش معنا ولا تعيش معنا في آنٍ واحد، والتي يخلو وجهها من التّجاعيد، باستثناء خطوط رفيعة لا تكاد تلاحظ بالعين المجرّدة، متناثرة على محيّاها الطّلق، أميّة منذ صغرها، غير أنّها تعلّمت القرآن الكريم في مركز لمحو الأمّيّة.

أخبرتنا مرّة أنّها دخلت المركز قبل خمس عشرة سنة، من أجل القراءة في المصحف، وأنّ لها حلمين في هذه الدّنيا قبل أن تموت، الحلم الأوّل وقد تحقّق بمشيئة الله، والحلم الثّاني هو رؤية رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، في رؤيا تبقى راسخة في قلبها، إلى يوم لقياه على الحوض.

– جدّتي يا جدّتي يا أغلى شيء في منزلنا، هل تقدّمين لي ملعقة صغيرة من زيت الزّيتون؟.

ارتفع حاجباها قائلة:

– كم تحايلت عليك لتتناولي ولو قطرة واحدة في الشّهر؟!.

– سبحان مغيّر الأحوال.

سبّحت «صفاء» بينما راحت جدّتي تقدّم لي القارورة الزّجاجيّة كاملة، كأنّها تهديني أعزّ ما لديها في الوجود.

في الحقيقة لا أكره زيت الزّيتون إلاّ لرائحته النّفّاذة، لكن من أجل تحقيق هدفي كان لا بدّ من تجرّعه.

– أثبتي لي الآن أنّكِ امرأة شجاعة.

ونظرت نحو «صفاء» قائلة:

– «إلهام» تفّاحة المنزل.

أغمضت عينيّ برهة، ثمّ بسملت متناولة جرعة منها بصعوبة، كدت أستفرغ بعدها كلّ عصارتي المعديّة، عندها جلجلت أختي بكلّ قوّتها:

– الله أكبر... المجد لنا نحن الفتيات.

★★★

في اليوم الموالي، كان الكلّ يتحدّث عنّي وعمّا حدث في الحصّة؛ كنت أسمع همسات هنا وهناك بين البنات، إنّهنّ يردن معرفة اسمي؛ سبحان الله، أصبحت مشهورة بين عشيّة وضحاها، ولمّا توجهت إلى مكتبة الثّانويّة، استقبلتني أمينتها «فايزة» بوجه بشوش على غير عادتها:

– أهلاً «إلهام»، يا مرحباً بك، تفضّلي... سأعيركِ ثلاثة كتب دفعة واحدة، اختاري العناوين فقط.

تفحّصت «ابتهاج» وجهي في استغراب:

– أصبحتِ أشهر من نار على علم؛ من حسن حظّي أنّي صديقتك، يا سلام لو كانوا يعرفونك أيضاً في محلّ البيتزا؛ لأكلنا مجّانا.

كانت بعض البنات داخل المكتبة يوشوشن لبعضهنّ البعض:

– هذه هي... هذه هي.

ثمّ همست إحداهنّ لمجموعة من بنات أخريات، كنّ واقفات أمام الباب استعداداً للدّخول:

– إنّها هي... «إلهام السّوبرانو».

كم كانت فرحتي تتعاظم بهذه الاسم الذي راق لي أكثر من الشّهد.

مرّة، احتاج أحد الطّلبة شيئاً من أستاذة اللّغة الإنجليزيّة، ولم يعرف مكانها، فقالت له «نورة» مراقبة الأقسام النّهائيّة:

– ضع قسم «إلهام السّوبرانو» على شمالك، وانعطف مباشرة عند الزّاوية.

أمّا أختي، فكانت تعرّف للآخرين بكونها أخت «إلهام السّوبرانو»:

– لماذا لا تستغلّين شهرتك وتطلبين من أمينة المكتبة التوسّط لي عند أختها أستاذة العلوم، يا ساتر لديها سلّم نقاط لا يتسلّقه أحد.

– أدرسي بجدّ، لن أكلّم أيّ أحد مهما كان.

– تذكّري أنّي في أمس الحاجة لمساعدتك وتخلّيتِ عنّي... مغرورة.

نسيتُ شيئا.

في عصر الجمعة، أي بعد ثلاثة أيّام عن الحصّة الثّانية، كانت جارتنا والدة «منير» الميكانيكيّ، تسأل أمّي البيولوجيّة بحرص شديد عن معنى كلمة «سوبرانو»، وحين خرجت، تطاير الشّرر من عينيها:

– هل يسعدك هذا؟، أصبحت سيرتنا على كلّ لسان.

– والله لا أعرف سبباً منطقيّاً واحداً لانزعاجك بهذا الشّكل، أنا لم أفعل شيئا.

– لم تفعلي شيئا؟.

تساءلت بنبرة مضحكة، ثمّ زاد تهكّمها:

– حين تكملين دراستك لن تجدي شخصاً واحداً يتقدّم إليكِ، ستبقين عانساً إلى الأبد، مثل خالتك، تذكّري كلامي جيّداً «إلهام»، وستعضّين على يديك من النّدم، هل تعلمين؟... أنتِ تشبهين الطّائرة الورقيّة، يكفي أن يهبّ عليكِ نسيم خفيف ليسقطكِ أرضا.

تغيّر صوتها فجأة وهي ترفع يدها كعلامة واضحة للتّهديد:

– نسيم خفيف سيسقطك أرضا.

– إذا كنتِ تلمّحين إلى الحمار الذي يسمّى «منير» فانسي الأمر، كثرت زيارات أمّه في الآونة الأخيرة، وأعرف أنّك تضعينه منذ أشهر في حساباتك لو فشلت في الحصول على شهادة «البكالوريا» لا قدّر الله، ما يدريك؟... لعلّه طامع فينا.

قلتها بنبرة غضب متصاعد، وفي ذهني صورة أمّه.

– الرّجل رجل، عمل ثابت ومستقبل واضح، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟، غرورك سيغرقكِ في كأس من الماء.

– هناك من هو أفضل منه، لماذا تتشبّثين بقطعة خشب طافية؟، ألا يوجد لديكِ غربال؟.

في هذه اللّحظة دخل «أيّوب»، يتساءل بدوره عن معنى كلمة «سوبرانو»، فقد سمعها تتردّد في مدرسته.

لم أجبه، وذهبت إلى غرفتي متعكّرة المزاج.

هل تراني أخطأت؟، أم هو شيء عادي أن يصبح المرء مشهورا؟.

★★★

أصبحت حصّة يوم الثّلاثاء خاصّة بنا وحدنا بعد تخصيص يوم السّبت للذّكور.

قبل الواحدة بقليل، وجدت إحدى الأمّهات تتحدّث مع الأستاذ بإلحاح، محاولة إدخال ابنتها المولوعة بالإنشاد للفرقة، ابنتها التي تعاني من بحّة أبت أن تفارقها منذ أشهر، فأشار عليها بوجوب إجراء كشف عند طبيبة مختصّة في أمراض الأنف والأذن والحنجرة، كي تشخّص حالتها جيّدا، فوعدته بذلك، ثم راحت تشرح له أنّها لم تنم منذ البارحة، قلقاً وشفقة عليها.

يا للمفارقة العجيبة بينها وبين أمّي!.

بسبب الغيابات الكثيرة، بدا المدرّج فارغاً يبعث على الاكتئاب، غيابات عكست استهجان الكثيرات لطريقة العمل، فمنذ أن كنّا خمسين منشدة، أصبحنا الآن لا نتجاوز العشرين.

بقيت «حنان» و«إشراق» وبعض البنات من شعب مختلفة، غير أنّ ردّ فعل الأستاذ كان محيّرا:

– ذهبت من تريد الأكل جاهزاً دون أن تشترك في إعداده مع الأخريات.

كان مثالاً موجزاً للجميع؛ ليست الفِرقة مكاناً جيّداً للكسولات والمتقاعسات... ولن تكون.

مباشرة بعد جلوسنا، أشارت إحدى الطّالبات المتحمّسات أنّها فكّرت في اسم جيّد للفرقة، جازمة أنّ «النّور» هو الاسم الأمثل لنا؛ فنحن نور ظهر في الظّلام على حدّ تعبيرها، بينما اعتبرت «مليكة» أنّ اسم «الأمل» أفضل وأرفع وأدقّ، لكنّ الأستاذ تجاهل مسألة التّسمية، معتبراً ما ذكرتاه مستهلكا:

– لا تتعجّلن؛ فيما بعد سنختار اسماً مناسباً إن شاء الله، لدينا مهلة شهرين على الأقلّ؛ لننشغل الآن بالأساس والأهمّ، وهو أنتنّ.

وأشار إلينا بكلتا سبّابتيه:

– أريد أن أصنع منكنّ منشدات محترفات، يعرفن جيّداً ما يفعلن، فساعدنني رجاء، الصّبر ثمّ الصّبر ثمّ الصّبر.

وواصلنا العمل بنفس طريقة التّدريب السّابقة لتظهر نفس الأعراض.

سبحان الله؛ بعد مرور حوالي نصف ساعة، أصبحنا جميعاً نسمع انسجاماً غريباً:

– هذا الانسجام معناه أنّ أصواتكنّ بدأت تتصحّح، وأنّنا جميعاً في الطّريق القويم، وإذا استمرّيتنّ على هذا المنوال، فستذهبن بعيداً بمشيئة الله.

ما أروع أن نسمع نجاحنا بآذاننا، بعد أن كان قبل أيّام قلائل مجرّد وعد!.

– ما بك «ابتهاج»؟.

– أتنفّس بصعوبة، أنا أختنق.

كانت مشكلة حقيقيّة، ووجد الأستاذ لها حلاّ.

بسببها أعطانا تمريناً تطبيقيّا للجميع، قال إنّه سيساعدنا على تقوية الرّئتين، وهو الجلوس دون حركة، في وضعيّة مريحة على الكرسيّ؛ وأخذ شهيق عميق من الأنف، دون توسعة المنخرين، كي لا يتشوّه الأنف بمرور الزّمن، ثمّ حبس الهواء لمدّة أربع ثوان، ثمّ إخراجه ببطء شديد قدر المستطاع، وبهذا؛ نستطيع إكمال الجمل الموسيقيّة دون اضطرارنا لقطع الكلمات في المنتصف، وأخذ نفس جديد عاجل، كما يمكن تطبيق هذا في ترتيل القرآن الكريم، وهو ما أفرح «حنان» كثيرا، لأنّها عانت من نفس المشكلة، و«ياسمين» عاشقة التّعليق الصّوتيّ.

10

مركز الإصغاء

بعد مرور شهر من التّدريبات الشّاقة وتمرين التّنفّس السّابق، تحسّنت أصواتنا بشكل لا يصدّق، ممّا جعل «إشراق» تجزم بالفرنسيّة في أكثر من مناسبة وهي سعيدة باختفاء دوارها:

– سنواصل مهما كلّفنا الأمر ولن نستسلم، لقد حقّقنا حتّى هذه اللّحظة تقدّماً وانسجاماً صوتيّاً تفتقده كلّ المجموعات الصّوتيّة الأخرى، وهذا لا يعني إلاّ شيئاً واحداً لا غير، نحن نسير في الطّريق الصّحيح.

وتنظر إليها «ابتهاج» في ذهول:

– سبحان الله، كيف تستطيعين تحريك شفاهكِ بتلك السّرعة؟.

ثمّ تطلب منّي ترجمة ما قالته، محتارة في قدرتها على الحديث بالفرنسيّة بكلّ تلك الطّلاقة، وأحتار أنا بدوري في سبب اختيارها لشعبة «اللّغات»، إذا كانت تتعثّر في إحداها.

أمّا «حنان»، فتؤكّد أنّنا هنا من أجل الخير والسّير على الهدى؛ قبل أن توصي نفسها وتوصينا بإخلاص النيّة لله، ووجوب المحافظة على هذه النيّة مهما تغيّرت الظّروف.

كوننا نعيش في جوّ من النّشاط الممتزج بالفكاهة والمرح والتّحدّي، فإنّ المشاعر المتولّدة من الضّغط العصبيّ ستتبدّد، طقس ربيعيّ جميل ما يحيط بنا، فلا غرو أن تنشأ روابط صداقة جديدة بين عضوات الفرقة.

– «الإنشاد لعبة جماعيّة».

هذا ما يردّده الأستاذ مذكّرا، وشاكراً في نهاية التّمرين كلّ واحدة باسمها، وهو ينزع قفّازاته البيضاء، مشجّعا بدوره ومحفّزا، أمّا أنا فقد كنت شيئاً آخر.

– قلّدن الصّوت مثل «إلهام»، استمعن جيّداً بقلوبكنّ مثل «إلهام»، ركّزن وابدأن حين تكنّ مستعدّات، بهدوء شديد دون ضغط، مثل «إلهام»، اتركن الصّوت يتسلّل إلى أعماقكنّ، ثمّ أخرجنه بسلاسة كسلاسة الماء الجاري، لا خوف.. لا تردّد، أؤكّد، لا خوف ولا تردّد، بل إحساس بالأداء قدر المستطاع، تماماً مثل «إلهام»، وإذا أخطأتنّ فلا بأس، يجب أن تخطئن، لأنّها المرّات الأولى... المحاولات الأولى، لستنّ معتادات، فلمَ القلق والتوتّر؟، المهمّ التّركيز والتّنفيذ، أمّا النّتيجة فاتركنها على الله.

وفي النّهاية يشكرني بعبارته «غراثياس سوبرانو»، بمعنى «شكراً» بالإسبانيّة.

عبارة بسيطة لكنّها تغمرني بدفقة من هرمونات السّعادة، هي جائزتي، هي راتبي الذي أنتظره بتحفّز العامل اليابانيّ.

بمرور الوقت، ظهرت أصوات أخرى مثل «مريم» و«نور الهدى» و«بثينة» و«زينب»، وحتّى «إشراق» التي كان لها صوت معزاة.

أصوات قطعت شوطاً كبيراً في التّصحيح، لأنّها وجدت حاضنة إبداعيّة لمواهبها، فقط عند توفّر مشرف جيّد، يعرف بدقّة متناهية ما يريد.

– حفظه الله وسدّد خطاه.

هذا ما تدعو به «حنان» واثقة، رافعة يديها إلى السّماء.

مع انقضاء كلّ حصّة، يتمدّد حضور هذا الأستاذ في نفوسنا كحبر ينساب فوق ورق شروب، نستشيره في كلّ صغيرة وكبيرة، ويجيب دون تكبّر أو غرور، بل كلّ همّه الإصغاء لكلّ واحدة منّا، باهتمام بالغ، وكأنّ المشكلة مشكلته الشّخصيّة.

وزاد تعلّقنا بهذا الطّيّب الحنون، المتفهّم لما نمرّ به من مرحلة حسّاسة وأزمات، وهذا القرب هو ما دفعنا لحبّ الفِرقة أكثر، لجعلها أسرتنا الثّانية، بل حفّزنا على العمل دون إبداء أيّ تذمّر أو استياء من أيّ نوع كان.

هل أبالغ إذا اعترفت أنّه أصبح السّيّد الجديد لنا نحن المراهقات؟.

هل أتطرّف إذا أقررت أنّه هو الحرز والسّند، والملجأ والشّاطئ؟.

– إنّها تبحث عن تصفيق... مغرورة.

هذا ما تهمس به «سعاد» –أو«باتريسيا» كما تحبّ أن تلقّب– لشلّتها وهي تصفّق بسبّابتيها تنمّرا، فأتظاهر بالصّمم والعمى.

★★★

ذات ثلاثاء، حضرت «بثينة» متأخّرة عن الحصّة بحوالي ربع ساعة، وبعد حديث قصير مع الأستاذ سمح لها بالدّخول، لتظهر عليها علامات القلق والتوتّر.

أخبرتني «ابتهاج» أنّ عينيها المرعوبتين كانتا لا تفارقان الباب، وفي نهاية الحصّة انصرفت بسرعة البرق قبلنا جميعا.

تقول جارتها «نور الهدى» أنّ الجوّ مكهرب لديهم هذه الأيّام، وأنّها كثيراً ما تسمع سبّاً وشتماً فظيعاً عندهم في المنزل، متذمّرة من شقيقها المتسلّط، الذي لا يترك لها مجالاً للحرّيّة:

– حتّى الخروج للشّرفة... ممنوع.

فيما اعتبرته «مليكة» المسؤول عنها بعد وفاة الأب، عمّي «الرّشيد» رحمه الله، إثر مرض عضال، وله كلّ الحقّ في ضبط تصرّفاتها، خاصّة وأنّه ضحّى بمستقبله لتكمل تعليمها، إذ بدأ العمل باكراً جدّا ليعيلهم بعد وفاة الوالد، الذي لم تكن له منحة تقاعد تقيهم ذلّ الحاجة.

– من رحمة الله أنّها التقت بأستاذ طيّب نصحها ووجّهها لحسن السّبيل، من يعلم؟، ربما كانت الآن في مشكل صحيّ عويص لا يُحلّ سوى بالجراحة، وكفى الله المؤمنين القتال.

هذا هو وصف «حنان»، ثمّ تكمل عبارتها المفتاح:

– حفظه الله وسدّد خطاه.

وكانت «سارة» هي دافع الوصف.

زارتنا في الفرقة بعد مرور أسبوعين، لتحضر التّدريبات كمتفرّجة، بعد أن أوصى الأستاذ أمّها سابقاً بضرورة عرضها على طبيبة الأنف والأذن والحنجرة، لتشخّص جيّداً سبب البحّة التي لازمتها طويلا.

قالت «ابتهاج» إنّها التقت بها يوم الأربعاء.

من طالبات السّنة أولى جذع مشترك «آداب»، كانت منشدة في فرقة الإنشاد المدرسيّة حين كانت تدرس في متوسّطة المدينة المجاورة، وبسبب طريقة العمل العشوائيّة، أصبحت تعاني من بحّة لازمتها أكثر من ثلاثة أشهر؛ لقد تدرّبوا كثيراً قبيل اختتام السّنة الدّراسيّة في فِرقة أُسّست عشوائيّاً في آخر لحظة، إلى درجة أنّهم كانوا يتمرّنون كلّ يوم لمدّة ساعتين متواصلتين دون راحة، ممّا تسبّب في بروز كتلة حميدة على الحبل الصّوتي الأيمن، أو ما تُعرف طبّيّاً باسم «بوليب».

وبناء على نصيحة الأستاذ، أخذت موعداً مع الطّبيبة.

– لا تقلقين الحالة في بدايتها لا تستدعي الجراحة.

هذا ما يقوله الرّادار، وهي الآن في فترة نقاهة، وستنضمّ لفرقتنا رسميّا بعد أن تتعافى كليّة من الإصابة، ولو أنّ خبر الانضمام ليس مؤكّدا.

– أستاذ آخر في مكانه لن يهتمّ لمصيرها مطلقا.

هذا ما تقوله «زينب» وهي تشرح لنا حرصه الشّديد على صحّة المنشدات:

– هل تعرفن أنّ لدينا أستاذاً تحسدنا عليه الثّانويّات الأخرى؟.

أومأت «إشراق» برأسها مستغربة، فأردفت على الفور ملقية كلّ ما في جعبتها:

– أخبرتني إحدى المراقبات في الإدارة أنّه تلقّى عرضاً مغرياً من مديرة الثّانويّة الثّانية ورفض رفضاً قاطعا، بحجّة أنّ الوقت متأخّر جدّا، وعليها الانتظار حتّى السّنة الدّراسيّة القادمة.

فتدخّلت «مليكة» وهي ترسم اشمئزازاً مبالغاً فيه على وجهها:

– من غير المعقول استغلال الطّلبة هكذا دون وازع أخلاقيّ.

– معه حقّ، الصّراحة راحة، أفضل من النّفاق والكذب والتملّق، وهذه محمدة تُضاف إلى خصاله الكريمة، وقد زاده الله بسطة في العلم والجسم، جزاه الله عنّا كلّ خير.

– رياضيّ لا يدخّن.

ألقت بها «نور الهدى» في وجه «حنان»، كنتيجة منطقيّة لرشاقة الجسم وأناقة المظهر.

★★★

في هذه الحصّة، غيّر الأستاذ أسماء الأصوات إلى آهات، فكنّا نقول «آآآآآآ» في صوت «دو» أو «ري» أو «مي» أو غيره، مع تغيير الحدّة بطبيعة الحال تماشياً مع الصّوت، وبذلك نكون قد تعلّمنا تقنية جديدة بدت لي سهلة جدّاً.

وزادت أصواتنا قوّة، حتّى أنّ الذّبذبات أصبحت خطيرة على طبلة الأذن؛ أصبحنا نسمع أزيزاً غريباً لم نكن نسمعه من قبل، مع آلام خفيفة في الأذنين، وهنا بدأنا في تطبيق مخطّط تدريب جديد يسمّى «التّنافر بالظّهر»؛ أي الوقوف وظهركِ إلى ظهر منشدة أخرى، بعدما كنّا جلوساً لا نفارق مقاعدنا في الحصص الثّلاثة الأولى، والوقوف في أماكننا لباقي الحصص.

لقد ساعدنا هذا المخطّط على تصريف الذّبذبات بدل تجمّعها، ممّا يخفف من آثارها على الطّبلة.

كنّا نشكّل صفّاً من حوالي تسع أو عشر منشدات يتنافرن بالظّهر مع عدد مماثل لهنّ، وتزامناً مع ذلك، أضاف الأستاذ ما يشبه الإيقاع لتدريبات الصّوت، وهو ما يسمّى «الشّاهد»، ويعرّف بكونه نقرة واحدة على الطّاولة كلّ ثانيتين مثلا، بسرعات مختلفة، فمرّة يكون كلّ ثانيتين، ومرّة يكون كلّ أربع ثوان، وهكذا دواليك.

ضبطاً للوزن النّفسيّ الذي نشعر به، وتمهيداً لاستعمال أنواع كثيرة من الإيقاعات المعقّدة مثل الإيقاعات الهنديّة.

أثناء فترة الرّاحة بين جولات التّدريب، يستغلّ الأستاذ الوقت جيّداً في تعريفنا على أبجديّات الفكر الإنشاديّ الحديث، مثل الفرق بين المصطلحات؛ «الإنشاد» و«التّنشيد» و«النّشيد» و«الأنشودة»، فالنّشيد هو الأداء بالصّوت فقط دون إيقاع، فإذا رافقه أيّ إيقاع ولو كان بسيطا، صار يسمّى «أنشودة»، أمّا «التّنشيد» فهو عمليّة أداء النّشيد أو الأنشودة، و«الإنشاد» علم قائم بذاته وفنّ مستقلّ بنفسه، وهو أشمل وأوسع من «التّنشيد».

كما عرّفنا على مدرسة «الاختصاص» أو كما تسمّى كذلك مدرسة «الأفكار»، التي ظهرت مطلع القرن الحادي والعشرين، بعد مدرسة «التّتابع» التي سادت في النّصف الثّاني من القرن العشرين.

– هذا ما أرتني الطّبيبة إيّاه بالضّبط.

مشيرة ببنانها نحو شاشة العرض على الحائط.

كانت الشّاشة تظهر فيديو قصير للأحبال الصّوتيّة، وهي في حالة إصدار أصوات الدّيوان الموسيقيّ.

بجهاز إسقاط ضوئيّ، وفي بادرة من الأستاذ للخروج من النّمط التّعليميّ القديم القائم على التّلقين فقط، شرع في استظهار صور للسّليمة منها والمريضة، فالسّليمة تتميّز بلون أبيض تنفرج حين نتنفّس، ثمّ تلتقي معاً حين نصدر أيّ صوت، ولو عند مجرّد الكلام، أمّا المريضة فمنها ما هي منتفخة، أو متورّمة، أو ما يوجد انكماش في إحدى جهتيها، أو عليها حبيبات صغيرة.

– هذه حالتك، وهي ناتجة عن الإرهاق المستمرّ للأحبال الصّوتية في الأداء.

قالها متأسّفاً ضامّاً راحتيه، فاستنتجنا أنّه لا يجب الاستهانة مطلقاً بأيّ سلوك عشوائيّ، ثمّ أضاف موصيا:

– احرصن على هذه الأمانة فهي رأسمال تأسيسيّ، لا أريد أن أصعّب عليكنّ الأمر، لكن هناك بعض الأشياء يجب تجنّبها، مثل المشروبات الباردة ودخان السّجائر، وخاصّة الصّراخ.

حوقلت «حنان»:

– لا حول ولا قوّة إلاّ بالله!، هل هذا يوجد في حلقي؟، إنّها آية من آياته سبحانه وتعالى.

أبدت «مليكة» تذمّرها وهي تنظر ناحية «إشراق» و«حبيبة» و«زينب»، اللاّتي ضقن ذرعاً بأشقّائهنّ المدخّنين.

– لا أتخيّل نفسي أشرب شيئا دافئاً أستاذ، حتّى في شهر جانفي البارد أشرب من الثّلاّجة.

– المشكلة مشكلتك، أنا عليّ النّصح وأنتِ حرّة في تصرّفاتك، إن شئتِ أقلعتِ، وإن شئتِ فعلتِ.

– أمّي دائمة الشّجار مع أخي الكبير الذي لا يحلو له التّدخين إلاّ أمام التّلفاز غير عابئ بنا.

– تعلّمتم إلى الآن أشياء لا يستهان بها، أعوّل عليكنّ كثيرا، وأعرف أنّكنّ لن تخذلنني.

في مكان آخر، على بعد خمسمائة متر فقط عن هنا... في البيت على وجه الدّقة، تقول وزيرة سعادتي:

– «إلهام» صغيرتي، أتابع مستجدّاتكِ باستمرار، وأعرف أنّكِ لن تخذليني.

11

الخطوات الأولى

– هل تعرفين ما تقوله البنات عنكِ في الثّانويّة؟.

هززت رأسي نافية متظاهرة بعدم الاهتمام.

– أصبحتِ الذّراع اليمنى للأستاذ، أنتِ الآن تشكّلين أحجية حقيقيّة، ستكتسحين مجال الإنشاد جارفةً معكِ كلّ شيء، بالمناسبة... أنا صديقتك.

هذا ما قالته لي «ابتهاج» ضاحكة، وهي تستعدّ لافتراس قرص البيتزا الذي منّ الله عليّ منه بشريحة، غير أنّ هذا التميّز بقدر ما كان مريحاً لي، بقدر ما كان سبباً وجيهاً في انزعاج البعض منّي.

ومن يتصدّى لغيرة النّساء إن ثارت؟.

بالمناسبة، تتحرّج كثيراً «سعاد» من مرافقتي لها؛ و«المرافقة» هنا معناها التّدريب الشّخصيّ لمنشدة وُجد أنّ لديها ضعفاً في إصدار صوت ما، بوقوفي أمامها وجهاً لوجه، على بُعد ما يقارب الثّلاثين سنتيمترا، مع حثّها على تقليدي، وهذا ما يسمّى أيضاً مخطّط «التّقابل المباشر»، حيث تتراوح المسافة الفاصلة بين عشرين سنتيمترا وخمسة أمتار، وهو عكس «التّنافر بالظّهر».

– أعرف هذا قبلك.

هذه العبارة هي توأم لسانها.

انتهت فترة التّصحيح والتّقوية الصّوتيّة على أحسن ما يرام؛ كنت الوحيدة فيها التي أنهيت تقليد جميع أصوات مقام «العجم»، ديوان «C4»، بينما وصلت بعض الطّالبات إلى صوتيْ «لا» أو «سي»، وعلِقت أخريات في صوت «صول».

فترة دامت ثمانية أسابيع، تعلّمنا أثناءها أشياء لم نكن نتخيّلها، ولعلّ قانون «الإلقاء والتلقّي» هو أهمّ شيء رأيناه يتجسّد أمام أعيننا.

يرتبط هذا القانون بمساحات التّدريب المتباينة؛ فقد كنّا نتدرّب في مدرّج مغلق، لئلاّ تتشتّت أصواتنا، ونحن في حاجة ماسّة لسماعها جيّدا، من أجل الوقوف على مواطن الخطأ، ثمّ اعتمدنا على مخطّط «التّنافر بالظّهر»، حين

أصبحت ذبذباتنا تشكّل خطراً على آذاننا، في انتظار مرحلة التّدريب في الهواء الطّلق، في العطلة إن سمحت الظّروف، كما قال لنا الأستاذ، مؤكّداً على تجنّب الرّياح الباردة في فصل الشّتاء، والجوّ المشبّع بالغبار في فصل الصّيف.

هل تعرفون هذا؟.

يرسل الدّماغ البشريّ أصواتاً قويّة إذا اعتاد على استقبال أصوات ضعيفة، فهو الذي يتحكّم في عمليّة إصدار الصّوت عبر الأحبال الصّوتيّة، وهو من يفسّر معاني الأصوات التي تصله عبر طبلة الأذن.

– يجب ملاحظة شيء في منتهى الأهميّة؛ كلّما اتّسعت المساحة التي يتدرّب فيها المنشد، كلّما تقوّى صوته، هناك أماكن خاطئة لا تصلح للتّدريب؛ كالأماكن الصّغيرة الضّيّقة، التي تجعل من الصّوت مكبوتاً ضعيفاً، عكس الأماكن الواسعة المفتوحة، التي تسمح بتحرير الأحبال الصّوتيّة لتصل لأقصى طاقتها، وهذا هو باختصار قانون «الإلقاء والتلقّي».

هذا ما قاله لنا الأستاذ في إحدى الحصص في إحدى فترات الرّاحة التي عادة ما تكون عشر دقائق.

عندها قالت «إشراق»:

– ماذا لو بدأنا التّدريب مباشرة في الهواء الطّلق؟، أقصد اختزال الوقت.

ونظرت إلينا محاولة كسب تأييدنا.

– لا تتسرّعي، إذا كانت الأصوات ضعيفة سيصعب تشخيص أخطائها، وبالتّالي يصعب تصحيحها؛ لأنّ الذّبذبة هنا تضيع في كلّ الاتّجاهات، لذلك من الأفضل حصرها في مساحة صغيرة مناسبة، ركّزن معي، أقول مناسبة، لأنّنا حين نقول «الصّوت» نقول «الذّبذبة»، أي باختصار لا يوجد صوت دون ذبذبة تنتقل عبر الهواء، وتقاس بالهرتز (Hz).

كنّا نعاني من كبت صوتيّ تختلف درجته من منشدة إلى أخرى، لأنّنا نستعمل قوّة بسيطة تتناسب طرداً مع كلامنا العادي في حياتنا اليوميّة، لذلك يعدّ الارتفاع بالنّغم شيئاً نادراً لدى جميع النّاس، وبالتّالي إذا أردنا تجسيده لم تطاوعنا أحبالنا الصّوتيّة، إلاّ بعد جهد جهيد، يستهلك فترة زمنيّة تختلف من شخص إلى آخر.

هذا هو تفسير التّفاوت بين المدد اللاّزمة للتّصحيح الصّوتيّ.

ثمّ نظر ناحية «ابتهاج» التي لم تستوعب ما يدور أمامها، فراح يسهب في التّوضيح:

– لو طلبت منكِ الرّكض لمسافة مئتي متر، هل تقدرين؟، أجيبيني بصراحة؟.

– سيتوقّف قلبي قبل خط النّهاية أستاذ.

انفجر الجميع ضحكا، فراح يفكّك فكرته غير عابئ بهنّ:

– لأنّكِ لستِ رياضيّة، عادتكِ بين الأكل والنّوم والدّراسة، فألِفَ جسمكِ هذا منذ زمن، لكنّ فتاة أخرى، رياضيّة، سيبدو لها الأمر بسيطاً للغاية بل طبيعيّاً.

أردف ويداه خلف ظهره:

– حسنا، ما رأيكِ لو قلت لكِ مارسي الرّياضة؟، كيف سيكون حالك بعد عام مثلا؟... ستتعبين في البداية، ثمّ يهون الأمر، غير أنّ خمسمائة متر تبقى صعبة لك، ثمّ بالممارسة ستصبح خمسمائة متر مثل مئتي متر، وهكذا دواليك.

تغيّرت فجأة نبرة صوته، فتوجّه إلينا مباشرة في لهجة أقرب للتّحذير منها إلى الإرشاد:

– لذلك أوصيكنّ بضرورة الحرص على الحضور والتّدريب، هنا معي في الحصّة فقط، وليس في مكان آخر، يجب أن تكون هذه التّمارين قائمة على منهج مدروس، فلا تتغيّبن إلاّ للضّرورة الملحّة، الغياب المتكرّر سيرجعكنّ إلى نقطة الصّفر؛ نقطة البداية، وكلّما تقدّمتنّ خطوة؛ تتقهقرن خطوة؛ زائد واحد ناقص واحد، هل ترضين بذلك؟.

تبادلنا نظرات ممزوجة بالرّفض، لتغتنم «حنان» الفرصة:

– أستاذ، أريد أن أسألك في شيء ربما يكون حسّاسا، لماذا نستعمل آلة موسيقيّة في التّدريب؟، وأنت تقول إنّ الإنشاد لا يكون إلاّ بالصّوت أو بآلة إيقاع.

– حسنا، نحن لا نستعمل آلة موسيقيّة، بل نوظّفها من أجل إعطائنا صوتاً صحيحاً نتّخذه مرجعيّة، لاحظي هنا أهميّة المصطلح، فالدّماغ لا يستطيع الوصول إلى الأصوات الصّحيحة هكذا في الطّبيعة، وهذه الأصوات التي نتدرّب عليها الآن هي حاصل بحث عميق، قام به علماء الرّياضيّات، الذين أوجدوا التّقسيم الصّحيح لها، لدينا سبعة أصوات تتكرّر، كلّما نزلنا أو صعدنا في السّلّم الموسيقيّ، فتتغيّر قيمة الذّبذبة، هذه الأصوات السّبعة هي التي تكوّن المقام الموسيقيّ، إذن يجب توفّر آلة موسيقيّة لا تخطئ، كي نتّخذها مرجعاً سليماً كلّ السّلامة، وإلاّ أصبحت الأصوات التي نعطيها لأدمغتنا على أساس أنّها مرجعيّة، غير سليمة، فنتعلّم الأصوات الخاطئة، ونبني عليها ألحاناً خاطئة أيضا، وإذا كان الأساس فاسداً فكلّ ما يُبنى عليه سيسقط وينهار.

ثمّ توقّف يقرأ وجوهنا.

هممت بالتّدخّل... غير أنّه واصل شرحه بكلّ هدوء:

– نحن مجبرون على الاعتماد على آلة موسيقيّة اقتصاداً للوقت والجهد، لقد انتهى زمن المعجزات، فكيف نكلّم من كان في المهد صبيّا؟.

أعجبني كلامه فقد كان هو المنطق.

ثمّ أضاف واضعاً سبّابته اليمنى على صدغه:

– هناك قاعدة في الفكر الإنشاديّ الحديث تقول «كلّ شيء إلاّ وله أثر»، وهذا يجيب اختصاراً على سؤال يطرحه الكثير من النّاس، لماذا لا نستعمل آلات العزف الموسيقيّة استعمالاً خفيفاً فقط؟.

رفعت يدي قائلة:

– بالضّبط، هذا هو انشغالي أستاذ.

تفحّصتني «سعاد» من أسفل إلى أعلى ثمّ صرفت بصرها عنّي.

– الاستعمال الخفيف يا «إلهام»، معناه غياب حدّ واضح فاصلٍ يمكن الاستناد إليه في تبنّي موقف ما، كلّ واحد إلاّ ولديه قيمة هلاميّة لهذا الاستعمال الخفيف، وعليه فإنّ عدم الاستعمال هنا هو الحلّ الأمثل لحلّ الخلاف جذريّا، دون أن نتوه بين الآراء.

– إذن هو مبدأ؟.

بهذا سألت وأنا أحاول ضبط خماري، فأجابني وهو ينتقل بعينيه من واحدة إلى أخرى:

– يجب أن تعرفوا شيئاً هامّاً؛ نحن...

وأشار إلينا راسماً شكل دائرة عملاقة مثّلنا بها:

– نقف على ركائز تسمّى «العقيدة الإنشاديّة»، هي التي توحّدنا.

وراح يشرح مكوّناتها؛ الجانب الدّينيّ، والفكريّ، والفنّي.

في الأخير تمّ تمييز نوعين من الأصوات في فرقتنا، «مريم» و«مليكة» «آلتو»، والباقي كلّهنّ «سوبرانو»، إلاّ أنّ الأستاذ قال إنّ لديّ خامة صوتيّة فريدة من نوعها.

أنا «سوبرانو»، ولكن... ليس ككلّ «السّوبرانو».

12

أوراق الشّجر

و لم أخذها...

لقد حقّقت معدّلاً تجاوز 15.5.

معدّل مكّنني من التّجوّل في المترل مرفوعة الهامة، دون أن أخشى لومة لائم، وكان سبباً مباشراً في سجودي لله، شكراً على نعمته التي منّ بها عليّ.

ورحت أنتظر العطلة بفارغ الصّبر، حيث غيّر فيها الأستاذ توقيت الحصص إلى الحادية عشرة صباحاً، مضيفاً حصّة إضافيّة لا تتجاوز ساعة واحدة، مثل الحصّة الأولى، جعلها يوم السّبت، قال إنّنا سنخصّصها للأناشيد مؤقّتاً بدءاً من الأسبوع الثّاني.

بعد انتهاء مرحلتي التّصحيح الصّوتيّ وفترة الامتحانات، تفاجأنا بعودة بعض الوجوه السّابقة، فبدا المدرّج ممتلئاً كسابق عهده.

قالت «حنان» دون اكتراث:

– سيُسمعنه زخرف القول غرورا، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

– صبيّ يُستدرج بقطعة حلوى!.

تعجّبت «حبيبة» ضاحكة وهي تعيد ضبط خمارها.

زفرت «إشراق» قلقة في وجه إحداهنّ وكأنّها تريد ضربها، ثمّ قالت لنا متعمّدة إسماعها:

– معكِ حقّ، حين يجهز الطّعام يأتي الجميع بملاعقهنّ دون حياء، لا يجب أن نسكت يا «حنان».

وساندها «مليكة» بوجه متجهّم، وحاجبين مقطّبين:

– لقد قطعنا شوطاً كبيراً في تصحيح الصّوت، وبذلنا جهوداً من أجل ذلك، كيف يُعقل أن تغيب الواحدة منهنّ دون إذن مسبق ثمّ تخرج فجأة من تحت الأرض؟، كلّنا لدينا دروس وامتحانات وأشياء تشغلنا.

أمّا «ابتهاج» فقد بدت مطمئنّة وهي تمضغ شريحة بيتزا، زُيّنت بالجبن والتّونة، كانت قد احتفظت بها منذ صباح ذلك اليوم:

– سيكنسهنّ مثل أوراق الشّجر، وأنا مسؤولة عن كلامي.

وأتى الأستاذ مستفسراً عن غيابهنّ، فشرعت كلّ واحدة في التّملّق والكذب، لكنّه سرعان ما اتّخذ موقفاً حازما، ظهر في نبرة صوته المتوازنة وعينيه:

– لست أنا من يقرّر، البنات في الفِرقة هنّ من يقبلن عودتكنّ أو يرفضنها.

ثمّ أشار إلينا بيديه الاثنتين وهو ينظر لمجموعة منهنّ:

– هنّ صاحبات الدّار.

– آه يا «ماما سوسو»، لو كنتِ في مكاني وأنتِ تسمعين هذا الكلام!.

هذا ما واجهت به خالتي على مسمع من أمّي.

وغمرتني قشعريرة توغّلت في كلّ ذرّة في جسدي، لقد فرض احترامنا عليهنّ ببضع كلمات، ففرض وجوده أكثر بيننا.

نظرت إليّ «ابتهاج» ثمّ نظرت إلى البقيّة وكأنّها تطلب رأينا، فرفضنا جميعاً إلاّ «حنان»، التي راحت تردّد في نبرة استعطاف:

– اعذروهنّ ولا تغلقن باب الرّحمة يا بنات، رحمة الله وسعت كلّ شيء.

غير أنّ الأستاذ أخذ برأي الأغلبيّة:

– تفضّلوا خارجا، لقد قالت الفِرقة كلمتها وانتهى الأمر.

كان الجوّ مشمساً صافيا يشبه كثيراً فصل الرّبيع، ممّا أغرانا بتجريب قوانا الصّوتيّة في الهواء الطّلق، فشكّلنا في السّاحة الممتدّة أمام المدرّج حلقة كبيرة، حوت ثماني عشرة منشدة، وفق مخطّط تدريب يسمّى «الدّائرة المغلقة»، من أجل سماع بعضنا بعضا، نظراً للفائدة العظيمة منه، وهي تركيز الذّبذبات في منطقة وسط الحلقة، فلا تضيع هباء في الفضاء.

★★★

وواصلنا العمل تماماً كالحصص السّابقة، وقوفاً أمام كراسيّ تمّ إحضارها من قاعة مجاورة، وهذه المرّة غيّر الأستاذ مضخّم الصّوت، لأنّ أصواتنا أصبحت تطغى على المضخّم الأوّل، وهو مؤشّر إيجابيّ أفرح الكثيرات منّا.

استغلّ الأستاذ فترات الرّاحة ليعرّفنا على شيء هامّ طلب تركيزنا الشّديد فيه، وهو رقم الدّيوان الموسيقيّ الذي يجب للمنشدة التّدرّب عليه، بناء على نوعيّة صوتها، فمثلاً صاحبات صوت «سوبرانو»، مثلي أنا، سيجدن أنفسهنّ مرتاحات أكثر في «C4»، أمّا صاحبات صوت «آلتو» فيرتحن أكثر في «C3».

قلت محتارة:

– حسناً أستاذ... لكن إذا تواجد نوعان صوتيّان في الفِرقة، ما الحلّ هنا؟.

– ممتاز «إلهام»، تفطّنت لمشكل يغفل عنه كثير من مشرفي الفِرق الإنشاديّة.

وراح يسير في وسط الحلقة بنشاط:

– دعوني أسألكنّ شيئا، ما الأوْلى؟، الحفاظ على صحّة المنشدات أم الحفاظ على مستوى الفِرقة؟.

مالت «ابتهاج» نحوي هامسة بشيء لم أفهمه، كأنّها تطلعني على رأيها الخاصّ.

نطقت «حنان»:

– صحّة المنشدات أستاذ.

– هل توافقنها الرّأي؟.

– مستوى الفِرقة أستاذ.

قالتها «بثينة» و«سعاد» و«نور الهدى».

نظر إليّ، فخمّنت أنّه يطلب إجابتي، فقلت فورا:

– صحّة المنشدات أستاذ، لأنّ مستوى الفِرقة يتحدّد بمستوى منشداتها ومهارتهنّ في الأداء، وصحّة أصواتهنّ، ولا وجود لفِرقة إنشاديّة إذا غابت منشداتها.

– ممتاز «إلهام»، هذا هو ما أبحث عنه، ستكونين بمشيئة الله مشرفة قديرة، «غراثياس سوبرانو».

وتفرّست «سعاد» في وجهي تفرّس ذئبة، كشفت خلاله عن حقد أسود، بدأ ينمو في قلبها نحوي نموّ الوليد، غير أنّي لم أعبأ بها، وتابعت الأستاذ الذي واصل شرحه:

– ستتضرّر صاحبات نوع «الآلتو» إذا صعدن مباشرة إلى «C4»، وربما لن تكون صاحبات «السّوبرانو» مرتاحات في «C3»، إذن هنا سنقدّم العناء والإجهاد على الضّرر، وتكون التّسخينات الصّوتيّة في «C3» للجميع، هذه الطّريقة الأولى.

ورفع سبّابته اليمنى عاليا، منتظراً مرور أقلّ من ربع دقيقة، حتّى أوشكت على سؤاله، ثمّ رفع الإصبع الأيمن الثّاني، فبدا لي وكأنّه يشير إلينا بعلامة الانتصار:

– وهناك طريقة ثانية... تتمثّل في صمت «السّوبرانو» حين يكون «الآلتو» يتدرّب في «C3»، ثمّ يصمت «الآلتو» حين نصل إلى «C4» مؤقّتا، حتّى تتّسع مساحتهنّ الصّوتيّة.

ورنّ هاتف «بثينة» على حين غرّة.

13

تهديد داخلي

كانت عيناه لا تفارقان عينيّ، حتّى وإن وزّع نظرات تفقّد واستطلاع هنا وهناك على الأخريات، سرعان ما يعود إليّ وكأنّني وطنه.

قالت «حنان» بشغف:

– أستاذ، سألتك عن المقامات سابقا، فقلت سنتطرّق لها في العطلة.

– حسنا، هناك ثمانية مقامات أساسيّة تشكّل العبارة التّالية «صُنع بسِحرك»؛ «ص» مقام «الصّبا»، «ن» مقام «النّهاوند»، «ع» مقام «العجم»، «ب» مقام «البيات»، «س» مقام «السّيكا»، «ح» مقام «الحجاز»، «ر» مقام «الرّاست»، «ك» مقام «الكرد»، نقول المقام الصّوتي أو المقام الموسيقيّ أو مقامات القرآن الكريم، هي جميعها تسمية لشيء واحد، علاقة رياضيّة تجمع بين ثماني نقاط موسيقيّة تشكّل سلّماً وديوانا، مثل «دو» أو «ري» أو «مي» أو «فا» أو «صول» أو «لا» أو «سي»، تخضع لعلاقة تناسب مضبوطة قائمة على توزيع المسافات، وهناك مقام السلّم الخماسيّ المنتشر كثيراً في «السّودان» و«الصّين» مثلا، يُبنى على خمسة أصوات بدل سبعة، «دو»، «ري»، «مي»، «صول»، «لا» فقط، إذا استوعبتنّ هذا الآن جيّدا، فأنتنّ على الطّريق.

أخرجت «زينب» مشبك غسيل قائلة:

– انظر أستاذ، أنا أستعمل هذا للتّخلّص من «الصّوت الخيشومي»، أرتني إيّاه إحدى صديقاتي، قالت إنّها طريقة حديثة وجدتها صدفة في الإنترنيت.

– هذا لن يفيدك بشيء، ولا أعرف كيف يروّجه المنشدون على اعتباره وسيلة ناجعة، ولا من أين أخذوها، أنتِ تغلقين أنفكِ بهذا كي تتحكّمي في مجرى الهواء، صحيح؟.

أشارت برأسها إيجابا، فواصل:

– أكبر خطأ ترتكبينه، لا تنساقي وراء كلّ ما يُقال، الشّهيق ضروريّ، لأنّه يُدخل الأوكسجين إلى الرّئتين، طاقة إصدار الصّوت؛ والتّنفّس الطّبيعيّ يكون بالشّهيق من الأنف دون توسعة المنخرين، والزّفير من الفم.

ثمّ أخذت نبرة صوته مسحة واعظ:

– ركّزن معي في هذا، في الفكر الإنشاديّ الحديث، يجب أن يكون التّمرين الذي نطبّقه مستوفياً لعدّة شروط.

وجمت لبرهة محاولة استيعاب كلماته.

– من أهمّها ألاّ يلحق ضرراً بالمتدرّب أو ببيئته، وألاّ يعيق سير جهاز في الجسم البشريّ سيراً خلقه الله لأجله، وأن يثبت فعاليّته دون إلحاق انتكاسة بمهارة أخرى، سواء كانت متقدّمة أو متأخّرة وجب إخضاعها للتّدريب.

وتمتمت خلفه محاولة حفظ عباراته.

ثمّ تذكّرت ما أخبرتني به «صفاء» مرّة، حين تحدّثت عن الدّواوين الموسيقيّة، فسألت:

– أستاذ، لماذا نقول دائما «C4» أو «C3»؟.

– حرف C يرمز لصوت «دو»، مثلا نقول «C3» أي «دو 3»، نأخذ الحرف ونضيف له رقم الدّيوان الموسيقيّ، هذا كلّ ما في الأمر، كما يُرمز لصوت «ري» بالحرف D، ويُرمز لصوت «مي» بالحرف E، ويُرمز لصوت «فا» بالحرف F، ويُرمز لصوت «صول» بالحرف G، ويُرمز لصوت «لا» بالحرف A، وأخيراً يُرمز لصوت «سي» بالحرف B.

وراح يبتسم ليهوّن علينا ما اتّضح له أنّه وجبة فكريّة عسيرة الهضم:

– لا يوجد من تعلّم في يوم أو يومين، يُؤخذ العلم عبر مسارات معيّنة يضمن انتقال المعارف المنظّمة... لا بأس عليكنّ الآن، أرجو في الحصّة القادمة أن تقترحن ثلاثة أناشيد أو أكثر، نتدرّب عليها لتأديتها في حفل اختتام السّنة الدّراسيّة، لا تنسين أنّ الحفل سيكون في شهر رمضان المبارك، أعلموني في الإدارة أنّه سيكون حفلاً كبيراً يجمع بين ثانويّات المقاطعة، بحضور مدير التّربية شخصيّا، ووفد مرافق له من الأكاديميّة، إلى جانب السّلطات المدنيّة والعسكريّة، وربما يحضر الوالي.

صفّقت «سعاد» في حركة مفاجئة ناظرة إلى «نور الهدى» و«ياسمين» و«زينب»، بينما شحب وجه «بثينة» وقد تسلّلت إليه بعض الصّفرة، وشخصت ببصرها نحو السّماء، فيما صاحت «حنان» بتفاؤل مسرورة:

– دون إيقاع أستاذ؟.

– كما تشائين، المهمّ أنّنا سنكون أمام تحدٍّ كبير، سيقام الحفل يوم الإثنين الرّابع من جويلية، وأنا أعتمد عليكنّ من أجل ترك بصمة خالدة في أذهان الحاضرين، لا يجب أن تحدث هفوة أثناء العرض، لا مكان للخطأ أو للمفاجأة.

ثمّ نظر ناحية الإدارة:

– ستكون حصّة الثّلاثاء في الأسبوع الثّاني مخصّصة للأناشيد.

رفعت «سعاد» يدها:

– أستاذ، أريد أنشودة خاصّة بي وحدي.

لكنّه أثار ريبتها وانزعاجها الشّديد حين ذكر لها شروطاً لمنصب «المنشدة الأولى».

– إذا توفّرت فيك فعلى بركة الله.

وهو كلام لم يعجبها أبدا.

★★★

في الحصّة الثّانية خرجنا للسّاحة، وعلى منوال التّمارين السّابقة مع التّركيز على إكمال كلّ أصوات الدّيوان، جعلني الأستاذ أرافق «بثينة»، و«نور الهدى»، و«حبيبة»، و«عائشة» و«شيماء»، فساعدهنّ على بلوغ صوت «سي»، إلاّ أنّ الشّقيّة التي أرادت أنشودة خاصّة بها بدأت تفتعل المشاكل.

في فترة الرّاحة طبّقنا تمارين جديدة للتّنفّس، قال الأستاذ إنّها ستكون مفيدة لنا في هذه المرحلة، وشرع يوزّع علينا بالونات ملوّنة:

– انتبهن هنا رجاء، انفخن البالون دون أن تبرز خدودكنّ.

تمرين غريب ومضحك.

انشغل الكلّ في تطبيقه، ورحنا نتنافس في النّفخ، بينما كان الأستاذ يراقب بالون كلّ واحدة ناظراً للكرونومتر، ثمّ أشار إلينا بالتّوقّف:

– جهّزن أنفسكنّ، حين أعطي الإشارة ابدأن في النّفخ بسلاسة من جديد، حافظن على وتيرة واحدة في عمليّة النّفخ... واحد، اثنان، ثلاثة، الآن.

همست لي «ابتهاج»:

– لو أحضر لنا بيتزا مع هذه البالونات، أما كان أفضل؟، هل تصدّقين أنّي تناولت قليلا من العسل فقط هذا الصّباح؟، سأموت قبل بلوغي المترل.

مثلما انشغلت كلّ واحدة ببالونها، انشغلت «سعاد» بمراقبتي.

– الهدف من هذا التّمرين أساساً هو تقوية الزّفير وحصر القوّة في مجرى التّنفّس؛ لا تبرزن خدودكنّ... ليكن الوجه على طبيعته، وعند استرجاع الهواء لا توسّعن المنخرين مطلقاً لئلا يتشوّه شكلهما مع مرور الوقت.

ثمّ ابتسم منكّتا:

– «حبيبة»، لا أرى بالونك ينمو.

هكذا هي طبيعته حين لا يريد أن يحرج واحدة منّا، فابتسمت بخجل، كشفت فيها عن أسنان متناسقة في نصاعة الثّلج.

التصقت نظراتي بوجهها البشوش أشجّعها، حتّى سمعته يخاطبني وهو ينظر لي بفرح:

– ممتاز «سوبرانو»، أنتِ تبلين بلاء حسنا، انظرن هنا رجاء.

وصفّق:

- لاحظن البالون، إنّه يمتلئ بالهواء شيئاً فشيئا، لاحظن وجهها، إنّها تطبّق جيّداً ما أقول.

رمقتني «سعاد» وعلامات السّخرية على ملامحها أوضح من شمس الظّهيرة، فلم أهتمّ لسمّها الزّعاف، و لِمَ الاهتمام أصلا؟.

- حاولن القيام بهذا التّمرين في المترل، إنّه يقوّي الرّئتين أيضا.

وحانت مرحلة اختيار الأناشيد.

14

وقاحة أنثى

– «بثينة» هربت من البيت إلى منزل أستاذ الإنشاد البارحة ليلا، والثّانوية الآن بركان، لا دراسة ولا هم يحزنون.

– سيستدعي المدير قوّات مكافحة الشّغب، بعض معيدي السّنة يريدون استغلال الوضع لإثارة الفوضى.

لا أتذكّر الآن من القائلتان تحديدا، لكن وقع الصّدمة كان شديداً عليّ.

واندلعت الحرب في الثّانويّة.

قبل الكارثة بأشهر.

اقترحتُ جاهدة تحويل الأغرودة الإسبانيّة «Bandiganos allah» للفنّان «أحمد البقالي» إلى أنشودة، واقترحت «مريم» أنشودة «أين حجابك يا أختاه؟» للثّنائيّ «عبد الفتّاح عوينات» و«غسّان أبي خضرة»، واقترحت «حنان» عملين جيّدين ما فتئت تعلن إعجابها بهما في كلّ مجلس؛ أحدهما للمنشد «أحمد أبي خاطر» حول موضوع الحجاب، ودعّمتها الأغلبيّة، وأنشودة «لذات الدّين إنشادي» التي بدت غريبة عنّا، ورغم هذا فقد قال الأستاذ إنّها سهلة وقويّة المضمون.

فيما اقترحت «ابتهاج» رائعة «أبي الجود»، التي تفقدها توازنها كلّما شاهدتها على القنوات الفضائيّة، أنشودة «يا أمّي».

أمّا «فريال» فقد ولعت بأنشودة «أقمار» للفنّان «يزن نسيبة»، فقبلها الكلّ فورا.

ثمّ اقترحت «سهيلة» و«ياسمين» أنشودة «ماذا سيكتب ما الذي سيقال؟»، لفرقة «التّبصرة» الجزائريّة، بينما عرضت علينا «حبيبة» أنشودة «أحبّا يا قلبي»، لفرقة «الأشواق» الجزائريّة، و«شيماء» و«سعاد» أنشودة «نوّر دربي»، للمنشد السّعوديّ «عبد المجيد الفوزان».

كان الأستاذ مسروراً جدّاً بقوّة الطّرح والاختيار، فقد عكس المستوى العالي لاهتماماتنا، لكن لم نكن ندري أنّ هناك مأزقاً كبيراً بات يهدّدنا.

كانت كلّ واحدة فينا تريد الحصول على منصب «المنشدة الأولى»، أو «الفرديّة»؛ وهو مصطلح يعني الظّفر بالأداء الفرديّ، بما يحويه من أبعاد الشّهرة والتّميز والتألّق، ولا سيما في حفل سيحضره والي ولايتنا، مع حاشية عريضة من الوزن الثّقيل، وربما حتّى التّلفزيون الرّسميّ وبعض القنوات الخاصّة.

– أريد منصب «المنشدة الأولى» أستاذ، لا أعرف إن كان المدير قد فاتحك في هذا الموضوع أم لا.

ألقتها «سعاد» في وجوهنا كأنّها حقّ من حقوقها الشّرعيّة، وسط صمت حذر من «حنان» و«حبيبة» و«بثينة»، و«ابتهاج» التي نظرت إليها بعينين متّسعتين، ثمّ همست لي وهي ما زالت ترمقها ضابطة نظّارتها بسبّابتها والإبهام:

– يا لوقاحتها، من تظنّ نفسها حتّى تطالب بذلك؟، ألم يخبرها أحدهم أن لا محلّ لها من الإعراب؟... لم أكن أعلم أنّ باستطاعة الوقاحة أن تتجسّد كشيطان.

– جهدكِ ومستواكِ هو المحدّد الوحيد يا آنسة، لست أنا ولا المدير، ولا المفتّش ولا حارس الثّانويّة من يقرّر منصبك.

قالها بنبرة فيها نوع من الألم والحسرة، أو ربما كشيء كان يتوقّع حدوثه ويخشاه.

ثمّ أطلقت «ابتهاج» رصاصتها:

– أعتقد أنّ «إلهام» هي التي تستحقّ ذلك، بناء على موهبتها وخامتها الصّوتيّة الفريدة.

تفرّست «سعاد» فينا قائلة بنبرة عدوانيّة:

– كلّنا بنات تسعة أشهر.

وغادرت المكان بوجه ممتقع.

نظرت مباشرة إلى الأستاذ أقيس ردّ فعله، فلم يبالِ بها أصلا، كأنّها تلميذة مزعجة أُخرجت من القاعة، بل راح يسأل عن اسم الفِرقة، في تجاهل تامّ لما اقترفته، وهو تصرّف لم أستطع هضمه.

يبدو أنّه هو الوحيد الذي فهم ما يدور أمامنا جميعا، إذ آثر الانشغال باختيار اسم مختلف غير مستهلك، وراح يثني على «حبيبة» صاحبة الشّرف، غاضّا البصر عن الزّوبعة التي أُثيرت في فنجان.

غابت «سعاد» عن حصّة السّبت.

يقول «الرّادار» إنّه التقط إشارات تشي بسعيها الحثيث عند أكثر من جهة للضّغط على الأستاذ، كي يمنحها منصب «المنشدة الأولى»، ووصلت بها الجرأة إلى الذّهاب إلى زوجة المدير، كي تضغط على زوجها ليضغط بدوره على الأستاذ.

قلت في حنق:

– أرأيتنّ طريقة تفكيرها؟.

أجابت «ابتهاج» بسرعة:

– فلسفة جوارب، من لا يملك رأساً لا يحتاج إلى قبّعة.

وأرسلت للتوّ آخر لقمة من شريحة بيتزا إلى معدتها، ثمّ تجشّأت مكملة حديثها بمثل ثوريّ لا أعرف ما علاقته بالأمر:

– القسوة ليست في قلوبنا، بل في الظّروف التي نحاربها.

فردّت «حنان» وعلى وجهها علامات الاستغراب:

– لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، هذه الفتاة مستعدّة لفعل أيّ شيء مقابل تحقيق أطماعها!، في الأسبوع الماضي استدعاها المراقب العامّ، بسبب قلم أحمر الشّفاه الذي أصبح لها أكثر من بطاقة تعريف.

أخرجت شريحة ثانية كانت ملفوفة في كيس ورقيّ بنيّ واندفعت بالقول:

– أرادت الاستحواذ على «نزيم».

قالتها وكأنّها تلقي إلينا بسرّ، أعتى من سرّ مكان دفن كنوز القراصنة، فضحكت «حنان» من مكرها وقد زاد استغرابها، فاستطردت:

– لا يثير انتباهها أيّ أحد من الشّباب، هل رأيتنّ؟.

وأشارت بعيداً:

– الذين نجدهم واقفين في الخارج يتسوّلون نظرةَ حمقاء، لا عمل لهم ولا سكن.

انفجرت «بثينة»:

– الغاية لديها تبرّر الوسيلة!، هذا هو منطقها، ولهذا السّبب أنا أكرهها.

جذبت عباراتها النّاريّة اهتمام «حنان» التي تقف بيننا أمام المدرّج، في انتظار حضور الأستاذ الذي يكون في هذه الأثناء في مكتب المدير، بينما تساءلت «حبيبة» عن نسبة احتمال رضوخه للضّغوط.

– لا أظنّ، وربما سيتوقّف إذا تدخّل أحد في عمله.

وخفق قلبي على حين غرّة حين أتمّت «نور الهدى» جملتها، وهي تتناول الفول السّودانيّ، غير عابئة بما نالني منها من توجّس، مقدّمة بعضه لبعض الزّميلات القريبات منها، في حين شكّلت «نعيمة» و«أشجان» و«ليلى» و«سهيلة» و«فريال» حلقة على مسافة أمتار.

انتفضت «إشراق» وهي تقاوم غضبها من عبارة «ابتهاج» السّابقة حول خطيبها:

– من الضّروريّ هنا تكثيف الرّوابط وتمتينها لزيادة تماسك الفرقة، بدل نشر بذور الفتنة والتّفرقة والكراهيّة، من المستفيد من كلّ هذا؟... «باتريسيا»؟.

ثمّ أمسكت برأسها وهي تصيح بالفرنسيّة:

– يا إلهي العادل، كلّنا سنتضرّر، لا يوجد رابح في هذه الحرب.

نكزتني «ابتهاج»:

- الأستاذ يريدك، إنّه ينظر إليكِ مشيراً بشيء ما.

كان يريد منّي إحضار الكراسي من القاعات المجاورة كما هي العادة، لتشكيل الحلقة في السّاحة أمام المدرّج.

- الله الله، ألاحظ انسجاماً بينكما، يبدو أنّكِ ستدرّسين هنا بعد تخرّجك.

لم أعبأ لكلامها رغم أنّه أسعدني، فقد كنت متخوّفة ممّا قالته «نور الهدى»، وتوجّهت إلى القاعة لإحضار الكراسي، ورافقتني «حنان» و«حبيبة»، ثمّ التحقت بنا باقي الزّميلات.

أتى الأستاذ وعلامات الانزعاج مرتسمة على وجهه رسما:

- خيراً أستاذ؟.

- لا شيء «إلهام»، لا شيء، لنكمل عملنا.

قالها وهو يرتدي قفّازيه الأبيضين ففهمت أنّه يتجنّب إزعاجي، وأكملنا وأنا ممتعضة لامتعاضه.

هل يجدر بي الآن أن أعترف أنّني السّبب في كلّ ما يحدث له؟.

لتأخذ المنصب من تريد، خذن كلّ ما ترغبن به، المهمّ أن يظلّ الأستاذ هنا معنا، مسروراً لا يعكّر صفو مزاجه شيء.

في فترة الرّاحة اتّفقنا جميعاً على اختيار ثلاثة أناشيد فقط حسب رغبة الإدارة، وطمأننا الأستاذ أنّ كلّ شيء سيكون جاهزاً إن شاء الله يوم الثّلاثاء القادم.

ثمّ ركب سيّارته وغادر، وقد شدّ الغضب فكّه السّفليّ، غادر وتركني لعذاباتي ووساوسي، مخلّفاً وراءه رائحة عطره النفّاذ.

★★★

في الطّريق رافقتني «ابتهاج» كعادتها، وراحت تخبرني بكلّ ما التقطته تردّداتها من معلومات:

- يقولون في الفرقة إنّكِ أنتِ سبب المشكلة التي حدثت بين الأستاذ و«سعاد».

- لا، لست أنا، أنتِ من أجّجت الوضع فثارت تلك المغرورة، كاشفة عمّا كان يدور في قلبها من حقد أسود، كان ينمو مثل «البوليب».

- أنا؟... أنا قلت الواقع فقط، أنتِ الوحيدة الكفؤة للمنصب، هذا ما يجب الاعتراف به مهما كانت الأحوال.

– من الأجدر بكِ ألاّ تثيري غيرها أكثر، تلك الغبيّة لا تعي أنّه ليس بالضّرورة أن يفشل الآخرون كي تنجح هي، والآن أخذت المشكلة البسيطة بعداً آخر بعد تدخّل المدير، هل تقدّرين كلامي يا «ابتهاج»؟، هل تعين خطورة الموقف؟.

هزّت كتفيها دون اكتراث، ثمّ قالت وهي تتفادى إحدى السّيّارات المسرعة:

– بطبيعة الحال، يقول الأستاذ إنّ للفِرقة الإنشاديّة بعداً تشاركيّاً، والإنشاد ككلّ عبارة عن لعبة جماعيّة، كلّ فاعل إنشاديّ يدلي بدلوه مهما كان دوره، على فكرة... هل تخشين أن يتوقّف الأستاذ؟.

– وهل تعي هي هذه القيم؟.

– كلّ إناء بما يحويه ينضح، المهمّ... لم تجيبي.

– على ماذا؟.

– يا شرّيرة، لا تتصنّعي الغفلة معي... هل تخشين أن يتوقّف الأستاذ؟.

– لا أريد أن ينهار العالم بسببي، هذا كلّ ما في الأمر.

ثمّ نكزتني مشيرة بعينيها اللّتين تبدوان كعيني نملة خلف النظّارة السّميكة:

– يا ماكرة، لقد التقط الرّادار مشاعر طيّبة نحوه.

وضحكت في تصنّع تحاول إخفاء شيء ما عنّي، مردّدة بمرح:

– «بين طواحين الأيّام نخفي أمانينا».

ثمّ نكزتني مرّة أخرى:

– أمامكِ أمامك، «منير».

– دعينا من ذلك الصّعلوك، أنا الآن داخل القُمع.

متوتّرة نظرت إليه، لأجده قد خرج لتوّه من تحت إحدى السّيّارات التي كان يصلحها، بوجه ملطّخ بزيت التّشحيم، وهو ينظّف يديه بخرقة سوداء بالية، ومع ذلك فقد عرف جيّداً كيف يلصق عينيه بي.

– يبدو أنّه يريد الحديث معك.

– لن أتكلّم مع أحد... والله سأضربه ضرباً موجعاً لن ينساه أبداً في حياته.

ضحكت «ابتهاج» ومضينا في طريقنا متجاهلين وقوفه وتحديقه بنا.

كنت متأخّرة عن موعد رجوعي إلى البيت، ومن حسن حظّي أنّي وجدت «ماما سوسو» عند الباب، تترقّب عودتي بشغف، وكانت أمّي قلقة في الدّاخل، تحضّر لاستجواب بوليسيّ.

– آه يا «ماما سوسو»، لو تعلمين ما في صدري؟.

وحكيت لها كلّ شيء... ويجب أن تعرف كلّ شيء.

15

ضفاف الاحترافيّة

– هناك أناس مثل العلكة، لا تحوي أيّة قيمة غذائيّة، لكن مجرّد مضغها يعطيك شعوراً بديعاً بالانتعاش.

الثّلاثاء، أوّل حصّة مخصّصة للأناشيد...

سننشد اليوم بعد ثلاثة أشهر من تأسيسنا لفرقة «أوميغا للإنشاد المدرسيّ»، الاسم الذي اقترحته «حبيبة»، ووافقنا عليه جميعاً لتميّزه.

أساسه حرف إغريقيّ يرمز للوسطيّة والاعتدال، وللأصالة والاندفاع والتّواضع.

بثقافتها الواسعة التي تُغبط عليها وتُحسد، وتفوّقها في دراستها، تعدّ بحقّ فتاة مثاليّة في نظر الكثير من الأساتذة، يُضرب بها المثل بين أقسام السّنة الأولى كافّة من الجذع المشترك «آداب».

تقول عنها «حنان» إنّها مرتّلة قديرة في مصلّى النّساء.

تلكم هي «حبيبة»، صديقتي المتحجّبة السّمراء، التي أهدتني قرصاً مضغوطاً لمنشدها المفضّل «محمّد أبي راتب».

– أرجو أن تعذرنني... ربما كنت قاسياً معكنّ بعض الشّيء في الحصص الماضية، لكن كان لا بدّ من ذلك، هذه الحصّة لن تكون كالحصص السّابقة، سنحدّد عضوات «مجموعة الإسناد»؛ أي العضوات اللاّتي لديهنّ قدرة على الأداء الفرديّ، طبعاً لا يقتصر الأمر على التّحكّم بالصّوت فحسب، بل أريد الشّجاعة والقدرة على التّمثيل الصّوتي، ومواجهة الجمهور، الذي يريد التّميّز والإبداع والإمتاع.

توتّرتُ قليلا.

ثمّ أضاف بحسرة:

– أبلغوني في الإدارة أنّنا سنضطر لتقديم أنشودتين فقط، بسبب ضيق الوقت، سنكون في رمضان، ولا يجب أن يطول الحفل كثيرا، وعليه، سيكون عملنا الأوّل أنشودة «أقمار»، والثّاني نشيد «الحجاب»، أنا أقترح، أقول... أنا أقترح.

باسطاً راحتيه أمامنا... أضاف ركائزه:

– بناء على أسس بطبيعة الحال؛ كالتّناسب مع الحفل، سهولة الأداء، التّوافق مع إمكانات الفِرقة، توقّع الأثر عند الجمهور.

بدأت عبارات الموافقة تنهال عليه من كلّ واحدة.

– أستاذ لو سمحت، لديّ إشكال، ما معنى «التّمثيل الصّوتيّ»؟.

سألته وأنا متلهّفة على إجابته، وكلّي خشية من كونه شرطاً يصعب عليّ تحقيقه.

– هو درجة التّعبير والإحساس الذي يُستشف من خلال الصّوت فقط، لا يجب على الجمهور أن يراك حتّى يتأثّر بأدائك، بل يجب أن يؤثّر فيه أداؤك دون أن يراك، وهو مطلوب لدى كلّ عضوات الفِرقة، غير أنّه يجب أن يكون ظاهراً عند «الفرديّة» بجلاء تامّ.

– أعتقد أنّ «إلهام» هي الوحيدة التي لديها هذه الملَكة.

قالتها «ابتهاج» وهي تنظر إلي.

– «إلهام» هي عضوة في مجموعة الإسناد، لكن أريد أخريات كي لا يزيد الضّغط عليها، على الأقل منشدة واحدة أو منشدتين، هناك ثلاثة عناصر أساسيّة؛ الجاهزيّة الصّوتيّة والاستعداد النفسيّ والتّحكّم في الأعصاب.

نكزت «ابتهاج» لتسكت، خشيت أن تثير مشكلة من لا شيء كعادتها إذا حشرت أنفها في أيّ موضوع، غير أنّها لم تعبأ بي، وواصلت متحدّية:

– هناك أناس مثل العلكة... تعرفين الباقي.

وبدأنا –وسط النّظرات المفخّخة– بالإحماء الصّوتي الذي قارب عشرين دقيقة، وهو ما كنّا نفعله سابقاً أثناء التّدريب على أصوات الدّيوان الموسيقيّ.

★★★

اختار الأستاذ هذه المرّة «C3»، ثم واصل إلى «C4».

سلّمان متتابعان على درجة «دو»، وهو ما أراحنا جميعا، وأفرح الأستاذ كثيرا، فقد أنهينا ست عشرة نغمة موسيقيّة بأريحيّة تامّة، ثمّ جلسنا فوزّع علينا كلمات الأنشودة الأولى، التي سنقدّمها للجمهور بعد ستّة أشهر من الآن، مطبوعة على أوراق.

أنشودة «أقمار» للمنشد والمغرّد «يزن نسيبة».

– تابعن معي، وانتبهن للّحن جيّدا؛ لا نريد أن نخرج عنه أو نحرّفه؛ يجب احترام جهود من تعبوا فيه، سنغيّر في التّوزيعات قليلاً، بما يتلاءم مع إمكانات فرقتنا.

وراح يُسمعنا العمل مرّتين متواليتين ثمّ أعاده مرّة ثالثة، مسجّلاً عبر الكمبيوتر، لنأخذ فكرة شاملة عنه من كلّ الجوانب.

تقول كلمات الأنشودة:

يا حبيب الله يا من نوره يملى الوجود
والذي من كفّه قد فاض فينا بحر جود
أنت سرّ الله حقّا جئت من خير الجدود
لنجاة الخلق ممّا ضرّهم تمدي الأنام
قالت أقمار الدّياجي قل لأرباب الغرام
كلّ من يتبع محمّد ينبغي ألاّ يُضام
صلّى الله عليك وسلم، يا رسول الله، يا حبيب الله، يا نبيّ الله
يا من سوف يكون شفيعي يوم سألقى الله
وصلاة الله ربّي مع سلام لا يزال
لنبيّ الله من حاز جمالاً وجلال
والذي منه البرايا تستقي أزكى الخصال
وبعفو الله صفحاً ترتجي حسن الختام
قالت أقمار الدّياجي قل لأرباب الغرام
كلّ من يتبع محمّد ينبغي ألاّ يُضام
صلّى الله عليك وسلّم، يا رسول الله، يا حبيب الله، يا نبيّ الله
يا من سوف يكون شفيعي يوم سألقى الله

أوّلاً، ميّز الأستاذ مناطق «التّدخّل الصّوتيّ»؛ وهو مصطلح يُقصد به تقسيم الجمل بين «المنشدة الأولى» والمجموعة، ثلاث مناطق تحديدا، وعادة ما تكون جملة معيّنة تسمّى «اللاّزمة»، ومنطقتين للمنشدة الأولى التي أراد الأستاذ أن تكون منشدتين، أنا و«حبيبة».

ثانياً، وضع إيقاعاً هنديّاً معزّزاً بقطع إيقاعيّة أخرى، مثل «البوم» و«التّاك».

تبدأ الأنشودة بالإيقاع الهنديّ الذي مدّته ثماني أزمنة، ثم أبدأ أنا كمنشدة أولى من عبارة: «يا حبيب الله يا من نوره يملى الوجود، والذي من كفّه قد فاض فينا بحر جود»، فأكرّرها مرّتين، ثمّ تدخل المجموعة خلفي باللاّزمة مرّة واحدة؛ وهي مقطع «أنت سرّ الله حقّاً جئت من خير الجدود، لنجاة الخلق ممّا ضرّهم تمدي الأنام»، يرافقها الإيقاع المعزّز، ثمّ يأتي دوري؛ «قالت أقمار الدّياجي قل لأرباب الغرام، كلّ من يتبع محمّد ينبغي ألاّ يُضام»، أنشدها مرّة واحدة لترجع المجموعة بمقطع «صلّى الله عليك وسلم، يا رسول الله، يا حبيب الله، يا نبيّ الله، يا من سوف يكون شفيعي يوم سألقى الله»، فتكرّرها مرّتين.

ثمّ يأتي دور «حبيبة» في عبارة «وصلاة الله ربي مع سلام لا يزال، لنبيّ الله من حاز جمالاً وجلال»، فتكرّرها مرّتين بالإيقاع الهنديّ فقط، ثم تدخل المجموعة لتعيد جملة «والذي منه البرايا تستقي أزكى الخصال، وبعفو الله صفحاً ترتجي حُسن الختام»، مرّة واحدة مرفوقة بالإيقاع المعزّز، ثمّ تدخل «حبيبة» في مقطع «قالت أقمار الدّياجي قل لأرباب الغرام، كلّ من يتبع محمّد ينبغي ألاّ يُضام»، مرّة واحدة، ثم تدخل المجموعة في عبارة «صلّى الله عليك

وسلّم، يا رسول الله، يا حبيب الله، يا نبيّ الله، يا من سوف يكون شفيعي يوم سألقى الله»، تعيدها مرّتين فقط، وفي المرّة الثالثة تخفض صوتها شيئاً فشيئا، حسب إشارة يد الأستاذ التي ستكون الموجّه لها في درجة الخفض، وكأنّ هناك إصبعاً خفيّا يتلاعب بالصّوت.

هذه هي الملامح العامّة للتّوزيعات التي تمّ وضعها حسب إمكانات الفِرقة، بعد أن تمّ حذف إعادة اللّحن بالآهات، والتوقّفات الإيقاعيّة.

– قبل البدء في التّنشيد، يجب حجب كلّ عوامل التّشتيت الذّهني، مع استحضار المشاعر والأحاسيس المطلوبة، لزيادة مدى «التّمثيل الصّوتيّ».

قالها وهو جالس كتوصية عامّة، ثمّ نهض مردفا:

– هذا هو شكل الوزن أو الإيقاع الرّباعيّ، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، هذا «مقياس»، تابعن يدي ولا تغفلن عنّي مطلقا، اجعلنني دائماً في مساحة نظركنّ مهما حدث، قبل أيّة أنشودة أو نشيد، نترك مقياساً كاملاً يمرّ من الإيقاع، ثمّ نبدأ... مفهوم؟.

وهنا انهارت «بثينة» على الأرض.

هرع الأستاذ إليها:

– «بثينة» «بثينة»... هل تسمعينني؟.

– يبدو أنّها فقدت وعيها.

هذا ما قالته «ابتهاج» وهي تحاول وضع عطر كحوليّ تحت أنفها.

وسرعان ما ارتعشت أهدابها لتفتح عينيها ببطء، ثمّ اتّسعتا فجأة، وكأنّها غير مصدّقة أنّها كانت ملقاة على الأرض.

أجلستها «ابتهاج» و«مليكة» على كرسيّها، لكنّها فضّلت المغادرة حين استعادت موفور صحّتها.

– ربما هي في دورتها الشّهريّة.

هذا ما همست به «إشراق» في أذني، غير أنّ نظرات «ابتهاج» كانت تشي بشيء غريب لا أفهمه.

16

تماسّ كهربائي

لم يكن وحده حين أتانا مهرولاً وبطنه الضّخم يرتجّ أمامه، فقد كان قرينه حارس الثّانويّة صاحب الأنف الأفطس، أهمّ شخصيّة التصقت به منذ بدء مزاولة عمله، الذي يُشتبه أنّه عُيّن فيه بمكالمة هاتفيّة.

وتبعهما بعض عمّال الإدارة، وقد انجذبوا لأدائنا انجذاب الدّبّ إلى عسل النّحل.

أتوا ليروا بأنفسهم ما بذلنا أسابيع لتحقيقه؛ قوّة صوتيّة وانسجام تامّ، وتحكّم بديع بكلّ المقاييس.

- رائع أستاذ، عمل رائع، ما هذا؟! ما هذا؟!... «برافو».

وما زال يكرّرها بالفرنسيّة على مسامعنا، وكلّما اهتزّ لسانه بعبارات الثّناء اهتزّ ما برز من جسده، في حركة تناغميّة ما زالت «ابتهاج» تضحك عليها عالياً كلّما تذكّرتها.

- يجب أن نأخذ صوراً لهذا الإنجاز... يجب تخليد لحظات النّجاح أستاذنا، ما الذي أراه أمامي؟!... أوّل مرّة أسمع هذه الأصوات القويّة منذ أن أصبحت مديراً لهذه المؤسّسة التّربويّة، سنكتسح المقاطعة كلّها دون منازع.

ومضى يمسح على بطنه، كأنّه سيتناول خروفاً مشويّا، في حين هزّ الحارس رأسه بشدّة موافقا.

نظر الأستاذ إليهما بريبة.

لم أتبيّن جيّدا كنه ريبته، حتّى جذبه المدير إليه من سترته جذباً تلاءم مع صوته الخفيض، وسرعان ما التصق به محاولاً إقناعه بإلحاح شديد بما لم أستطع إدراكه، مبرزاً في يده اليمنى ورقة يظهر منها جزء كبير من ختمه الدّائريّ، وإمضاؤه الذي يشبه خربشة طفل صغير.

ثمّ رأيت الأستاذ يهزّ رأسه نافيا، في حركة عنيفة غاضبة، تزامنت مع اهتزاز بطن الأوّل بعبارات الثّناء، وهو يهمّ بالانصراف، متبرّماً من الموضوع الذي طُرح عليه، بعدما ألقى نظرات قلقة نحوي.

راح المدير يداري حرجه الشّديد وراء ابتسامة مصطنعة، سرعان ما سانده الحارس بنفاقه المسموع.

قالت «نغم» التي كانت بقربهما:

- لقد رفض طلبه.

– أيّ طلب؟.

تساءلت وأنا أحاول إعادة كرسيّي إلى مكانه، مدارية اضطراب صوتي، فيما راحت حبّات عرق تتسلّل من جبهتي، رغم اعتدال حرارة ذلك اليوم.

– يبدو أنّه يحاول التّأثير على الأستاذ للمرّة الثّانية.

ألقتها «ابتهاج» في وجهي، وسعادة عارمة تغمر وجهها بعد أن رأت إحدى الشّرطيّات تلوّح لها من بعيد.

ولّما استغربت جملتها قالت:

– قضيّة «سعاد»، سأعود بعد قليل، لقد جاءت «سامية» لزيارتي، إذا سأل الأستاذ عنّي فأخبريه أنّي لن أتأخّر.

– من هي حتّى نخصّص لها قضيّة؟، لا أعرف لماذا تقدّسون حثالة كهذه؟!.

كانت تلك أوّل مرّة أرى فيها «إشراق» غاضبة إلى هذا الحدّ؛ أهي ذاتها التي كانت تستعدّ لارتداء الحجاب؟.

17

تفّاحة المترل

– كيف حال «إلهام السّوبرانو»؟.

– بألف ألف خير يا «ماما سوسو».

قلتها وأنا ألقي بنفسي عليها معانقة في الباب:

– آه يا «ماما سوسو» لو رأيتِ اليوم ما فعلناه؟، حتّى المدير وعمّال الإدارة أتوا لرؤيتنا، لالتقاط الصّور التّذكاريّة، كانوا ينظرون إلينا والحيرة تنهش عقولهم، لم يكونوا يتصوّرون أنّ باستطاعتنا نحن طالبات الثّانويّة الوصول إلى ذلك المستوى المرعب من الأداء، آه... نحن نشكّل العالم.

ثمّ تحمّست في العبارة الأخيرة، وأنا أتذكّر نظراته نحوي، فقلت وأنا أرفع قبضتي في الهواء:

– المجد لنا نحن الفتيات.

هل تريدون الصّدق؟.

لم نتحكّم في الأنشودة جيّداً إلاّ بعد إعادها للمرّة الرّابعة، ساعتها استوعبت كلّ المنشدات الدّور المنوط بهنّ على أكمل وجه، وكانت «مريم» بنوعيّة صوقما «الآلتو» بطلة المجموعة دون منازع، فقد كانت لها كاريزما غريبة جذبت إليها باقي العضوات، وحتّ «مليكة» التي لها نفس نوعية الصّوت لم تستطع إثبات حضورها، على الأقلّ بالقدر نفسه.

وحانت نظرة منّي إلى الأستاذ الذي كان ينظر إلينا بدوره، وعلامات السّرور بادية على محيّاه، لسيطرتنا الفريدة على الوضع، والتقت عينانا كما يلتقي جدولان صغيران تشكّلا بسرعة من أمطار السّماء.

كان معجباً مزهوّاً بإنجازي، الذي هو في الأساس إنجازه... وإنجاز كلّ العضوات.

لقد طبّقنا جيّداً مصطلح «وحدانيّة الجمهور».

يا له من انتصار!... ويا ليتني لم أرَ عينيه!.

وحكيت لها كلّ شيء، ويجب أن تعرف كلّ شيء.

كلّهم في المنزل كانوا سعداء، حتّى أبونا الذي على الحائط حسب ما روته لي خالتي، وجدّتي التي ما فتئت تكرّر على مسمع الجميع:

– «إلهام» ستظلّ تفّاحة المنزل، لا تغضبوها فقط.

– من؟... التي ستشكّل العالم؟!.

تقولها أمّي ساخرة، ويظلّ وجهها عبوساً كالمطرودة من العرس، ويزيد تجهّمها ساعة بعد ساعة، ولّما تحلّقنا حول مائدة العشاء هاجمتني بكلمات في حدّة السكّين:

– لقد انزعج «منير» من إنشادك في الثّانويّة، هذا ما قالته لي والدته في الهاتف قبل دقائق، ووجدت نفسي محرجة جدّا أمامها، لم أعرف ما الذي...

– نعم؟... «منير» الميكا... ؟.

لم أشأ إكمال جملتي تقزّزاً منه، مشيرة بإصبعي ناحية الجنوب.

– ووالدته غاضبة منكِ جدّاً.

– جدّاً؟... ليغضبا معاً كما يريدان، ما دخلي أنا في الموضوع؟.

– ستبقين عانساً مثل خالتك، وسترين أين سيؤدّي بكِ غرورك.

– ما معنى عانس يا أمّي؟.

سأل «أيّوب»، فردّت عليه ساخطة متفرّسة في وجه خالتي:

– معناه أن نبقى نلعب الغمّيضة هنا في هذا المنزل حتّى بلوغنا سنّ التّسعين.

وانفجرت «صفاء» ضاحكة.

ارتسمت معالم الحيرة على أخي الصّغير، وقامت أمّي في حركة آليّة لتنظيف قدر كبير، وهي تنظر إلى خالتي التي انشغلت بتناول قهوتها، نظرات ليست ككلّ النّظرات:

– لو تتعلّمين الطّبخ، على الأقلّ سيجد زوجكِ ما يأكله حين يعود في المساء، هل تريدين أن أعلّمك تحضير طبق لذيذ يحبّه كلّ الرّجال؟.

وقمت خلفها أعانقها، فالتفتت إليّ على مضض، واغرورقت عيناها بالدّموع:

– أريد الاطمئنان عليكِ قبل أن أنتقل للأعلى، أليس هذا من حقّي يا «إلهام»؟.

وأشارت بسبّابتها اليمنى إلى السّماء.

– لا تقولي هذا ثانية ماما، لماذا تذكرين الموت دائماً وكأنّك ستموتين غداً؟!.

– الأعمار بيده تعالى يا ابنتي، على الأقلّ أرى أولادك يلعبون حولي، طفل أو طفلان.

ثمّ وشوشت لي مستفسرة:

– «إلهام» حياتي... هل هناك شخص آخر؟، هل تحبّين شابّا ما؟، أخبريني أنا أمّك.

إلاّ أنّها استردّت بسرعة نصلها الصّوتيّ الحاد:

– لا تتركيني كالصّماء في العرس.

– «إلهام» أختي، لا تنسي أنّك وعدتني بشارة «أنا وأخي» هذه اللّيلة.

تردّدت قليلا وابتسمت، كنت أخشى أن تتدخّل «صفاء» بمزاحها السّمج، ورغم انشغالها ظاهريّا بهاتفها، إلاّ أنّها ألقت العبارة التي اشتُهرت بها «حنان»:

– حفظه الله وسدّد خطاه.

فالتفتت إليها أمّي بحاجبين مقبوضين، وقبل أن يتبيّن لها أيّ شيء، كانت في حضن «ماما سوسو»، التي قامت لتعانقنا، بينما انشغل «أيّوب» وجدّتي بالأكل، وخلوت أنا بأحلامي.

★★★

صبيحة الأحد.

كانت فرقتنا تتصدّر أحاديث الصّباح، خاصّة بعد انتشار صورنا في وسائل التّواصل الاجتماعيّ.

كنت أسمع الهمس المعتاد «ها هي ذي، ها هي ذي، إلهام السّوبرانو» أينما حملتني ساقاي.

أمّا في المنزل، فكانت أمّي تنتظرني خلف الباب، كأنّها تنتظر لصّا تعلم مسبقاً أنّه سيتسلّل قرب الفجر لخمّ الدّجاج:

– أرغب في معرفة تفسيركِ للأمر.

هذا هو ملخّص ما قالته لي، وهي تريني ما نشر عنّي في صفحات وسائل التّواصل الاجتماعيّ المحليّة.

– لا شيء أمّي، لا شيء، ضريبة الشّهرة.

فانفجرت في وجهي حانقة:

– متى توقفين هذه المهزلة وتلتفتين لدراستك ومستقبلك؟، صوركِ في كلّ مكان، أتقدّرين الحال التي أوصلتنا إليها؟... أتريدين جلب العار...؟.

– مستقبلي مع الميكانيكيّ؟... رجاء... أخبري أمّه التي كانت هنا أن تصرف نظرها عنّي، لن أتزوّجه... والذي خلق السماوات والأرض لن أتزوّجه.

طأطأت رأسها منسحبة، فانصرفت إلى غرفتي، بعدما دعّمت جملتي بإشارة مقتضبة، تفيد أنّ الموضوع منتهٍ تماماً على الأقلّ... بالنّسبة لي.

18

مثلّث «برمودا»

يقولون إنّ الشّخص البدين يشغل المكان بجسمه أوّلا، لكن «ابتهاج» تشغله دائماً بآثارها.

– ما أخبار الشّوكولاتة؟، ألن تهديه لوحا؟.

– آه يا «ابتهاج»، نسيت الأمر برمّته، لم يعد له فائدة الآن.

– على رأيك.

لكن سرعان ما عادت الفكرة لتلمع في ذهني من جديد.

★★★

كان كلّ شيء على ما يُرام، حتّى سمعت أصواتاً تتعالى في الإدارة، بمجرّد اقترابي من مكتب الأساتذة.

– أرجوك سيّدي المدير، هذا الموضوع لن يكون مساحة للنّقاش، لقد اخترت وانتهى الأمر، وأعي جيّداً ما أقوم به.

نعم، هذا ما سمعته بصريح العبارة، وكانت «نورة» واقفة أمام النّافذة قرب مكتبها، ترقب ما يحدث بين الأستاذ والمدير، الذي راح يسوّغ له بعض الإغراءات.

– دعنا من هذه المبادئ التي لا تطعم أحدا، ها هو القرار، أريتك إيّاه كي لا تقول إنّي أكذب، ما الذي يزعجك؟، في النّهاية كلّها أسماء، والدّنيا فانية.

يا ربّ السّماوات، أحسست أنّي بحاجة للأوكسجين أكثر ممّا هو موجود في الجوّ.

– آسف، لا يمكن، العمل عمل، ولا مجال لشيء آخر.

– على كلّ حال سأدعك تفكّر، لدينا الوقت، كلّ الوقت، حفل الاختتام ما زال بعيدا.

وأطال الكلمة الأخيرة، ثمّ حين تفاجأ بصرف بصره عنه أكمل مسرعا:

– ولا تنس أنّ القرار له صلاحيّة محدودة.

قالها بنبرة محذّرة، وهو يطوي ذراعيه أمام صدره.

وانطلق جرس نهاية الحصّة.

ارتبكت حين التقت عيناي بعيني «نورة»، وغادرت المكان منسحبة إلى الخلف، لأضيع بين الحشود.

– آه أمسكتك، ماذا كنتِ تفعلين هناك؟.

– لا شيء «ابتهاج»، لا شيء.

– هل تعرفين ما حدث قبل ساعة من الآن؟.

– كلاّ، ومن هذه التي تجرؤ على تحدّي الرّادار؟.

– «إشراق»، تأجّلت خطبتها، والمسكينة الآن في القسم تبكي بحرقة، أعتقد أنّ «باتريسيا»...

لم تكمل جملتها، بل تبعت نظراتي القلقة مباشرة ناحية الإدارة، حين التصقت عيناي بالأستاذ، الذي غادر مسرعاً وفي يده ورقة يتلاعب بها النّسيم، يكاد يمزّقها غيظا.

والتقت عينانا... فتوقّف كأنّه يريد الحديث معي.

تسمّرت مكاني واجمة لا أدري ما الذي يجب القيام به هنا، ثمّ انصرف حين رأى «سعاد» تقترب منّي مع شلّتها.

– ماذا يحدث بالضّبط؟.

تساءلت بهذه الجملة متمتمة.

– مرحبا «سوبرانو»، هل من جديد؟.

تجاهلتها.

– نعم يا «ابتهاج»، أنا معك، ما بها «إشراق»؟.

ألقيت بها في وجهها محاولة صرف انتباهها عمّا يحدث، فواصلت:

– المسكينة، كسر «نزيم» قلبها، كانت تحضّر جدّياً...

– من «نزيم»؟.

– آه يا «إلهام»، الشّاب الذي يأتي لرؤيتها في نهاية كلّ أسبوع، صاحب السّيّارة «BMW» السّوداء، ركّزي معي، ما بك؟.

– لا شيء، أشعر ببعض الإرهاق.

ومددت يدي لأتناول قطعة من الشّوكولاتة الدّاكنة التي أحملها معي.

غير أنّها سحبتني بقوّة قائلة:

– تعالي معي نصعد إليها، أشمّ رائحة قذرة بدأت تنتشر في المنطقة.

وسدّت بإصبعيها فتحتي أنفها، وقد تقلّصت ملامحها فجأة، كمن تعثّرت بجرذ ميّت.

– لديّ ملفّكِ يا برميل النّفط.

غير أنّ «ابتهاج» تملّصت من مواجهتها.

ونظرت إلى «سعاد» التي غادرت المكان مترعجة من تجاهلنا لها، بعدما هدّأتها إحدى الحرباءات.

– قرار تأجيل خطبتها لا يمكن أن يكون عفويّا، يقول إنّ والدته قد توفّيت بسكتة قلبيّة.

– رحمها الله، وما الغريب في ذلك؟.

– لا أعرف، لكن من النّاحية الفيزيائيّة، هناك خلل.

ثمّ تجشّأت فحمدت الله، وارتسمت آثار الغبطة على وجهها الذي يزيد امتلاء يوماً بعد يوم.

★★★

في القسم كانت المسكينة في حالة يُرثى لها، وحولها «آسيا» و«زينب» و«نغم» يحاولن التّخفيف عنها بمشقّة.

لم نكن نعرف أنّ «نورة» كانت خلفنا تماما، وما إن رأتني حتّى همست لي:

– أحتاجك في الإدارة لاحقا.

وراحت تواسيها محاولة كشف خيوط الموضوع.

– آه يا «ماما سوسو»، وجدت نفسي ضائعة بين أضلاع مثلّث، الأستاذ والقرار الذي أجهل فحواه، نظراته لي ومحاولة حديثه معي، ثمّ عدوله عن ذلك في آخر لحظة، و«سعاد» التي تريد استفزازي أمام الطلبة والطّالبات.

كنت ملقيةً رأسي على صدرها، أحاول إخراج ما تراكم في نفسي من ضغوط، ولا أدري كيف ارتبط مثلّث الإيقاع الذي كان الأستاذ يشرحه في الحصّة، بمثلّث الضّغط الذي وجدت نفسي محشورة بين زواياه.

– لاحظن هذا، سرعة اليد الظّاهرة في حركتها هي التي توحّدنا جميعا.

ورسم شكل مثلّث مع ضلع زائد في الهواء بيده اليمنى، ثمّ أردف وهو يقف:

– في اليد اليمنى الحركة الأساسيّة للوزن، وفي اليسرى مرآته، يعني أنّكنّ ترين في اليد اليسرى شكل الإيقاع الحقيقيّ الذي من المفروض أن ترسمنه أنتنّ في الهواء، تابعن دائماً حركة اليد اليمنى، لأنّها تقدّم سرعة الإيقاع التي يجب احترامها.

بدا كلامه واضحاً دون أيّ لبس، أمّا عند التّطبيق فالأمر يختلف من واحدة إلى أخرى.

عانت «ابتهاج» من معرفة الزّمن الصّحيح لتنخرط في الأداء مع المجموعة، مثل «فريال» التي كانت تحرّك لسانها اقتداء بالأخريات.

- لا ترضخن لضغط المثلّث، أنتنّ من تتحكّمن في زواياه.

يا ربّ السّماوات، كأنّها شيفرة وجّهها لي كي لا تنتبه باقي المنشدات.

19

تهديد خارجيّ

للاختبارات سمعة غير محبّبة.

فيفري 2016.

رسميّا بقيت اثنتا عشرة منشدة فقط، من بينهم أربع في مجموعة الإسناد، أنا و«سهيلة» و«حبيبة» و«حنان»، إضافة إلى «ابتهاج»، «إشراق»، «مليكة»، «نور الهدى»، «مريم»، «ليندة»، «بثينة»، «ليلى».

ولم يتبقّ على نهاية السّنة سوى ثلاثة أشهر، ولعلّ هذا ما دفع ببعض العضوات إلى توقيف كلّ الأنشطة اللاصفيّة، والتّركيز على دروس الدّعم، التي تنوّعت وزادت، وتضاعفت معها تكاليفها.

تقول «ابتهاج» إنّ بعض المنشدات تنقصهنّ الجديّة في العمل، لا تحضر الواحدة منهنّ إلاّ لأنّ صديقتها حضرت:

– هذه النّوعية من البشر تختفي في أوقات الفروض.

بينما تقول «إشراق» مضطربة:

– كأنّ رأسيهما في قلنسوة واحدة.

وتذهب «حبيبة» بعيدا:

– هناك من كانت تتطلّع إلى منصب «المنشدة الأولى».

– حمقاوات، هناك رئيس بلديّة واحد.

فتردّ عليها «إشراق» بالفرنسيّة وهي تنظر لهاتفها بلهفة شاردة:

– سيأتي «الرّادار» بآخر المستجدّات الدّقيقة.

كنّا في القسم ننتظر أستاذة الفلسفة التي تأخّرت كعادتها بسبب المواصلات، حتّى دخلت «ابتهاج» مسرعة وهي تتنفّس بمشقّة:

– مصيبة يا فتيات، مصيبة كبيرة.

خفق قلبي بسرعة، فيما التفّ حولها الجميع حتّى «إشراق» التي تدرس السّنة الثّانية لغات أتت من القسم المجاور مرحة، بعد تجاوز مشكلتها مع «نزيم»:

– ماذا هناك؟، هل قتلوا الدّوق «فليد»؟.

– لقد أرجع المدير توقّف بعض المنشدات إلى عناد الأستاذ، الذي رفض الرّضوخ لمطالبهنّ في إقحام آلات العزف.

قالتها وهي تشير إلينا أن نمنحها فرصة للكلام بعد انقطاع نفَسها.

لا أعرف كيف نطقت من فرط صدمتي دون تفكير:

– هل يجب أن يصنع خاتماً حسب قياس إصبع كلّ واحدة؟، تصرّفات...

قاطعتني «حنان»:

– لحظة «إلهام»، لا أرى مكمن خطر هنا، لن يستطعن فعل شيء له، هو أستاذ وله الحقّ في اتّخاذ أيّ قرار يراه صائبا، حفظه الله وسدّد خطاه.

– لقد وقّعن عريضة أرسلنها إلى مدير التّربية شخصيّاً كي يتدخّل.

– أرزاق الله متنوّعة، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله!.

هذه المرّة ضاعت بوصلتي تماما، فتساءلت ببراءة:

– من؟.

– يا إلهي، العضوات المتوقّفات، لماذا ترغمنني على إعادة الكلام مرّتين؟.

وربّتت «حنان» عليها مهدّئة بعد أن عادت من القسم المجاور باحثة عن الأخبار الطّازجة:

– لا أفهم عقليّة هذا المدير؟؛ أتى بنفسه ولمس تقدّم الفرقة بالأصوات فقط وبالإيقاعات، لماذا يريد الآن إقحام آلات العزف عنوة في الفرقة؟، هل يجب أن ننصاع لنزوات كلّ واحدة؟، هذا تصرّف لا يقوم به إلاّ وضيع، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

تابعت «ابتهاج» كلامها وقد استقرّ نفَسها قليلا:

– لقد قابل بعض المتوقّفات وقلن له بالحرف الواحد إنّهن توقّفن بسبب عدم استعمال الآلات، فراح يضغط على الأستاذ بشتّى السّبل، وخاصّة وأنّه أخبر مدير التّربية عن الفرقة ومستواها العالي، وهو يعتقد أنّ استعمال الآلات الموسيقيّة سيزيد من جماليّة الأداء.

– لكنّ الإنشاد لا يكون باستعمال آلات العزف الموسيقيّة.

– هو لا يأبه لهوية الإنشاد، المهمّ لديه أن يظهر بمستوى رفيع أمام المديريّة، بما يعنيه ذلك من ترقيات وأبّهة وفخامة.

قالتها «حبيبة» متأسّفة وغاضبة في نفس الوقت.

تساءلت وجلة:

– وماذا عن الأستاذ؟.

– أخبرتني المراقبة «نورة» أنّها رأته خارجاً من مكتب المدير متحسّرا.

– حفظه الله وسدّد خطاه.

أمّا «إشراق» فقالت بالفرنسيّة مغادرة، بعد أن دخلت أستاذة الفلسفة:

– مجمل القول سيكون في الحصّة التّدريبيّة.

ونظرت إليّ «ابتهاج» تنتظر منّي التّرجمة كعادهّا، هذا ما تصوّرته، غير أنّها صاحت رافعة قبضتها كأنّها تعطيني إشارة هجوم:

– «غريندايزر»... دمّرهم.

★★★

أمسية الثلاثاء...

كان النّقاش حامياً بيننا في المدرّج حول كيفيّة التّصرّف في التّحدّي الجديد، حتى دخل الأستاذ فجأة مسلّما، نكزتني «ابتهاج» بمرفقها لأسأله، كما شجّعتني البقيّة بإيعازات مختلفة على الخطوة التي ينتظرها جميعاً منّي:

– قبل البدء هناك موضوع يهمّني أن آخذ رأيكنّ فيه.

صرخت «بثينة» بسرعة وقد ملأ الذّعر عينيها البنيّتين الصّافيتين:

– نحن كلّنا معك أستاذ، وإذا توقّفت سنتوقّف جميعاً عن الدّراسة.

قال وقد بدا حائراً في سرعة وصول الخبر إلينا:

– ليس إلى هذا الحدّ «بثينة»، دراستكنّ أهمّ من الفِرقة.

– إذا توقّفت أستاذ فسأتوقّف عن الدّراسة.

وكرّرت عبارهّا مرّتين، بنبرة تحدٍّ وقتال، وبعينين تعمّدتا التّصغير، فالتفتت إليها «نور الهدى» باستنكار واستغراب مخفّضة رأسها، كأنّها تعرف شيئاً تريد الاحتفاظ به سرّا.

قلت بإصرار:

– لا يجب أن تضيع جهودنا سدى أستاذ، نحن الآن على بعد خطوات فقط، أننكث غزلنا من بعد قوّة؟.

ساندتني «حنان» بهزّ رأسها إيجابا، مع «حبيبة» التي استغلّت ثورة الحماس المتولّدة في الجماعة:

– يجب الحفاظ على المبادئ مهما كلّفتنا من تضحيات، لماذا تسمّى مبادئ إذا كنّا نستسهل التّخلّي عنها؟، نحن هنا أستاذ... معك إن شاء الله.

– أقدّر تدخّلكنّ، لكنّ المسألة حسّاسة، ويجب التّعامل مع الوضع بحكمة وتريّث.

– سنؤجّج الوضع أستاذ، وسنعتصم هناك أمام باب الثّانويّة.

وأشارت بسبّابتها بعيداً نحو البوّابة الرّئيسة مستطردة:

– ليس هذا فقط، سندخل في إضراب عن الطّعام، الجوع ثمّ الجوع، إلى غاية تحقيق مطلبنا.

نظرنا نحو «بثينة» مشدوهين من جرأتها المتنامية.

في الواقع، يسهل استفزاز «ابتهاج» كلّما تحدّث أحدهم عن الطّعام، فهمست وهي تنظر ناحية «إشراق»، متلافية مواجهتها:

– ماذا تقول هذه المجنونة؟، كلّ الإضرابات لا إشكال لي معها، إلاّ الإضراب عن الطّعام، لا أفهم لماذا ابتكروه؟.

ثمّ انطلقت في ترديد شارة إحدى الرّسوم المتحرّكة بكلّ حماس:

– لن نهاب، فحلمنا أقوى من الصّعاب، سيجعل الأشرار يختفون كالسّراب... أمامنا نحن المدافعون.

ضحكنا وانتظرت أن يضحك.

اكتفى بابتسامة كاشفاً عن أسنان بيضاء متراصّة في فكّ قويّ، وكاشفاً عن معادلة صعبة في نفس الوقت، يحاول حلّها ديبلوماسيّاً من أجلنا نحن، ومع هذا وددت لو ابتسم لكلامي بدل ابتسامه لكلامها، وراحت الغيرة تداعبني، وشردت هنيهة حتّى نطقت «مليكة» بالفيصل:

– أستاذ، لقد أعطت الطّالبات المتوقّفات فكرة خاطئة للمدير؛ لأنّهنّ لم يجدن ما يقدّمنه حجّة لتوقّفهنّ.

هنا بالضّبط، انتهزت الفرصة لأشدّ انتباهه نحوي:

– إذن سنبرهن لهذا المدير على مستوانا الحقيقيّ، لنجعل صمتنا يتحدّث... لندع نجاحنا هو الذي يحدث الضّجيج، يبدو أنّه لم ير شيئاً بعد، هذه فرقتنا وهذا ما نملكه، وعلينا حمايتها، أليس كذلك يا فتيات؟.

– هيّا طر يا «غريندايزر».

صاحت بها «ابتهاج» لتنفجر كلّ العضوات ضحكاً من جديد، إلاّ أنّ الأستاذ لم يبادلهنّ الضّحكات، فاستولى عليّ شعور خانق.

وبينما أنا غائبة في قسمات وجهه الحانية، التقت عينانا مجدّداً... تماماً مثل المرّة الأولى... ويا ليته لم ينظر.

على حين غرّة... لمحت عرَضاً «مليكة» تحاول قراءة أفكاري.

★★★

في تلك اللّيلة، بقيت ساهرة حتّى ساعة متأخّرة، تأسرني الأحلام الورديّة.

تذكّرت جارنا الميكانيكيّ الذي لا يعرف حتّى كيفيّة كتابة اسمه، قارنت بينه وبين هذا الذي عرفته منذ خمسة أشهر فقط، وبات يجذبني أكثر من المغناطيس، في كاريزما تثير الولاء والحماس.

ثمّ قلت في نفسي وقد أخذ منّي التّفكير واليأس كلّ مأخذ:

– يا لي من غبيّة؛ هل يمكن أن ينظر إلى واحدة مثلي؟.

20

الإنذار

لم أكن أعرف أنّ أمّي هي السّور المحيط بكلّ العائلة، ويجب أن يبقى سور حمايتنا إلى الأبد.

غابت «مريم» عن الثّانويّة خمسة أيّام متواصلة دون أيّ خبر عنها، ممّا جعلنا ننسج ألف قراءة وتأويل، فهي طالبة مجتهدة، تعلوها الجديّة والصّرامة واحترام المواعيد، هاتفها النّقال مغلق، ولا جيران قريبين منها.

فكّر الأستاذ في إرسال إحدانا إليها، كي تأتينا بالخبر اليقين:

– يجب علينا أن نتأكّد ممّا يحدث، لقد غابت عن الفروض، واختبارات الفصل الثّاني على الأبواب.

قالها وهو واقف أمام مكتب الإدارة، وبين أصابعه قلم يقلّبه في حركة آلية.

– أنا أستاذ... لا تقلق، دع الأمر لراداري.

هاتفتني «ابتهاج» في تلك اللّيلة لتعلمني بعبارات حزينة أنّ أمّ «مريم» في حالة حرجة، وأنّها ستظلّ غائبة لملازمتها حتّى يزول الخطر عنها نهائيّا، حتّى لو حُرمت من امتحانات الفصل الثّاني، وانتشر الخبر يوم الخميس حين نُشر إعلان بشأنها في صفحات التّواصل الاجتماعيّ؛ مفاده أنّ أمّ إحدى الطّالبات في المستشفى، في حالة حرجة، وهي في أمسّ الحاجة إلى الدّعاء، وزادت وساوسي وذعري بشأن أمّي، متذكّرة ما قالته لي مؤخّرا:

– أريد الاطمئنان عليكِ قبل أن أنتقل إلى الأعلى.

لا أعرف كنه ما انتابني حتّى وجدت نفسي أبكي في حرقة شديدة، متخيّلة أنّها ستدخل المستشفى في حالة مشابهة لحالتها، وسأقف طويلاً أمام سريرها داعية الله أن يشفيها لي، وأعده ألاّ أغضبها مجدّدا.

تذكّرت أنّي أغضبتها عندما انضممت للفِرقة في سبتمبر الماضي، فاستيقظت باكراً قبل الفجر، لأجدها هناك في المطبخ تجهز الفطور كعادتها:

– أرجوكِ ماما، عديني ألاّ تموتي، عديني ألاّ تتركيني وحيدة.

– الأعمار بيد الله؛ ما هذا الجهل الذي أنتِ فيه؟، كيف أعدكِ بشيء لا أملكه؟!.

ثمّ نظرت لي في توسّل:

– «إلهام» حياتي، أشتاق لرؤية أولادكِ قبل أن أموت؛ أنتِ وأختكِ «صفاء».

تلقّيت سهاماً في كلّ شبر من جسدي... افترستني الظّنون، فقلت وأنا منهارة:

– أمّي لا يجب أبداً أن تموتي، أتفهمين كلامي؟.

قاطعتني بعنف:

– أستغفر الله؛ «كلّ من عليها فان، ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام»، من أنا حتّى أخلد؟، وهل خلد الأنبياء؟.

– أمّي سأقول لكِ شيئاً لأوّل مرّة، اسمعيني فقط... أرجوك.

أوقفت كلّ ما كانت تقوم به ورجعت خطوة إلى الخلف، وبقيت تنظر إليّ ساكنة متيقّظة الحواسّ، كأنّ لها مائة عين، كلّها موجّهة صوبي، فقلت منهارة:

– أستاذ الإنشاد...

قاطعتني بحزم وتلهّف في جملة واحدة:

– هل يريدكِ للزّواج؟ هل صارحكِ بذلك؟ أم مجرّد....

دخل «أيّوب» يجري خائفاً ينادي:

– أمّي أمّي ستقتلني هذه المجنونة.

واختبأ محتمياً بها.

– تعال هنا؛ أقسم بالله أنّي سأوسعك ضرباً كي تبتعد نهائيًا عن «لوكا»، حذّرتك مراراً وتكرارا.

– لماذا تكرهين كلّ القطط؟.

– ولماذا لا تسألها؟.

وانشغلت أمّي في معالجة مشكلتهما، فانسحبت من المطبخ بسرعة مستغلّة الموقف، وأنا ألوم نفسي على تسرّعي المفاجئ، آخذة تفاحة كبيرة حمراء اللّون كانت أمامي في سلّة الفاكهة.

21

هروب «بثينة»

أوّل مرّة أصارح أمّي بما يجول في صدري، ربما كنت مرعوبة جداً من فقدانها، وأنا المتكتّمة التي أبوّب دفائني ضمن تصنيف «سرّي للغاية»، رغم أنّ خالتي هي الوحيدة التي تشجّعني على سرد كلّ مكبوتاتي بدل أرشفتها، والسّرد ينشئ تعاطفاً من نوع خاص.

صحيح أنّ «ابتهاج» صديقتي الحميمة، لكنّي آثرت ترك أحاسيسي تجاه الأستاذ هذه المرّة لنفسي، وكأنّني بذلك أخلص في حبّي له، بعد أن رأيت نظرات أستاذة الكيمياء الحانية الحالمة ذات الشّعر الأصفر أثناء حديثه مع المدير، ثمّ عرفت أنّها تتقرّب منه، لذلك خشيت أن ينكشف سرّي، والغيرة مصيبتنا نحن النّساء.

تقول «ماما سوسو» إنّ الخجل والحياء شيئان متشابهان ومختلفان، لكن عندما يحمرّ وجهي، هل هناك متّسع للتّساؤل عن نوعيّة هذا الاحمرار؟.

خرجت أمّ «مريم» من مرحلة الخطر، وتوقّفنا نحن عن التّدريبات تحضيراً لاختبارات الفصل الثّاني، ووجدت نفسي أمام تحدّ آخر؛ المحافظة على وعدي الذي قطعته لخالتي للمرّة الثّانية على التّوالي، مهما كلّفني من ثمن.

ودعوت الله أن يوفّقني كما وفّقني من قبل.

أقبلت على التّحضير المكثّف مع «ابتهاج»، المراجعة وزيادة دروس الدّعم حتّى انتهى كلّ شيء وأُعلنت النّتائج، بنفس المعدّل الأوّل تقريبا.

على يقين أنا دائماً أنّ تفوّقي في دراستي سيفتح لي أبواباً كثيرة، على الأقلّ سيجعل قدمي ترسخ أعمق في الفِرقة، بعد أن صنعت فيها موطئاً فسيحاً لذاتي.

غير أنّ الرّياح لا تجري دائماً كما تشتهي السّفن.

سهرت في متابعة فيلم رومنسيّ، فتأخّرت كثيراً عن النّهوض في ذلك الصّباح البارد من أيّام الإثنين، ولحسن الحظّ أنّهم أعلمونا مسبقاً أنّ أستاذة الأدب العربيّ ستغيب أيّاماً بسبب زكام طارئ.

لذا فقد أخذت وقتي كلّه في النّوم، وما أفعل إذا كانت حصّتي الأولى تبدأ على السّاعة العاشرة بمادّة اللّغة العربيّة، والثّانويّة على مسافة تغريني بالوصول قبل انتهاء صوت قرع الجرس، لو انزلقت من الفراش.

هكذا همّياً لي وأنا أقاتل النّعاس.

خرجت مسرعة خشية التأخّر أكثر، فتمنعني الأستاذة من الدّخول، كونها لا تتسامح مطلقاً مع المتأخّرين مهما كانت أعذارهم، وكم أعادت علينا عبارتها الشّهيرة:

- إذا أغلقت الباب، لن أقبل أن يفتحه أيّ أحد بعدي، حتّى لو كان المدير شخصيّا.

تعلّق «ابتهاج» ساخرة:

- طبعاً لأنّ لديها سيّارة.

- أنتِ أيّتها الطّالبة... ما بها سيّارتي؟.

وتنفلت منّا تحت الطّاولة ضحكات تأبى الكتمان.

تتفرّس فينا بنظرات تحذيريّة:

- تجدن كلامي مسلّياً؟، سأصادر أيّ هاتف أسمع رنينه ولو كان منخفضا، احذرن منّي فأنا أسمع دبيب النّملة، أنا لا أمزح.

★★★

ما إن دخلت السّاحة حتّى سمعت كلاماً غريباً يدور بين الطّلبة، الذين كانوا في فترة الاستراحة الصّباحيّة.

أشارت إليّ «نور الهدى» من بعيد أن أقترب بسرعة.

كانت مع «ابتهاج» و«ليندة» و«حنان» و«مليكة»، في زاوية قصيّة من السّاحة، بعيدة عن الرّياح الباردة التي كانت تهبّ منذ ليلة البارحة:

- هل سمعتِ الجديد؟.

سألتني «ابتهاج» كعادتها معتزّة بذبذباتها التي تلتقط كلّ متحرّك.

- لا، قدمت الآن من المنزل، خيراً إن شاء الله.

- «بثينة» هربت من البيت.

- ماذا؟، مشاكل عائليّة دون شك؟.

فانفجرت «مليكة» في وجهي:

- ذهبت إلى منزل أستاذ الإنشاد البارحة، والثّانوية الآن بركان، لا دراسة ولا هم يحزنون.

على الفور، أردفت إحداهنّ:

- سيستدعي المدير قوّات مكافحة الشّغب إذا ساء الوضع، بعض معيدي السّنة يريدون استغلال الوضع لإثارة الفوضى.

ارتفعت بي الأرض وانخفضت، ثمّ تراخت ساقاي واسودّ كلّ شيء في عيني، بعد لحظات وجدت صديقاتي متحلّقات حولي، وبيد «ابتهاج» قارورة عطر نفّاذ الرّائحة.

– ما بك؟، لقد فقدتِ الوعي لدقيقة.

لم أجد ما أجيب به «ليندة»، ثمّ تذكّرت أنّي أخرجت العسل وأنا أنظر للسّاعة، وحين أدركت أنّي سأتأخّر تركته على المائدة، ومددت يدي كعادتي لحقيبتي التي تحوي بعض الشّوكولاتة.

بعد دقيقتين استعدت نشاطي كاملا، لأتفاجأ بوجود المراقبة «نورة» أمامي تسأل عن صحّتي.

قالت إنّ هناك من أخبرها أنّ «إلهام السّوبرانو» سقطت مغشيّاً عليها، فأتت لنجدتي، ولّما اطمئنّت على صحّتي، عادت للإدارة، وبدأت «ابتهاج» في سرد القصّة.

خوف عارم تملّك «بثينة» بعد تهديد شقيقها لها بالويل إذا أحرزت نتائج ضعيفة في الفصل الثّاني، إذ اعتقد أنّها هجرت الدّراسة واتجهت إلى الغناء، وأصمّ قلبه قبل أذنيه عندما حاولت إقناعه بشتّى الوسائل:

– ولدتِ البارحة فقط وتحاولين إقناعي أنا ابن الأربعين.

وراحت تقلّد صوته الذّكوريّ باستهزاء.

– ما هذه الفظاعة؟.

– اصمتي «ياسمين» ودعيني أكمل... من فضلك.

كانت «بثينة» تأتي خفية للحصص التّدريبيّة زاعمة لأمّها أنّها تحضر دروس الدّعم في بيت إحدى الأستاذات، ثمّ انكشفت كذبتها عندما تحصّلت على نتائج ضعيفة في الرّياضيّات، إذ ذهب شقيقها مستفسرا، فلم يجدها في العنوان الذي تأكّد بنفسه سابقاً منه، فثار كالثّور الهائج، وضربها ضرباً مبرحا، حتّى أوشكت أن تهلك من فرط ما بها من جروح وكدمات، ثمّ أتى إعلان النّتائج ليزيد الطّين بلّة، فما كان منها إلاّ أن هربت باكية مستنجدة بالأستاذ، وهنا تعقّد الموقف أكثر، حيث بدأت الشّائعات تطاردها، وتطارد الأستاذ معها.

– تذكّرت الآن، سألتها عن سبب الكدمة التي على صدغها، فقالت إنّها انزلقت أثناء اغتسالها.

هذا ما أسرّت به «ياسمين» في أذني وهي تنظر ناحية الإدارة.

– علاقة حبّ، لذلك هربت إليه، حبيب القلب عازف «البيانو».

وهذا ما تلفّظت به «مليكة» وهي تنظر مستنكرة تجاه «نور الهدى»، التي واجهتها بدورها بنوع فريد من الحقد:

– الماكرة!... عرفت من أين تُؤكل الكتف، سيتزوّجان هذا الصّيف، استراحت من عناء الدّراسة وضمنت زوجاً وسيماً في ريعان شبابه، لديه سيّارة وبيت ومستقبل عريض، أنا جارتها وأعي جيّدا ما أقول.

وراحت تنظر ناحية قاعة الأساتذة بحقد تجلّى على شفتيها الرّفيعتين، وهي تفرك عينيها، كالتي تتحقّق من المشهد.

ثمّ تدخّلت «ليندة» بحسرة:

– باعت نفسها من أجل ملذّات الدّنيا الفانية.

– اتّقين الله يا بنات، إنّ بعض الظّنّ إثم، دعوكنّ من هذا الكلام الذي لا أدلّة عليه، من أين أتيتنّ بهذه الأفكار الشّيطانيّة؟.

– ما بكِ يا «حنان»؟، هل أنتِ ضريرة؟، أرأيتِ كيف كانت خائفة من استقالته بعد المشكلة التي حدثت مع المدير مؤخّرا؟... أأذكّرك؟ أأذكّركنّ؟.

وراحت تتفرّس فينا جميعا، الواحدة تلو الأخرى، فالتصقت عيناي بعينيها:

– صحيح، هدّدت بالتوقّف عن الدّراسة لو توقّف هو عن العمل.

قلت هذا في نفسي وأنا أعضّ على شفتي.

– آآآه «سوبرانو»، لم أرك منذ زمن.

فعاجلتها «ابتهاج»:

– دعينا الآن «سعاد».

– على رأيك، الثّانوية كلّها منشغلة بالفضيحة.

ونظرت إليّ باستفزاز، ثمّ رفعت يديها قائلة وهي ترسم ملامح الأسف على وجهها:

– سيُطرد شرّ طردة، هل هذه أخلاق الأساتذة؟... اللّهمّ لا شماتة.

أستعجل الزّمن لأغادر بسرعة هذا المحيط السّامّ، وكدت أفقد وعيي مجدّدا.

22

إعصار «باتريسيا»

احتدم النّقاش في منزلنا.

وجدت نفسي أحكي لخالتي كلّ شيء، بعدما ارتميت في حضنها الدّافئ على الأريكة، وحين دخلت أمّي، أعدت لها كلّ ما حدث من البداية، وأنا منهارة تماماً، كالهائمة في قيض الصّحراء، وزادت «صفاء» من قسوة آلامي بقولها ضاحكة دون مبالاة بأحاسيسي:

– إنّه الحبّ، ما بكِ «سوبرانو»؟، هل يحتاج هذا إلى دليل؟، الحبّ والعطر لا يختبئان.

وراحت تصفّق بيديها متمايلة في حركة إيقاعيّة.

– أيّ حبّ؟... هل من المعقول أن نثق في أحاسيس الأطفال؟.

هذا ما ألقت به أمّي أمامنا، ثمّ واصلت في اطمئنان تامّ:

– لا تنجذبي نحو الشّائعات، ألسنة النّاس مخلوقة دون عظام، تتحرّك في الهواء أكثر من تحرّك السّمكة في الماء... هناك دائماً من يحبّون الصّيد في الماء العكر.

فأردفت خالتي وهي ما زالت تحضنني بذراعيها:

– بصراحة، «بثينة» مجنونة، وضعت الأستاذ في مأزق حقيقيّ بتصرّفها المتهوّر، لو ذهبت إلى منزل إحدى قريباتها لكان أسلم لها وأطهر، الرّجل أعزب يا ناس، ولو كان له مسكنه الخاصّ لكانت فضيحة القرن.

ثمّ فجأة انتبهت أنّ أمّي منزعجة من الموضوع غير أنّها تحاول إخفاء شيء ما، ولمّا أراد «أيّوب» التّطفّل كعادته طردته، بنبرة اجتمع فيها الشّرود مع نوع من الغضب الخفيف:

– اذهب لتلعب الغمّيضة مع أصدقائك، ولا تتدخّل في شؤون الكبار.

– أريد أن أسمع شارة «أنا...

قاطعته:

– يا أحمق، لدينا ما هو أهمّ من شارتك، اخرج، ولا تنسَ غسل أسنانك قبل النّوم.

وخطرت لي خاطرة:

– يا إلهي، هل يمكن أن تكون مغرمة...

و لم أستطع إكمال الجملة.

★★★

شكّل هروب «بثينة» قضيّة رأي عام، لفترة بدت لي أنّها أخذت حجماً أكبر من حجمها الطّبيعيّ، فباتت حديث الأساتذة وعمّال الإدارة، والمدير صاحب البطن الكبيرة، الذي أراد استغلال الفرصة وطرد الأستاذ، فيما يبدو لسبب وجده منطقيّاً أكثر من معادلة 1 + 1 = 2.

أمّا «سعاد» فراحت تثير القلاقل من حوله والفتن، ناسجة قصصاً وحكايا لا يصدّقها عقل.

زعمت أنّهما متزوّجان سرّاً منذ أكثر من عامين، وينتظران مولودا، وأنّهما يخطّطان للهروب إلى أوروبّا عبر قوارب الهجرة غير الشّرعيّة، وأنّ الأستاذ وعدها هناك بقصر في «بيرمنغهام».

بينما بدا الأستاذ هادئاً جدّاً في الحصّة.

رأيته صبيحة الخميس حين نزل من سيّارته، ومشى في السّاحة أمامنا متوجّهاً نحو الإدارة، هادئاً هدوء البحر، صبيح الوجه، متعجّباً من الجمع الرّهيب الذي كان يتفرّس فيه من النّوافذ.

– انظروا إلى الأستاذ، والله لو كان قد فعل شيئاً يُغضب الله لتوتّر واستقال فورا.

ونظرت في عينيها مليّا، هذه الصّديقة التي تسمّى «حنان»:

– أعتقد أنّ هناك سوء فهم ما، و«سعاد» استغلّت الموقف لصالحها، لأنّه رفض منحها منصب «المنشدة الأولى»، هل تتذكّرن؟.

ووجدت نفسي أصدّقها.

– لقد طلبت أمّ «بثينة» من إمام المسجد التّدخّل لاحتواء الموقف، عندما هدّد شقيقها بقتلها، وبدأت الأمور تتطوّر لتخرج عن السّيطرة.

لا أعرف كيف استطاعت قول كلّ تلك الكلمات، وهي تتناول أمامي ما بقي من البيتزا.

★★★

– ماذا يحدث لديكم في الثّانويّة؟.

سأل الطّاهي صاحب الوجه المستطيل من وراء لوحة الغرانيت، وهو يهمّ بتناول المجداف الذي يدفع به القرص نحو الفرن.

لم أتمالك حبس دموعي، فتظاهرت بتحسّس أصابعي من برودة الطّقس، فقالت «ابتهاج»:

– إنفلونزا؟.

أخرجت منديلي الورقي وأنا أهمّ بالمغادرة، فأشارت إلى الطّاهي أن يسجّل لديه ثمن ما تناولناه.

– آآآه «سوبرانو»!، هل أنتما منصرفتان؟.

ونظرت إليّ بشماتة.

– اتركينا «سعاد»، لدينا حصّة ستبدأ الآن.

– هل سمعت عن الإعصار الذي ضرب ثانويّتنا؟.

قالتها متعمّدة رفع صوتها وهي تخاطب الطّاهي الذي استسلم تماماً لكلامها، كما التفت إليها بعض المارّة، من شباب الحيّ وبعض الطّلبة الجامعيّين، فبدا الموقف كتجمع من الإعلاميّين ينتظر منها تصريحاً رسميًا.

هنا... زمجرت بغطرسة، مستغلّة العيون المتسمّرة، والأعناق التي اشرئبّت إليها:

– أساتذة آخر زمن، لا أخلاق ولا هم يحزنون.

فنطق أحد الكهول المتحذلقين من طاولة بعيدة بصوت أجشّ:

– أصبحنا مثل «أمريكا»... على الأقلّ هم متقدّمون علينا بمسافات ضوئيّة.

فردّت عليه:

– أرأيت يا عمّي؟، أستاذ مثل هذا يلطّخ سمعتنا، يجب أن يُطرد نهائيّاً من التّعليم.

كدت أصفعها، لولا أنّ «ابتهاج» ضغطت على ساعدي هامسة، وهي تنظر نحو إحدى الطّالبات التي لزمت مكانها تنصت باهتمام:

– لا تسمحي لها باستفزازك، هي الآن في أوج قوّتها.

أمّا «ماما سوسو»، فكم كانت عباراتها تريحني صباحاً، وأنا أستعدّ مرغمة على الذّهاب إلى الدّراسة:

– لا تتركي الشّيطان يتلاعب بعقلك، ثقي في الله يا «إلهام».

– أنا متأكّدة من أخلاقه... أنا أعرفه من يكون.

وتحضنني تصديقاً للكينونة.

ليلتان وأنا أتضرّع لله قائمة ألاّ يخيّب رجائي، أنا الفتاة المسكينة التي يتمزّق قلبها ألماً كلّما نما إلى سمعي أنّه صاحب مغامرات نسائيّة.

أتى مساء الجمعة بموقف جليّ، حين التقت أمّي بجارتهم «طاطا عائشة» في عرس إحدى القريبات:

– تُمدح الأفعال بضبطها، و«بثينة» تهوّرت.

هذا ما افتتحت به أمّي كلامها، وهي تستعدّ للجلوس على إحدى الأرائك المنجّدة في الصّالون الفسيح.

23

نزاهة القاضي

– المراهقة مرحلة استراتيجيّة، قد تتغيّر فيها الاتّجاهات والمعتقدات مائة وثمانين درجة.

بعبارة أقرب، غمزت لي بها «ماما سوسو»، وتبقى العبارة الأصليّة موجّهة ضمنيّاً إلى أمّي.

لا أحتاج إلى إعادة ترتيب صورة ما حدث في ذهني؛ فقد كنت واثقة من مصداقيّة مركز الإصغاء.

أمّا المسكينة «بثينة»، فقد كانت تحتاج شخصاً تواجهه بما تخبّئه في صدرها من مكبوتات، خاصّة بعد صدمة وفاة أبيها، فهل ذنبها أنّها تعيش داخل أسرة فُقدت فيها تحيّة الصّباح والمساء كأبسط جسر للتّواصل؟.

بيت تمزّقت روابطه بمرض أمّها المفاجئ، فأضحت بين عشيّة وضحاها تعاني الضّغط والسّكري، كما وجد شقيقها نفسه المسؤول الوحيد عن إعالتهما، بعد اضطراره للتّخلّي عن مواصلة دراسته.

عثرت «بثينة» على ملجأ آمن؛ أستاذ طيّب، بكلّ ما تستطيع الكلمة حمله من معنى، فعكفت على التردّد على الفِرقة، التي طالما اعتبرتها بيتها الثّاني، وبرّ النّجاة.

وكلّما أرادت مغادرتها تذكّرت طيبته وعطفه علينا، فشُقّ عليها الأمر، لكن حين غيّرت أستاذة الرّياضيّات توقيت حصّة الدّعم بسبب حالتها الصّحيّة، وجدت نفسها فجأة بين المطرقة والسّندان، فلجأت إلى الكذب؛ وسيلة هروب مؤقّتة إلى الأمام.

لهذا بدا عليها القلق والتّوتّر في الآونة الأخيرة، حيث كانت تخشى أن يأتي شقيقها للثّانويّة متفقّدا، فيجدها في حصّة التّدريبات معنا.

غير أنّ نتائجها الضّعيفة في اختبارات الفصل الثّاني... كانت الشّرارة التي فجّرت كلّ شيء.

– هذا كلّه بسبب لا مبالاة الوالدين بما تعيشه ابنتهما المراهقة، هل تعلمين أنّه كان يريد تركيب كاميرا في غرفتها؟، هذا ما أخبرتنا به جارتهم.

تعجّبت أمّي:

– ألهذه الدّرجة؟!.

صعقتني كلمات «ماما سوسو» التي حملت نبراتها رنين التّحدّي، وهي تتأمّل فنجان القهوة الذي أمامها.

– لديها شقيق صعب.

عبارة أحسست أنّي أخاطب بها شخصاً آخر.

فأكملت وهي تنظر ناحية أمّي:

– المراهقة ليست كذبة، بل هي مرحلة عمريّة يصل إليها الإنسان مثلما يصل إلى مراحل عمريّة أخرى، لماذا نحرص قبل شيخوختنا على مرتّب التّقاعد حرصنا على وجود الأبناء من حولنا؟، المشكل أنّ للشّيخوخة ملامح جليّة لا تستدعي إقناع الآخرين بها، عكس هذه السّنّ الحرجة، هذا كلّ ما في الأمر.

أفرغت أمّي كل ما في جعبتها من كلام، وهي الآن لا تملك سوى استجداء كلمات خالتي.

ثمّ نطقت فجأة مكملة سرد ما حكته لها «طاطا عائشة»:

– ...وراح يصرخ بصوت كقصف الرّعد، ضارباً الباب بقبضته القارعة، مزلزلاً كلّ أركان البيت، ثمّ خرج مبتعداً يكلّم نفسه، مستغفراً الله حتّى تلاشى صوته.

كنت أستمع لحديثهما كدمية قماشيّة لا حول لها ولا قوّة، ثمّ انتبهت بعد فترة لما يدور حولي.

كانت «صفاء» وجدّتي جالستين بجانبي على الأريكة.

من فرحتي، نهضت وسجدت له تعالى أمامهنّ، وأيقنت أنّهن يحدّقن بي وأنا أتسلّل لغرفتي في خفّة القطّة.

يبدو الآن أنّ سرّي قد علم به كلّ من في البيت وتأكّد.

★★★

في عطلة الرّبيع عدنا للتّوقيت السّابق وضبطنا كلّ ما يتعلّق بالأناشيد، في انتظار حصّة وحيدة أخيرة بعدها، ثمّ يتوقّف كلّ شيء، حسب ما أعلمنا به الأستاذ، إلى غاية الانتهاء من امتحانات آخر السّنة، وامتحانات «البكالوريا».

بذلك، نضمن سيراً حسناً بما يتناسب مع الظّروف العامّة للدّراسة.

كان قد مرّ من وقت الحصّة أقلّ من ربع ساعة، حين دخل المدير ومعه خيّاطة، لم يترك عبارة معروفة للمدح إلاّ وأثنى بها عليها أمامنا.

غير أنّها لم تنطق ببنت شفة، بل شرعت في أخذ قياساتنا صامتة بوجه بارد برودة شهر ديسمبر.

انتظر المدير أن تردّ بمجاملة ما على مدحه المثير، ثمّ قال يائساً منها:

– أنا عند وعدي أستاذ، سأوفّر لك لباساً موحّدا، كي لا تتّهمني بالإهمال، وإنّي...

قاطعه:

– لا يجب أن يضيع الوقت، هذا كلّ ما قصدته البارحة، أرجوك سيّدي المدير، لا تقوّلني ما لم أقله.

فسارع إليه آخذاً بيده ناحية الباب، موشوشاً في جديّة متطرّفة:

– لا لا... العمل عمل، وأنا معروف في مديريّة التّربية بانضباطي الصّارم وسرعة استجابتي، سل عنّي أيّ مفتّش، أو مستشار... أو أيّ عامل بسيط، كلّهم متّفقون على نزاهتي وشجاعتي الفريدة في اتّخاذ القرارات.

ثمّ اقترب منه هامساً في أذنه:

– كنت محاميك في مديريّة التّربية.

انفجرت «ابتهاج» ضاحكة تحت الطّاولة، وتبعتها باقي العضوات اللاّتي كنّ ينتظرن دورهنّ في أخذ القياسات.

– على كلّ حال بارك الله فيك وفي أمثالك، أرجو أن تأذن لي.

وتركه ليتوجّه إلينا بالحديث وهو يعيد ارتداء قفّازيه:

– اتّفقن على لباس موحّد؛ أنتنّ راشدات بما يكفي.

هنا تدخّل المدير بعينين لامعتين:

– تنّورات حمراء، ستزيدكنّ جمالا، ستتألّقن كالبدر.

وراح ينظر إلينا بمكر متقنّعاً بابتسامة صفراء.

– أرجوك سيّدي المدير... أرجوك لا تتدخّل.

– عفواً على كلّ حال، أنا أحاول المساعدة.

وراح يتضاحك ناظراً إلينا، ثمّ تظاهر بردّ وهميّ على مكالمة طارئة فارّاً بجلده.

اتّفقنا على حجابات بيضاء، مع خمارات بنفس اللّون، مزركشة بزخرفة نباتيّة ذات لون أسود، بالإجماع، في شفافيّة تامّة، مع شريط أسود يمتدّ من أعلى الكتف الأيمن إلى يسار البطن، كُتب عليه اسم فرقتنا «أوميغا»، بخطّ ذهبيّ عربيّ أصيل، زاده البياض تألّقا، ومن المفروض أن توفّره لنا الإدارة قبل تاريخ الحفل المقرّر في الرابع من جويلية 2016.

في تلك الحصّة نظر إليّ، وكأنّه يخاطبني، أنا وحدي الموجودة أمامه:

– كلّ شيء مقدّر لنا قبل أن نُخلق، يقول تعالى: «وتلك الأيّام نداولها بين الناس»، أمّا ما نفعله، فلا يتجاوز كوننا نحاول تعزيز أقدارنا فقط، تذكّرن هذا جيّدا، لأنّكنّ ستحتجن لهذه الفلسفة في حياتكنّ، راقبن الله في تصرّفاتكنّ كي لا تحتجن لتبرير أيّ شيء أمام النّاس، واتقينه تعالى دائماً وإيّاكنّ والغفلة، اخجلن من الله عزّ وجلّ وراجعن أعمالكنّ معه... لا يغرنّكنّ حلمه.

ثمّ جلس، كأنّه يعاني ممّا يشبه التّعب، وواصل بثقة:

– ديننا كامل عكس كلّ الأديان الأخرى، أمّا العلم فهو ناقص، ويبقى ناقصاً مهما قفز إلى الأذهان أنّه اكتمل.

كانت أعيننا ملتصقة بوجهه، لا تنحرف عنه مقدار ملّيمتر واحد، فراح يكمل مستغلاًّ تركيزنا الشّديد:

– ومع هذا فنحن مطالبون جميعنا بطلبه إلى اللّحد، العلم الشرعيّ وسائر العلوم المفيدة للبشريّة، في آن واحد، تذكّرن هذا جيّدا، العلم الشّرعيّ وحده دون العلوم الدّنيويّة الأخرى لن ينفع، والعلوم الدّنيويّة وحدها دون العلم الشّرعيّ لن تنفع.

وأحسست أنه يكرّر الكلمات عمدا.

– تذكّرن أنّ أوّل آية نزلت في القرآن الكريم هي «اقرأ باسم ربّك الذي خلق»، الإنشاد رسالة، ولا يمكن أن تنجح الرّسالة دون معرفة ما يكتنفها من غموض، وما يحيط بها من ملابسات، إنّه العلم بدوائر المعرفة المنظّمة المتداخلة المحيطة، التي تمثّل سنن الله في الكون، نحن نحاول –منذ نزول آدم إلى الأرض– أن نتحكّم في العلم، ورغم ذلك، فإنّ التّحكّم لا يعني الغرور والتّطاول على الله وقضائه، قضاء الله نافذ فينا، مهما توهّمنا أنّنا نتحدّى هذا القضاء، بتحكّمنا اللاّمتناهي في متغيّراته.

كأنّها خطبة مودّ ع.

يقول إنّ الإنشاد رسالة؟.

جميع أساتذة الموسيقى ينظرون إلى الإنشاد كونه لا يعدو أن يكون طربا.

ثمّ تهيّأ لي ما أكّدته «ابتهاج» لاحقاً أنّه درس يقدّم مجّاناً للشّلّة التي تحدّثت عنه بسوء.

قلت والحزن يتولاّني:

– ألا تتراجع أصواتنا أستاذ؟، ألا تنهار؟.

– لا بأس «إلهام»، ليس لدينا خيار آخر، دراستكنّ أولى عندي من كلّ شيء.

وأفحمني جوابه.

ثمّ نكزتني «ابتهاج» هامسة:

– انظري إليهنّ الآن، منكّسات الرّأس، يخجلن حتّى من النّظر ناحيته، ببغاوات، لا يعرفن شيئاً سوى تناقل الإشاعات المغرضة، دون أسس، وتقول متبجّحة إنّها جارتها، وتعي جيّداً ما تقول، انظري... البريئة... يا عمري.

وهزّت رأسها ناحيتهنّ بأسلوب استفزازيّ، وهي تتناول شريحتين من البيتزا وضعتهما فوق بعضهما البعض، كانت قد أبقتهما معها احتياطا.

وعاد المدير للمرّة الثّانية، وخلفه طالبة نعرفها جيّداً من لون شفاهها.

– والله يا أستاذ لولا معزّتك في قلبي لاتخذت ضدّها موقفاً صارما، أنا لا أرحم هكذا طالبات... هكذا تصرّفات مخجلة.

نظرنا إليه متعجّبات من لون وجهه الجديد، فراح يأمر من اختبئت خلفه:

– اعتذري حالاً عن وقاحتك، الأستاذ «سمير» أيقونة في ثانويّتنا، هذا الصّرح العملاق الذي...

– حسناً حسناً لا بأس.

بحركة عنيفة من يده اليسرى، دفعها المدير لتجلس في أقرب مساحة، وراح يشيد بمواقفه البطوليّة السّابقة، فاغتنمت «ابتهاج» نظرة خائفة طارئة من «سعاد»، وهمست:

– ماذا تفعل هذه هنا؟... لو كان للرّائحة صوت.

وسدّت بإصبعيها فتحتي أنفها، في حركة مشابهة تماماً لما قامت به في السّاحة قبل أيّام.

هذه المرّة لم تستطع «سعاد» الرّدّ عليها مثل المرّة الماضية، فقد ثبتت عليها التّهمة.

قلت محاولة إظهار براءة سؤالي:

– هل من جديد حول «بثينة»؟.

– أوقفتها أمّها من الفرقة، وسيحوّلها شقيقها إلى الثّانويّة الثّانية، إذا لم يرحلوا إلى مدينة أخرى.

فنظرت إليها «حبيبة» وهي تصلح خمارها:

– يبدو أنّهنّ متّفقات من البداية على كلّ كلمة يقلنها لو سألهنّ، آهٍ منهنّ... الشّقيّات.

فأجابتها بسخريّة دون أن ترفع بصرها عنهنّ، وكأنّه استفزاز جديد للمشاجرة:

– هل رأيتِ يوماً ذئباً يأكل أخاه؟.

انصرف المدير بعدما ربّت بيده على كتف الأستاذ مرّات، وهو يبتسم كعادته ابتسامته الصّفراء.

بدت «نور الهدى» كالتي تخشى الطّرد من الفِرقة، بعد كلامها المجحف في قضيّة «بثينة»، أمّا «مليكة» فقد أنكرت ما قالته أمامنا جملة وتفصيلا، فيما ارتدت «ليندة» ثوب براءة طويل بأكمام فضفاضة، بينما اكتفت «حنان» و«حبيبة» والأخريات بالحوقلة، والنّظرات المستنكرة.

وراح الأستاذ يواصل كلامه، شامخ الهامة أمامنا تعلوه أنفة الحقّ.

نظرت إلينا «إشراق» قائلة بالفرنسيّة وهي تتناول منديلاً ورقيّاً من النوع الفاخر:

– يا إلهي العادل... سأبكي.

وراحت «حنان» تربّت على كتفها في حنوّ، ثمّ انفجرت إلى جانبها في البكاء.

ثبّت العفو على رأسه تاج العزّة فتأمّر، ومن كان الله شاهده، لا تهمّه نزاهة القاضي.

– تفرّغن الآن لدراستكنّ، أريد أن أسمع شيئاً عن التّفوّق والنّجاح والتّميّز، أنا أتابع أخباركنّ عن كثب.

★★★

ها هي لحظة الفراق قد حانت.

أفلتت دمعتان سخيّتان منيّ، بذلت كلّ ما في وسعي لإخفائهما.

– لا أعرف لماذا تتأثّرين بهذه السّرعة؟.

عبارة وشوشت لي بها «ابتهاج» وهي تراقب دموع الأخريات الجارية.

– لن أسمح له أن يرى دموعي.

– أعرف جيّداً سبب بكائك.

فانتبهت فزعة، فقالت:

– على كلّ حال... لست وحدكِ من تبكين.

وراحت تخرج من حقيبتها كيساً ورقيّاً يغلّف شريحتين كبيرتين من البيتزا، امتزجت رائحتهما مع عبق الأستاذ المنتشر مع النّسمات العليلة القادمة إلينا من أقرب نافذة.

– تريدين قليلاً منها؟.

– أهذا وقت الأكل؟.

كنت أسمع بعض الشّهقات هنا وهناك، وبكت «حبيبة» بكاء مرّا، حتّى خلت أن مكروهاً سيصيبه.

– أرجوكنّ... حافظن على رباطة جأشكنّ.

وجمع أغراضه وهمّ منصرفا.

– انظري إليها، لم ترفع بصرها منذ أن دخلت.

– دعينا من ثوراتكِ يا «ابتهاج»، لنخرج، أنا متأخّرة.

– أنا أبحث اليوم عن الشّجار.

وتفرّست في وجهي قائلة:

– ليس لي ما يشغلني.

جذبتها من ذراعها الممتلئ بمشقّة، كأنّي أجذب فيلاً إفريقيّاً ضخما، ونصب عينيّ هذا الذي نما حبّه في داخلي وترعرع، وما انقادت لي حتّى هدّأها «حنان» مستغفرة.

ماذا كان سيقول لو رأى ضعفي نحوه؟، وأنا التي أعتزّ دوماً بكبريائي وأتجمّل، على الرّغم من أنّني سأفتقده، وأفتقد عبارته التي طالما أورثتني السّؤدد والمجد والثّناء.

وعدت إلى المترل وأنا أفكّر في كلامه، وارتميت في حضن وزيرة سعادتي، عازمة على ارتداء الحجاب، حجاباً شرعيّاً هذه المرّة، مستغفرة ربّي عمّا غفلت عنه لسنوات.

لقد أغرقني سبحانه وتعالى في نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، وكان عليّ صبورا، ينبغي لي الآن أن ألتزم معه كلّ الالتزام، خاصّة وأنّ «إشراق» كانت قد ارتدته قبل شهر من الآن.

24

أنا مشروعه الكبير

كان عليّ أن أتحمّل الميكانيكيّ الذي أضحى يمنّي نفسه بقطعة أرض فوق القمر، كلّما مررنا أمامه.

– يبدو أنّه يهمّ بخطبتكِ بعد إعلان نتائج «البكالوريا»، إنّه يستعدّ، لقد زاد تعلّقاً بك بعد ارتدائكِ الحجاب الشّرعيّ، انظري... حتّى رائحة عرقه المقزّزة زالت، يا حلاوة... وكأنّه مدير شركة.

– سبحان الله في خلقه، هذا ما قالته لي «صفاء» البارحة.

– إنّه يحبّك... سيعاملك مثل أميرة «ويلز».

ألقتها في أذني كمن تبوح بسرّ عظيم بصوتها العذب، فرددت بغيظ:

– هاتف أمّي لا يهدأ أبداً من اتصالات والدته المصون، ساعة كاملة وهي تبارك لها ارتدائي الحجاب، وكأنّني كنت كافرة.

أطلقت «ابتهاج» ضحكة لفتت بها انتباه جميع المارّة في الشّارع، ثمّ وضعت يدها على فيها.

– دعيه يغرق.

وشردت منشغلة بالأهمّ، بما قاله لي قبل عرضنا الأوّل بلحظات:

– «إلهام» أنتِ مشروعي الكبير، لا تخذليني.

هناك شيء آخر طبخناه منذ أشهر على نار هادئة، وسيستوي الآن... أيّام قليلة تفصلنا عن الحفل.

★★★

قرّرت إهداءه لوحاً من الشّوكولاتة في آخر يوم للتّدريبات، كي يتذكّرني... حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولا.

– مجنونة، نحن في رمضان هل تتوقّعين أنّه سيفطر على شيء مرّ؟، سيضعها في الثّلاجة ثمّ ينساها، وربما ألقاها من النّافذة، هذا طبعاً إذا لم تجديها قد ذابت، لا تنسي، نحن في الصّيف.

وراحت تضحك بشدّة، وسط نظرات «حبيبة» و«إشراق» والأخريات.

– لا أعتقد أنّكِ صائمة اليوم «ابتهاج».

هزّت رأسها نافية.

كنّا في المدرّج ننتظر حضور الأستاذ الذي كان في لقاء مع المدير، وما إن رأت جزعي منها، حتّى أتبعت كلامها بجملة أخرى، تنضح بجرعة عالية من الإحباط، وتحمل بذور الشّوك:

– لماذا تصرّين على إعطائه شيئاً تحبّينه أنتِ فقط؟، أين الدّيمقراطيّة في هذا؟.

– لماذا تقولين أنتِ هذا؟، ما دخل الدّيمقراطية في موضوعنا؟، يا حفيظ.

– لماذا لا تغيّرين عادتك؟.

– أيّ عادة؟.

– إهداء الشّوكولاتة.

– ما بك اليوم معي «ابتهاج»؟، هل هناك خطب ما؟.

حدّقت بي قليلاً كأنّها تريد قول شيء ثمّ تراجعت في اللّحظة الأخيرة حين دخل الأستاذ.

في تلك الحصّة، وضع كلّ منشدة من مجموعة الإسناد بجانب منشدة أخرى لا تنتمي لذات المجموعة؛ أي أنّه وزّع الكتلة الصّوتيّة قدر ما استطاع، وهذه الطّريقة العبقريّة تسمح بالتّغطية على الأصوات التي ما زالت لم تتقوّ بالشّكل المطلوب، أو تأخّرت لسبب آخر خارج عن السّيطرة.

هنا لن يسمع الجمهور سوى الأصوات القويّة الصّحيحة، ممّا سيحافظ على ماء وجه المنشدات، كما تفيد المنشدة الضّعيفة كثيرا، إذ تجد إلى جانبها نموذجاً ممتازاً للاقتداء به:

– سيتذكّر الجمهور بداية الأنشودة ونهايتها بصفة خاصّة، لذلك احرصن على تقديم أفضل ما لديكنّ، أنتنّ منشدات، ويجب أن يلمس الجمهور ذلك.

ظهرت علينا علامات وجل، فقال مشفقا:

– لا ترتعبن، لا تخشين شيئا، غداً إن شاء الله سنواجه من يجب أن نبرهن أمامهم على مصداقيّتنا، من يجب أن نصدمهم صدمة جميلة، إذا تلعثمت أيّة واحدة فيكنّ أو اختلطت عليها الكلمات، فلتمرّ مباشرة نحو الكلمات الموالية، لا تنسين أنّ هناك وزناً وإيقاعاً يحكمنا جميعا، يجب أن تسايرنه على النّحو الأمثل، إيّاكنّ والنّظر لبعضكنّ البعض، هذا الفعل بالذّات سيدفع المتفرّجين إلى الاعتقاد أنّ شيئاً ما ليس على ما يرام.

كانت كلّ العضوات تنصتن باهتمام شديد، وراح يواصل:

– «جاهزيّة الفرقة» تنقص إلى خمسين بالمائة أمام الجمهور، بسبب عاملي الرّهبة والتّخوّف من حدوث طارئ.

– يا إلهي العادل، هل معنى هذا أنّ كلّ تعبنا ذهب أدراج الرّياح؟.

– توكّلي على الله دائماً «إشراق»، سأكون معكنّ، صدّقيني... سيختفي شعور الخوف مباشرة في اللّحظات الأولى التي نبدأ فيها، جوهر المشكل نفسيّ بالدّرجة الأولى، أصدقن النيّة لله وحده، لقد أخذنا بالعلم، فلنتوكّل عليه، إنّه يحبّ المتوكّلين... لن يخذلنا، ومن المستحيل أن يخذلنا، يجب أن نترك أثراً بليغاً في النّفوس، أثراً لا يُنسى مطلقا.

– لكن أستاذ، أوّل مرّة أواجه فيها جمهوراً مثل هذا، الطّلبة والأولياء والسّلطات، شيء مرعب بحقّ.

ردّت عليه وهي تمسح جبهتها من العرق، محاولة تعديل خمارها بما يتناسب مع المساحة الممسوحة، ومطاردة قطرتين اتخذتا انحناء أنفها ملاذاً لهما، بينما نظرت إليّ «ابتهاج» هامسة بحسرة:

– سأطهر اليوم أو غدا، ويوم الحفل سأكون صائمة، سأتضوّر جوعا... سأتوتّر... أنا أعرف نفسي، سيتوقّف قلبي وأسقط على الخشبة يا فتيات، أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمّدا رسول الله.

وراحت تكرّر الشّهادة وهي تتلمّس مكان قلبها، ولأنفاسها أزيز كأزيز محرّك السيّارة الهرم.

– ليس هناك ما يستدعي كلّ هذه الكميّة من القلق والتّوتّر.

قالها الأستاذ وهو ينظر إلينا مخاطبا، أو بالأحرى ينظر إليّ، ثمّ أردف محذّرا:

– إيّاكنّ والهواجس، سيتمّ تكريم المتفوّقين والمتفوّقات، والأساتذة البارزين والمحالين على التّقاعد، سيتمّ تكريم البعض منكنّ، أين الشّجاعة؟، أنا أقول إنّ لديّ لبؤات.

وانتفضت لهذه الكلمة:

– أنا معك أستاذ، والله لن نخذلك.

نكزتني «ابتهاج» قائلة:

– سنكرّم قبل إعلان نتائج «البكالوريا»؟.

خطفت الكلمة منها:

– ستكون معنا فوق المنصّة؟.

قلتها وقد تغيّر صوتي الذي خانني أمامه.

– طبعاً «إلهام»، أنتنّ بحاجة إليّ هناك أكثر من أيّ مكان آخر، لن أتخلّى عنكنّ مهما حدث.

قالها وهو يركّز نظراته عليّ مباشرة هذه المرّة، فاستأنست بعينيه اللّتين زادتاني ثقة أكثر من استئناسي بتطميناته.

يا الله على بلسمي وترياقي، يا الله على عمق إحساسي بأنّي الوحيدة المقصودة بتلك الكلمات.

وراودني يقين غريب أنّه لن يتخلّى عنّي مطلقا.

25

يوم الامتحان... يُكرم المرء أو يُهان

قبل السّاعة العاشرة صباحا.

يحاول الأستاذ ببدلته السّوداء الكلاسيكيّة، وقميصه النّاصع، خفض توتّرنا المتصاعد، ونحن نجري بعض الإحماءات الصّوتيّة الخفيفة.

سنقابل بعد قليل في السّاحة التي اعتدنا العمل فيها، حشداً ضخماً لم نعهده سابقاً، من سلطات مدنيّة وعسكريّة؛ ويجب أن نقدّم شيئاً يناطح سقف تطلّعاتنا.

– سيتذكّر الجمهور بداية الأنشودة ونهايتها بصفة خاصّة، إنّهم يبحثون عن الصّدمة الجميلة.

أوّل توصية ذكّرنا بها ونحن نغادر حجرة تدريس، اتّخذناها مكاناً لتغيير الملابس.

كانت «ابتهاج» تشتكي من ضيق لباسها الذي حشرت نفسها داخله بصعوبة، وكم هو صعب أن تكبحي ضحكاتك وأنتِ تحاولين مساعدتها، جاهدة ألاّ يتمزّق شيء.

أفلتت ابتسامة منّي لمّا نطقت «حبيبة» بصبر وصل إلى نسبة متدنّية:

– آسفة عزيزتي، لقد ازداد وزنكِ مقارنة بما كنتِ عليه، لا تغضبي منّي.

– ولم لا يكون القماش قد تقلّص بسبب الحرارة؟، نحن في شهر جويلية، لا تنسَينَ هذا يا فتيات.

نظرنا إلى بعضنا أجزاء من الثّانية، وانفجرنا بعدها مقهقهات هذه المرّة، حتّى دمعت أعيننا، ونحن نحاول كبح ما تجرّأنا عليه دون أن نضع اعتباراً لمشاعرها، غير أنّها لم تبالِ بنا، وراحت تسير وقد اكتسبت مشية البطّة:

– يا إلهي، هل سأدخل الحفل هكذا؟، كيف سأصعد على المنصّة التي أقاموها كجبل؟.

وحرّكت كتفيها تلقائيّاً، فتمزّق الحجاب تحت إبطيها، مصدراً صفيراً قصيراً غليظ الذّبذبة:

– يا ستّار، هل الحرارة ضارّة بالقماش إلى هذا الحدّ؟.

ارتمينا على الكراسي ونحن نمسك ببطوننا من هول صوت التّمزّق.

كنّا بحاجة إلى هذا كي نخفّف توتّرنا الذي يتزايد باستمرار كلّما اقتربنا من المنصّة.

– لا تغضبي منّي «ابتهاج»... أرجوك.

لا أعرف من قالتها تحديداً، فقد كانت الدّموع المجنونة تضبّب المشهد، بينما راحت «حنان» و«حبيبة» تساعدانها على السّير، وهما حريصتان كلّ الحرص على الإمساك بها جيّدا.

– لو سمحتما... اتركاني بسلام، من قال لكما إنّي أصبحت عجوزا؟.

– حاشا لله... أنتِ في عنفوان شبابك.

وتبادلتا نظرة لوم.

كانت «ابتهاج» تحاول السّير على طبيعتها، لكنّ اللّباس الجديد لم يطاوعها، فصعّدت نبرتها:

– الخطأ خطأ الخيّاطة التي استعملت قماشاً رديئاً يتأثّر بالحرارة، لقد كنت متأكّدة أنّ هذا سيحدث حين أتت منذ شهر لأخذ قياساتنا... والله كنت متأكّدة.

ونظرت إلينا بوجه استعمرته آثار النّدم، على كلّ ما تناولته سابقاً من طعام، جعلها تتجاوز وزن الرّيشة والدّيك.

– احذري «ابتهاج»، سيتمزّق الحجاب لمجرّد حركة بسيطة، احذري المنصّة.

قلتها ممسكة يدها الممتلئة، مسيطرة على انفعالي، حين تركتها «حبيبة» لاستقبال مكالمة من أمّها، وانتبه الأستاذ إلى جوهر المشكلة، فنظر إليّ هازّاً رأسه قائلاً بنبرة الأخ الكبير:

– ادخلن من خلف المنصّة تماما، تلك منطقة مناسبة لنا.

لم تتّضح لي الصّورة بما يكفي، إلاّ حين رأيت مقعداً خشبيّاً صغيراً لا يتعدّى ارتفاعه ثلاثين سنتيمترا، مخفيّاً عن الجمهور.

استغربت «ابتهاج» من انتباه الأستاذ لأدقّ المشاكل، فقال مبتسماً يداري حرجها:

– يمكن أن نخسر المعركة بسبب مسمار في حدوة حصان.

وأتت اللّحظة التي كنا نخشاها.

★★★

كلّهم هنا، وكأنّهم أفرغوا المدينة عمداً ليحضروا حفلنا.

لمحت في الصّفّ الأوّل الوالي مع حاشيته، ورئيس الدّائرة ورئيس البلديّة، وقائد فرقة الدّرك ومحافظ الشّرطة، الحماية المدنيّة، مديري الثّانويّات... يا إلهي، إنّها أختي «صفاء» و«ماما سوسو»، تجلسان في الصّفوف الوسطى، يا ربّ السّماوات، فهمت الآن سرّ الصّمت الذي كان يوحّدهما في البيت.

لا علينا.

يجب الآن أن نقدّم أوّل أنشودة، «أقمار» التي تدرّبنا عليها مراراً وتكرارا، ويجب أن نبدع في الأداء، بحيث نصدم الجمهور المتعطّش للجديد والمتميز، بما في ذلك تثمين منصبي الذي أعطانيه الأستاذ، وثقته التي تثقل كاهلي، كلّما أُعيد صوته المترسّب في داخلي:

– «إلهام»، أنتِ مشروعي الكبير، لا تخذليني اليوم.

ويا ليته لم ينظر إليّ بتلك العينين.

– هل أنت قلق مثلنا أستاذ؟.

– أخشى أن يخذلنا الله بذنوبنا.

وتعرّقت جبهته، حبّات متناثرة من لؤلؤ راح يتجمّع شيئاً فشيئاً على بشرته الصّافية.

صعدنا فوق المنصّة وسط تصفيقات الجمهور وتشجيعاتهم وتصوير هواتفهم، وبدأنا على بركة الله.

تنفيذاً للتّوزيعات المتّفق عليها أثناء التّدريبات، تنفيذاً حرفيّاً وسط تنامي شعوري بالعظمة، وأنا أرى إعجاب الحاضرين يتحوّل إلى بريق ينعكس في أعينهم الشّاخصة، كأنّ ما يقع أمامهم هو تسجيل تمّ في الأستوديو.

وكانت تمتمات «ابتهاج» أسرع إلى أذنيّ:

– يا ربّ استر... يا ربّ استر.

– يجب تسجيل ألبوم، حرام أن تضيع مواهبنا سدى.

بهذا همست لي «حبيبة»، وتصفيقات أحرّ من الأولى بدأت تتعالى حين أنهينا خفض الصّوت تدريجيّاً، ووقف المدير وهو يتفاخر أمام مدير التّربية الذي وقف إلى جانبه مذهولا، وانطلقت هتافات الجمهور على وزن واحد؛ «سوبرانو» «سوبرانو» «سوبرانو».

ونظر إليّ الأستاذ ويا ليته لم ينظر.

ارتعدت «ابتهاج» من فرط الحماس، ونحن ننسحب عائدات إلى المدرّج تمهيداً للأنشودة الثّانية، ورحت أبكي بين ذراعي «حبيبة» التي احتضنتني بقوّة، وأحسست بدموعها تنحدر على وجنتيها المحمرّتين، لتصل تباعاً إلى حجابي.

كان كلّ شيء يبدو كحلم جميلٍ سرمديّ لا يجب أن أستيقظ منه، وكاد يغمى عليّ من فرط سعادتي.

– جيّد... عمل ممتاز، بارك الله فيكنّ جميعا، أرجو أن تحافظن على نفس المستوى.

ثمّ نظر إليّ بفرحة طفل صغير:

– «غراثياس سوبرانو»... «غراثياس سوبرانو».

وكرّر العبارة التي تغنيني عن كنوز «قارون».

ألقت «ابتهاج» بنفسها على أقرب كرسيّ حتّى كادت تحطّمه، وهي تحمد الله على تماسك لباسها.

– بقي لنا نشيد «الحجاب»، أليس كذلك أستاذ؟.

– نعم؛ آخر عمل، لا داعي لتجديد التّوصيات، انتبهي للوزن النّفسيّ، الوزن مخادع أكثر من الإيقاع، وإذا زلّ لسانكِ طرفة عين، تداركي الموقف بسرعة قبل اكتشاف أمرك، انتبهي «حنان»، الجمهور ليس غبيًّا، صحيح أنّه لا يفرّق بين الصّوت السّليم والخاطئ، ويصنّف الصّوت جميلاً أو غير جميل، لكنّه يستشعر ما يحدث أمامه، تذكّري مصطلح «وحدانيّة الجمهور».

بدا منفعلاً أمامي هذه المرّة على غير عادته وهو يتصبّب عرقا، بفعل الحرارة التي بدأت ترتفع في ذلك اليوم.

– إن شاء الله أستاذ، أعدك بالجهد، والتّوفيق منه وحده عزّ وجلّ.

هذا ما ردّت به تطمئنه وتطمئن به نفسها.

لكن لهذا النّشيد أجمل حكاية.

26

شكراً جزيلاً... لماء السّماء

يوم الثّلاثاء، قبل الحفل بحوالي ستّة أشهر.

– ما الأمر الذي بينكما أنتِ و«سعاد»؟.

– لا شيء أستاذة «نورة»، تريد أخذ مكاني في الفِرقة، هذه هي المشكلة باختصار.

– و«إشراق»؟.

– لا دخل لي، كانت تبكي متشنّجة، لا أعرف أكثر من ذلك.

– هل تعرفين من هو «نزيم»؟.

– وكيف لي أن أعرف أستاذة «نورة»؟، أنا محايدة.

– معكِ حقّ، الفضول قاتل، لا علينا.

ومضت تلصق إعلاناً يخصّ الذين صودرت هواتفهم، هامسة لنفسها:

– هكذا سأخرج الأمر من رأسي.

راجعنا الأنشودة الأولى بسرعة، ثمّ انتقلنا إلى نشيد «الحجاب»، للمنشد «أحمد أبي خاطر»، وأُسند منصب «المنشدة الأولى» إلى التي استحقّته بجدارة.

★★★

في ذلك الصّباح، تأمّلت وجهي في المرآة وكأنّي أكتشف خلاياه؛ بدا شعري جميلاً برّاقاً أكثر من الأيّام الماضية، وحين أرسلت خماري فوقه بعناية، وجدت بعض القطرات عليه، ربما تكون من بقايا الماء البارد الذي داعبت به بشرتي لأنتعش، وهنا راودتني فكرة الحجاب الشّرعي.

أيُعقل أن أمثّل رسالة لا أتمثّل هندامها جيّدا؟.

وفي ذلك الصّباح أيضا، رأيت الأستاذ مبلّلاً بالمطر الذي تساقط غزيراً منذ اللّيلة الماضية، قبل أن يتحسّن الجوّ في لحظات، وتظهر الشّمس ساطعة من بين الغيوم.

علمت من «ابتهاج» أنّ عطباً مفاجئاً أصاب سيّارته، فاضطرّ للقدوم ماشياً دون مظلّة.

مستسلماً للسّيل المنهمر عليه من السّماء، رأيته يسير مستسلماً لقدره، لكن الغريب أنّه لم يكن يرتدي سترة.

كانت قطرات المطر تغسله غسلا، بينما هو لا يبالي بها أصلا، وقد اكتسى حلّة من الاطمئنان تحتها في شاعريّة، فبدا لي كأحد أبطال أفلامي.

– هل يمكن أن يكون قد نسيها في البيت؟، المسكين... سيقتله البرد.

بكلّ ما تستطيع أن تحمله هذه العبارة من لهفة، استنفرت «ابتهاج» لعلّها تأتيني بالخبر اليقين، غير أنّها اكتفت بابتسامة واثقة، ومضت تتناول شريحتين من البيتزا، سرعان ما انتشرت رائحتهما في المكان.

– ألا تشبعين؟، يا حفيظ.

– كنت س...

– لا داعي.

هزّت كتفيها، بينما كانت آخر مضغة ممّا أحضرته معها في خبر كان.

غير أنّه سرعان ما ارتسمت على ملامحي علامات الخوف حين أتى إلى خلدي أنّه قد يذهب بسيّارته لجارنا الميكانيكيّ، وقد تحدث بينهما مناوشات.

★★★

تقول كلمات النّشيد:

فليقولوا عن حجابي، أنّه يفني شبابي

وليغالوا في عتابي، إنّ للدّين انتسابي

لا وربّي لن أبالي، همّتي مثل الجبال

أيّ معنى للجمال إن غدا سهل المنال؟

حاولوا أن يخدعوني، صحت فيهم أن دعوني

سوف أبقى في حصوني، لست أرضى بالمجون

لن ينالوا من إبائي، إنّني رمز النّقاء

سرت والتقوى ضيائي، خلف خير الأنبياء

إنّ لي نفساً أبيّة، إنّها تأبى الدّنيّة

إنّ دربي يا أخيّة، قدوتي فيه سميّة

فليقولوا عن حجابي، لا وربّي لن أبالي

فليقولوا عن حجابي، أنّه يفني شبابي

وليغالوا في عتابي، إنّ للدّين انتسابي

لا وربّي لن أبالي، همّتي مثل الجبال

أيّ معنى للجمال إن غدا سهل المنال؟

من هدى الدّين اغترافي، نبعنا أختاه صافي

دربنا درب العفاف، فاسلكيه لا تخافي

ديننا دين الفضيلة، ليس يرضى بالرّذيلة

يا ابنة الدّين الجليلة، أنت للعليا سليلة

بِحِجَابِي بِاحتِشَامِي، أفرض الآن احترامي

سوف أمضي للأمام، لا أبالي بالملام

فليقولوا عن حجابي، لا وربّي لن أبالي

فليقولوا عن حجابي، أنّه يفني شبابي

وليغالوا في عتابي، إنّ للدّين انتسابي

لا وربّي لن أبالي، همّتي مثل الجبال

أيّ معنى للجمال إن غدا سهل المنال

تمّ تمييز اللاّزمة ومنطقتي التدّخّل الصّوتيّ؛ منطقة المجموعة ومنطقة «الفرديّة»، على غرار العمل الأوّل.

اعتماداً على تقنيّة «الكونسيرتو»؛ أي الحوار بين «المنشدة الأولى» والمجموعة، وإدراج مقدّمة مشتقّة من اللّحن الأساسيّ، على شكل آهات متّصلة، سيكون التّوزيع كالتّالي:

تدخل المجموعة بالآهات الافتتاحيّة دون تكرار، ثمّ تبدأ «حنان» بشطر «فليقولوا عن حجابي»، لتكمل المجموعة بشطر «أنّه يفني شبابي»، ثمّ «حنان» بشطر «وليغالوا في عتابي»، ثمّ المجموعة «إنّ للدّين انتسابي»، مع الحرص أن يستشعر السّامع الأداء كحوار؛ باحترام وقت الدّخول احتراماً صارما، حيث يكفي أن تتأخّر «حنان» أو المجموعة نصف ثانية فقط ليضيع كلّ شيء.

ثمّ تكمل «حنان»؛ «لا وربّي لن أبالي، همّتي مثل الجبال، أيّ معنًى للجمال إن غدا سهل المنال».

ويُعاد ما سبق مرّة ثانية، لكن مع تغيير الأدوار هذه المرّة، لنصل إلى دور «حنان» في بيتيها، «حاولوا أن يخدعوني، صحت فيهم أن دعوني، سوف أبقى في حصوني، لست أرضى بالمجون»، ثمّ تتدخّل المجموعة ببيتيها،

«لن ينالوا من إبائي، إنّني رمز النّقاء، سرت والتّقوى ضيائي، خلف خير الأنبياء»، ثمّ يأتي دور «حنان»، «إنّ لي نفسًا أبيّة، إنّها تأبى الدّنيّة، إنّ دربي يا أخيّة، قدوتي فيه سميّة»، ثمّ المجموعة في الشّطر «فليقولوا عن حجابي»، وتكمل «حنان» باقي البيت، وتعيد المجموعة اللاّزمة كاملة، من «فليقولوا عن حجابي» إلى غاية «سهل المنال».

وتتكرّر نفس التّوزيعات مع باقي الأبيات.

أوصانا الأستاذ بالتّحلّي بالخفّة والرّشاقة في الأداء، لتعويض غياب الإيقاع من جهة، ولإضفاء نوع من الأناقة والجمال التي تتحلّى بها المرأة من جهة أخرى.

من كان يعلم في نهاية الحصّة، أنّ رؤية انعكاسي في زجاج النّافذة، سيعيد ترتيب كلّ الأشياء في داخلي؟.

27

شهادة ميلادي

وجاءت من تستدعينا للأنشودة الثّانية.

دخلنا وسط الهتافات والتّصفيقات، بعد أن أتت بعض الطّالبات إلينا خصّيصاً لالتقاط الصّور، وسرن معنا مرافقات حتّى المنصّة، وكأنّنا نجوم سينما.

وتقدّمت «حنان» كاللّبؤة... ثمّ أعطى الأستاذ الإشارة.

شكّل غياب الإيقاع أثراً كبيراً على نفسيّة الحضور، غير أنّهم سرعان ما تأقلموا مع النّشيد، خاصّة وأنّه عمل فنّيّ اشتُهر في كثير من القنوات الفضائيّة.

وراحت أصواتنا تجلجل في المكان، قويّة صافية، بينما يخيّم الصّمت على كلّ الحاضرين، وكأنّ على رؤوسهم الطّير، ثمّ فجأة بدأ الكلّ يصفّق لمّا أتمّت المجموعة العبارة الأخيرة من النّشيد، وكأنّهم أفاقوا للتوّ من سبات عميق، من صدمة أردناها أن تكون جميلة.

ورجعنا إلى المدرّج لتقييم عملنا مع الأستاذ.

بدا راضياً عن أداء «حنان» وعن المجموعة، رغم أنّه شعر ببعض التّردّد من «مليكة» و«ليندة»، مرجعاً ذلك لاعتيادهما على الإيقاع، ممّا يصعّب اندماجهما في عمل ليس مبنياً إلاّ على الوزن.

حانت الآن لحظات التّكريم.

أتت «نورة» مراقبة الأقسام النّهائيّة تطلبني مع «ابتهاج» و«حنان» و«حبيبة»، وما إن نادى المراقب العامّ باسمي وصعدت على المنصّة، حتّى راح الكلّ يهتف؛ «سوبرانو، سوبرانو»، وأطلقت «صفاء» زغرودة طويلة رفقة «ماما سوسو»، كأنّهما كانتا تنتظران هذا الموقف، وتبعتها بعض الطّالبات المتحمّسات، واقشعرّ بدني وأنا أتسلّم جائزتي من يد محافظ الشّرطة شخصيّا.

ورأيته يصفّق لي بيديه الاثنتين، في اندفاع طفل مغمور بشحن فيّاض... نعم والله رأيته.

★★★

أرقب الآن لحظة ميلادي.

ومرّت على قلبي خاطرة الرّفض.

ربما سيمقتني وأصغر في عينيه، لذلك قرّرت أن أحدّثه حين يكون وحده، والسّتر أولى وأجدر، وكم من الصّعب أن أظفر به وحده في هذا اليوم، وهو ينتقل بين الرّسميّات والمجاملات، ورحت أدعو ربّي أن يمنّ عليّ برزقه الفيّاض.

وطال انتظاري.

– يجب أن يكون وحده... وحده تماماً، انشغاله بمن حوله سيشوّش عليّ طقوس التّقديم.

هذا ما رحت أخاطب به نفسي وأنا أرقب عيون القطط الفضوليّة من حولنا.

– «سوبرانو»، يا ساتر، كدت أموت في...

– ليس الآن «ابتهاج»، أنا مشغولة، فيما بعد فيما بعد.

– فيما بعد؟، أريد أن أريك شيئاً يهمّك.

– وهل هناك من هو أهمّ منه؟... فيما بعد فيما بعد.

فجأة... لمحته يلج مكتب الإدارة العامّة.

أسرعت نحوه، غير عابئة بالطّالبات اللاّتي كنّ يركضن خلفي لالتقاط بعض الصّور التّذكاريّة، لقد كان هو بطلي، وأحلى صورة يجب أن ترسخ في الذّاكرة.

وفي زاوية الرّواق التقينا، وجهاً لوجه، حتّى كدنا نصطدم:

– «إلهام»، كنت أبحث عنك.

من يوقف الآن القرع المفاجئ في صدري؟... فشردتُ هنيهة.

– يا إلهي!، ماذا سأقول له؟، لست جاهزة للزّواج، وماذا سأقول لأمّي؟.

وحبست أنفاسي لجلال الموقف الذي أكسى وجهي المتعرّق حرارة اللّقاء.

ثمّ انتبهت للشّوكولاتة التي خشيت ذوبانها في حقيبتي.

– حمداً لله، الشّوكولاتة... كنت أبحث عنك، وجدتك، وأخيراً... أقصد... أنا أيضاً أستاذ.

بكلمات غير مترابطة، ودون أن أنظر في عينيه، أو بالأحرى... لم أستطع النّظر في عينيه.

كم افتقرت إلى الشّجاعة ساعتها لأواجهه؟، وأفتقر الآن إليها للتّعبير؟.

ما أفعل لقلبي الصّغير، وأنا المراهقة الحسّاسة التي ما كانت تعتقد مطلقاً أنّ الحبّ أزمة وجوديّة؟.

وناولته لوح الشّوكولاتة بيد مرتعشة، غير عابئة بعيون القطط التي كانت تترصّدنا، مراقبة المشهد بكلّ تفاصيله الدّقيقة عن كثب.

– آآآ!... «غراثياس سوبرانو».

وأعادها على مسمعي مرّتين متتاليتين، فتنفّست الصّعداء.

كم فرحت لفرحه وأنا التي...

كنت كالطّفلة الصّغيرة التي تتّقد عيناها حين ترى هديّة عيد ميلادها، وقد كان الموقف ككلّ بجلاله وعظمته ودلالاته وأبعاده... هديّة عيد ميلادي.

كان سيقول شيئاً، والله كان سيقول شيئاً، كان مصرّاً لولا نداء المدير الذي استعجله.

وكأنّي لمحت «سعاد» من بعيد ترقب اللّقطة، لكنّي لم أهتم و لم أحاول حتّى التّحقّق من صحّة المشهد.

ودّعني بابتسامته الصّافية منصرفا، وعبارته تتردّد في أذني، حتّى حين قفلت عائدة نحو صديقاتي وطول الطّريق، إلى درجة أنّي لم أعبأ بما كانت تثرثر به «ابتهاج».

أنا الآن في جنّتي وفردوسي، وعبارته ستكفيني لأسابيع.

★★★

ودخلت غرفتي مسرعة لأسجد شكراً لله، والدّموع تخنقني كمجرم محكوم عليه بالشّنق:

– يا ربّ، أنت خالق هذا القلب، وأنت أعلم به منّي، لم أفعل ما يغضبك، ويكفيني أنّك شاهدي؛ فيسّر لي ما تقرّ به عيني في الدّنيا والآخرة.

– أين كنتِ في الحفل؟، أهذا جزائي على ما أفعله من أجلك؟، يا ساتر.

هذا ما قالته «صفاء» في ذلك المساء، ونحن في المطبخ نجهّز مائدة الإفطار.

28

حلمي... وحلم أمّي

- «كونيتسيوا أوتوسان».

صحت بها باليابانيّة على مسمع من المارّة، وهي ترجمة لعبارة «طاب يومك يا أبي»، ثمّ أضفت حين سمعت ضحكته:

- أين أنت؟.

- في العمل طبعاً، أين سأكون؟، ما الجديد لديك؟.

- ظننتك ما زلت معلّقاً على الحائط، على كلّ حال أنا ذاهبة لاستطلاع الموضوع، الموقع معطّل.

وأفلتت منّي ضحكة في وسط الشّارع أمام أعين المشدوهين، أخفي بها قلقي، وأداري بها شوقي للقاء من أنتظر سماع صوته منذ أيّام.

يوم التّاسع من جويلية 2016، يوم سيبقى محفوراً في ذاكرتي.

- نحن هنا منذ الصّباح، ننتظر قدوم المدير الذي ذهب إلى مديريّة التّربية، لإحضار قائمة النّاجحين، لقد تعطّل الفاكس والموقع.

هذا ما صرخت به «حبيبة» في الهاتف، فتركت الأكل على المائدة، وانطلقت أسابق الرّيح، محاولة خلق توازن مناسب بين سرعتي وهاتفي الذي شرع في الرّنين، ليشير إلى أبي اليابانيّ الذي يسأل مشفقاً عن النّتيجة، بنبرة اجتمع فيها التّرقّب والتّشكّك والتّخمين.

★★★

في السّاحة، وبالضّبط أمام منطقة سعادتي، وجدت «ابتهاج» مع بعض الصّديقات اللاّتي رحن يطلقن زغاريد امتزجت بعبرات الفرح:

- 15.78.

- ألف مبروك، معدّل جيّد كي تدرسي الصّحافة، أليس كذلك؟.

قلتها وعيناي تتسلّقان القائمة، غير أنّها بادرتني:

– ألف مبروك لكِ أيضا، اسمكِ هناك في القائمة الثّانية، والمعدّلات عند المدير.

ثمّ همست مراوغة:

– انتبهي، موجاتي تراقب عينيك.

تجاهلتها وأنا أرى اسمي مكتوباً في أعلى الجدول، وهو ما جعلني أرفرف باحثةً عن الأستاذ، ولمحت المراقبة «نورة» قادمةً نحوي مسرعة من بعيد، صائحةً وسط السّاحة:

– «سوبرانو»... ألف مبروك، 15.25، ألف مبروك.

ثمّ تغيّرت نبرتها:

– للأسف «إلهام»، لقد غادر الثّانويّة نهائيّا، لا أستطيع إخبارك بأكثر من ذلك.

هذا ما بادرتني به قبل أن أسألها.

– هل تعرفين أيّة وسيلة اتّصال معه؟.

– هاتفه الجوال؟، لا أستطيع تقديمه، «فيسبوك»؟، لديه واحد لكنّه مغلق حاليا، حدثت بعض المشكلات بينه وبين المدير... لا تخبري أحداً أنّي أخبرتك، أرجوكِ «إلهام»، القضيّة حسّاسة جدّا.

– لن أخبر أحداً عمّا دار بيننا، سرّك في بئر.

نظرت ناحية الإدارة ثمّ قالت موشوشة:

– هل تذكرين الورقة المختومة التي كانت مع المدير منذ أشهر؟.

لم تنتظر إجابتي، بل واصلت وهي تنظر هذه المرّة ناحية مكتب الأساتذة:

– قرار تثبيت الأستاذ في منصبه، أراد المدير مساومته بتعيين «سعاد» مكانكِ في الفِرقة، لكنّه أبى رافضاً الرّضوخ لتهديداته.

ثمّ قالت متحسّرة وهي تتهرّب من مواجهتي:

– يبدو أنّه دمّر مستقبله بسببكِ «إلهام».

ووُئدت أحلامي بعبارتها المسمومة.

قالتها وانصرفت تهنّئ باقي الطّالبات، غير شاعرة بالسّكّين الذي اخترقت به فؤادي عمدا، فتبعتها وكلّي رجاء أن تساعدني ولو بمعلومة صغيرة عنه.

– ما الخطب؟، الكل يبحث عنه هذه الأيّام، أستاذة الكيمياء، ورئيسة الجمعيّة، و«سعاد»، والميكانيكيّ.

– أيّ ميكانيكيّ؟.

ارتعشت كمن لفحها زمهرير الشّتاء، إلاّ أنّها لم تبالِ بي وواصلت كلامها:

– لقد رفع تقريراً إلى مدير التّربية وضّح فيه بعض الملابسات، وسلّم إلى الإدارة نسخة منه، بالمناسبة لقد تحدّث فيه بإسهاب عن إمكانيّاتك، بل رسم صورة فنيّة عنكِ وعن قدراتك، وأوصى بوجوب تبنّيك... تعالي معي.

قالتها وهي تنظر ناحية المراقب العامّ، الذي كان واقفاً يتحدّث مع المدير ومحافظ الشّرطة.

وخيّل إليّ أنّي أشمّ عطره في مكان كثيراً ما تواجد فيه أو سار إليه.

وأرتني خفية ما رسمه السيّد عنّي، فلم أعرف ساعتها هل أظهر إعجابي بلوحته، أم بفخامة التّوقيع؟.

ما هذا يا ربّي؟!، أصبحت أرى الجمال في كلّ ما يلمسه هذا الرّجل... حتّى في الأوراق الرّسميّة.

وعدت إلى لوحة الإعلانات أجرّ خيبتي، أتأمّل اسمي في قائمة تمنّيت أن تتقدّس ولو لثانية وحيدة بمرآه.

– ما بك؟.

مسحت دموعي والتفتّ نحو القشّة الأخيرة:

– لا شيء أستاذة «نورة».

– أعرف سرّك... دموع الفرح.

انصرفت مبتعدة كانصرافي عن هذا المكان الذي أضحى الآن منطقة حزني بامتياز.

★★★

وعدت إلى المنزل أجرّ ما بقي منّي جرّا، تتقاذفني بهجة الشّهادة مع خيبة اللّقاء، مستسلمة تماماً لواقعي الجديد، وما إن فتح «أيّوب» الباب لي حتّى هتفت بكلّ لياقتي الصّوتيّة:

– نجحت «ماما سوسو»... نجحت نجحت... 15.25.

وشرعت أمّي وخالتي و«صفاء» في إطلاق زغاريد قويّة تُسمع على بعد عشرات الأمتار، بينما انشغلت بالسّجود لله شكرا، ودموعي الحارّة تملأ مآقيّ منسابة على جبهتي، ثمّ تلاحقت الزّغاريد عند الجارات اللاّتي أتين مهنّئات، ولا أحد فينا نام تلك اللّيلة.

وتلبّسني إحساس «أيّوب» قبل أعوام، حين كانت كلّ العائلة مبتهجة لختانه، بينما كان هو غارقاً في ألم لا يفهمه.

في صبيحة اليوم الموالي، تفاجأت بجارتنا أمّ الميكانيكي بضحكتها الماكرة، عندنا في المنزل، جاهزة بباقة ورد مشكّلة من عدّة ألوان.

أعجزني عن الكلام حرصها على الجلوس بجانبي على الأريكة، حرص الشّيطان على أكل آدم من الشّجرة، بل كانت تريد إطعامي بيدها من الكعكة التي طلبتها، خصّيصاً لهذه المناسبة على حدّ زعمها.

وكدت أصاب بالصّمم من زغاريدها التي بين كلّ جملة وأخرى، كسيّارة الإسعاف، و«صفاء» غارقة في ضحك هستيريّ، ولم تتركني أغادر الصّالون حتّى أخبرتها أنّه يتوجّب عليّ الذّهاب إلى دورة المياه.

– سمعتها تقول لأمّي أنّها تخطّط لزيارتنا رسميًّا بمناسبة عيد الفطر، وأنّ هناك موضوعاً هامّاً ينبغي فتحه من جديد.

هذا ما قالته وهي متشبّثة بذراعي، تقلّد حركاتها في براعة فنّانة، ثمّ تطلق العنان لقهقهاتها الرّاعدة.

– نحن في العيد، هل ستعود؟.

– هكذا قالت.

– دعينا منها «صفاء»، مجرّد كلام، ألم تتّصل بكِ «ابتهاج»؟.

– اتّصلت البارحة ليلا، قالت إنّها في زيارة عائليّة، وستأتي إلينا بعد يومين، وإن هناك أمراً هامّاً تريدكِ فيه.

– وهو...

– صورة ستحبّين رؤيتها.

– صورة؟!.

– هذا ما قالته لي دون أيّ توضيح.

ورفعت يديها فوق رأسها كالتي لا ناقة لها ولا جمل.

29

خداعٌ أبيض

تأخّرت «ابتهاج» وتأخّرت معها صورتها.

لا علينا...

بعد يومين، أخبرتني أمّي بنبرة مشجّعة أنّ أبي الذي على الحائط، فتح حساباً بنكيّاً باسمي للتّوفير، ضخّ فيه مبدئيّاً خمسمائة ألف دينار جزائريّ.

ألقتها باعتزاز، واستطردت بصوت يشبه الهتاف:

– إذا حصلت على شهادة «اللّيسانس»، ستكون هديّتك رخصة سياقة وسيّارة جديدة من نوع...

كدت أخرج من جلدي:

– آآآآآآآآآ، حقّا؟... أحبّكِ أمّي، أحبّكم جميعا.

وفتحت ذراعيها فارتميت في حضنها الدّافئ.

وتذكّرت قول الأستاذ مرّة وهو يخاطب «نورة»، بعد لقاء قصير مع أحد الآباء:

– النّشاطات اللاّصفيّة مرتكز إستراتيجيّ في النّجاح الدّراسيّ، رغم تخوّف الأولياء منها.

بعد مرور عيد الفطر بأسبوع، وبينما أنا في الصّالون أتفقّد جديد القنوات الفضائيّة:

– «إلهام»، اسمعيني جيّدا.

وصمتت للحظات ترصد ردّ فعلي.

– «منير»...

سكتت ثمّ ألقت كلّ ما في جعبتها من كلام دفعة واحدة:

– جارنا الميكانيكيّ يريد التّقدّم لخطبتك سيحضر هو ووالدته وشقيقتاه وعمّاته وخالاته مبدئيّاً ثمّ يأتي الرّجال لندخل في الرّسميات.

بعدها راحت تهوّن عليّ ما قالته:

– على كلّ حال هذا لقاء تعارفيّ، مجرّد تسريحة شعر بسيطة وانتهى الموضوع، كوني عاقلة يا ابنتي، اتّفقنا؟.

– ما شاء الله، كلّ هذا مبدئيّاً، ومتى سيحضر أجداده الموتى؟.

وانصرفت أحضّر فنجاناً من القهوة المركّزة أكثر من المعتاد.

تبعتني وهي تمسح يديها بمنشفة بنفسجيّة اللّون:

– يبدو أنّ أسئلتي أصبحت دون إجابات.

– أنتِ التي تصرّين على طرح أسئلة صعبة، هل يجب أن أفتح الملفّ مجدّدا؟، افهموني يا عالم، بأيّ اللّغات أتحدّث معكم؟.

انتفضت كعادتها:

– كفاكِ تكبّراً وثرثرة، هل أنتِ أوّل من حصلت على «البكالوريا»؟، والله لا تعرفين مصلحتك.

فجأة تغيّرت نبرتها وهي تتفرّس في قسماتي:

– إذا كان الذي تحبّينه جاهزاً فليتقدّم... ليرينا وجهه، ليرينا عينيه وعيون عائلته، ماذا ينتظر؟.

الرّمش هنا اعتراف بالهزيمة.

هل ارتبط بأخرى؟، هل أنساه الزّمن «السّوبرانو» التي صنعها بتشجيعاته؟.

يا لي من غبيّة، لو تركته يكمل حديثه أمام مكتب الإدارة، لذاب الآن غمّي مثل قالب الزّبدة.

ثمّ لماذا انقطعت أخباره هكذا دون سابق إنذار؟، لماذا لم يحاول الاتّصال بي؟، ليطمئنّ عليّ على الأقلّ، هو أستاذ ولن يُعدم حيلة في الوصول إليّ ولو كنت في غابات «الأمازون».

– إذن يوجد شخص في حياتك، شرودكِ الآن وأنا أحدّثك دليل واضح...

وهنا دخل «أيّوب»، متوجّهاً نحو الثّلاجة مباشرة، وأمّي تنظر إليه تستعجل مغادرته.

– إحداكنّ تقلِ البيض لي أوّلا.

وراح يستنشق عميقاً رائحة القهوة المسيطرة على المكان.

أجبته بحنوّ:

– أنا يا «أيّوب»، يا أخي الصّغير، يا «باتمان» المدينة.

– وإحداكنّ تعطيني خمسمائة دينار ثانيا، حالاً دون تأخّر أو تأجيل في الدّفع، أو إنقاص من المبلغ.

أجبته بحنوّ أيضا:

– أنا يا «أيّوب»، يا أخي الصّغير، يا «باتمان» المدينة، بل سأعطيك ألف دينار كاملة.

– وتعيدين لي شارة «أنا وأخي»؟، أريد أن أسمعها بصوتك «سوبرانو».

رنّت وعودي في أذنه أيّما رنين، فراح يقصّ علينا –وهو يمضغ ما كان في صحنه مع بعض الخبز– مغامراته المزعومة، راوياً في بطولة نادرة لا تُرى سوى في الأفلام الهنديّة، كيف استطاع إنقاذ امرأة عجوز من هجوم أحد الكلاب الضالّة، الذي جرى خلفه ثلاثة كيلومترات كاملة، وراح يتفاعل مع القصّة بكامل جسمه ومعالم وجهه، فقاطعته مبتسمة:

– من فضلك «أيّوب»... لحظة كي أستوعب، أنت جريت خلف الكلب أم الكلب جرى خلفك؟.

– أنا من جرى خلف الكلب طبعاً، هل هذا سؤال؟.

ولّما بلع لقمته أضاف ببراءة:

– أنا أخوكِ أم الكلب؟.

وهنا، ثارت ثائرتها:

– «باتمان»، كل بسرعة واخرج من هنا حالا، نحن نتكلّم في أمور خاصّة بالنّساء.

– من الأحسن أن تأخذ وقتك كاملاً في الأكل كي تمضغ جيّدا، ولكي تعطي فرصة لهرمون «الأنسولين» أن يفرز ببطء، هل تعرف حجم المشكلة التي ستكون فيها إذا أُفرز هذا الهرمون بشكل مفاجئ؟.

نظرت إليّ أمّي بعيني صقر ميّز فريسته جيّدا، وخرجت تتمتم كعادتها.

بعد دقيقة، عادت تجذبني من يدي:

– انتهى عملك هنا، أحتاجك في الصّالون.

★★★

لا أعرف من أين ظهرت خالتي؛ إذ لم تكن في منزلنا أصلا، وهي التي عزّزت مكانتها بيننا بعد حصولي على الشّهادة، بمعدّل لم تتوقعه.

– اسمعي يا «إلهام»، الزّواج ليس لعبة، «منير» يريدكِ زوجة على سنّة الله ورسوله الكريم.

– صلّى الله عليه وآله وسلّم.

فانتبهتْ إليها ثمّ واصلت:

– هو مستعدّ للعقد المدنيّ، ماذا أقول لهم؟، سنصبح جميعاً حديث الأعراس، وربما حديث الرّجال في المقاهي والشّوارع.

– قولي إنّكِ تريدين التّخلّص منّي بأيّ طريقة، كوني صريحة معي أمّي، أخبرتكِ أنّ «منير» ليس فارس أحلامي ولن يكون أبداً... أبداً، هل يُعقل أن أتزوّج شخصاً لا يعرف حتّى كيفيّة كتابة اسمه؟... هل تعرفين أنّ ذكاءه لا يتجاوز درجة حرارة الغرفة؟، أنتِ تتعسّفين في منصبك السّامي كأمّ؟.

ضحكت «صفاء» في تملّق، وسرعان ما أجهضت ضحكتها ناظرة صوب السّماء:

– كيف دخلتِ هنا؟.

وأتبعت في غضب:

– اخرجي الآن، اخرجي، إيّاكِ والعودة حتّى أناديك.

ومدّت يدها نحو طبق الفاكهة.

ما إن خرجت «صفاء» مسرعة حتّى طوت ذراعيها:

– اسمعيني يا فتاة، لن تقنعيني بسردكِ الرّنّان... لن أتعاطف معك... لن تخدعيني.

فيما راحت هي تخدعني خداعاً أبيض كالذي نستعمله مع الأطفال، حتّى يأكلوا شيئاً لا يحبّونه:

– إنّه جارنا؛ نعرفه ويعرفنا منذ زمن، لديه عمل دائم يكسب من ورائه مالاً وفيرا، ربما أكثر من أبيك الذي لا نراه إلاّ في المناسبات، وسيتكفّل برخصة القيادة، وسيشتري لكِ سيّارة أجمل من السيّارة التي وعدكِ بها «المسيو كادار»، ويستطيع إسكانك في فيلا كبيرة لوحدك.

ورفعت سبّابتها اليمنى، ثمّ واصلت في نبرة توسّل:

– ما يثنيك عن الزّواج منه؟، أنا أمّك وأعرف مصلحتك، وستحبّينه فيما بعد.

– هل نلت شهادة «البكالوريا» كي يسجنني في المترل؟.

تفرّست في خالتي وهاجت في وجهها:

– لماذا أتكلّم أنا وحدي وكأنّ الأمر لا يعنيك؟، أم تريدين أن تبقى عانساً مثلك؟... تكلّمي الآن «سميّة»، أنتِ خالتها، أقنعيها، افعلي على الأقلّ شيئاً مفيداً في حياتك.

وركلتها بحركة خفيفة.

قلت في ثقة متأنّية:

– لا أريد أن أتعجّل في قرار مصيريّ كهذا، ما زالت أمامي على الأقلّ ثلاث سنوات في الجامعة، لا تدرين لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمرا، هذا أوّلا.

– وثانيا؟.

– ليست هناك أيّة قواسم مشتركة بيننا، من المستحيلات السّبع أن نسعد في حياتنا، القضيّة واضحة من البداية، ما جدوى الدّخول في متاهات أنا في غنًى عنها؟.

– ما هذا الكلام؟، الرّجل يغار عليكِ ويريدكِ له، هل تريدين أن نقرأ فاتحتكما مؤقّتاً ريثما تتخرّجين؟، الفاتحة فقط، سورة فيها سبع آيات.

ونظرت نحو «ماما سوسو» تلتمس دعمها، لكنّها سرعان ما عادت إلى خداعها الأبيض مجدّدا، وأعرف أسلوب أمّي ذات الوجه المدوّر، حين تريد أن تخدع شخصا.

فجأة رنّ جرس الباب، ثمّ دخلت علينا «ابتهاج» التي ما زال وهج «البكالوريا» في عينيها:

– «سوبرانو».

انفجرت في وجهها:

– لماذا جئتِ الآن؟.

تجاهلت سؤالها عمداً وراحت تستفسر عن صحّتها، فردّت بعصبيّة:

– لست بخير، لست بخير.

وهمّت بالخروج، ثمّ تراجعت:

– أقنعيها أنتِ، ألستِ صديقتها الحميمة؟.

– سبحان الله، قبل عام فقط رفضتِ تدخّلها في مسألة انضمامي للفِرقة الإنشاديّة...

قاطعتني كسيل جارف:

– هذه الفِرقة هي سبب كلّ مشاكلنا، هل تنصتين لي؟... سبب كلّ مشاكلنا.

ثمّ قالت باكية:

– منذ أن كنّا نُعرف في الحيّ وفي البلدة باسم «دار المسيو كادار» «Monsieur KADER»، أصبحنا الآن «دار السّوبرانو»، يا لخيبتي فيك، سأخبر أباكِ بما تفعلينه في غيابه.

– أبي اليابانيّ؟، هل تستطيعين الاتّصال به ليحضر الآن؟، ما زلنا لا نراه إلاّ في المناسبات.

– تذكّري أنّك تتحدّثين مع أمّكِ يا بنت.

ربّتت خالتي على كتفها لتهدئتها، فصاحت في وجهها:

– سينفجر لي عرق في رأسي، هنا هذه الأيّام، سأموت وأرتاح من مشاكلكم، وسترتاحون منّي جميعا.

وأشارت بإصبعها ضاغطة على مساحة تقع فوق أذنها اليسرى.

– اهدئي «مونيا»، «إلهام» فتاة كبيرة...

– ما زالت صغيرة وستبقى صغيرة، ليست لها أيّة خبرة في الحياة، لقد وُلدت بملعقة ذهب، مدلّلة مغرورة متكبّرة جاهلة حمقاء، ويجب عليّ كأمّ إيقاف هذه المهزلة قبل أن تخرج عن السّيطرة.

ثمّ التفتت نحوي كأنّها تقدّم لي خلاصة نهائيّة:

– شكّلي أسرتكِ أوّلاً ثمّ شكّلي العالم.

وخرجت تغلي غلي القدر، بعدما كالت لي كلّ أنواع الشّتائم المنزليّة، فما لبثت «ماما سوسو» أن تبعتها محاولة تهدئتها من جديد، وأصبحت أنا و«ابتهاج» وجها لوجه في الصّالون.

★★★

– ماذا في عينيكِ «سوبرانو»؟.

– أنتِ صديقتي.

– وبعد؟.

– هل ترضين لصديقتك المقرّبة أن تغرق في مستنقع؟.

– لا تراوغيني، أعرف لماذا أُغمي عليكِ في السّاحة، واعرف خلفيّات ما حدث أمام الطّاهي، أنا رادار الثّانويّة، ومن خصائص الرّادار الجيّد التقاط الإشارات مهما بعدت أو ضعفت.

غريب زهدها في القول، رغم أنّها في موضع فخر.

– هل يُعقل أن أتزوّج شخصاً لا يعرف كيف يكتب اسمه، إنّه غير متعلّم يا عالم، ما الذي يجبرني على الارتباط بشخص أمّي ولو كان غنيّا؟، المسألة ما كانت في المال مطلقا.

– باختصار.

– تقول أمّي إنّي متكبّرة ومدلّلة، فلتقل عنّي ما تشاء، هي تفكّر بطريقة غير مناسبة لي، بل تقرّر في مكاني، وكأنّها هي من ستتزوّج، تقول إن أحداً لن يتقدّم لي إذا رفضته، هل يعجز من خلقه عن خلق غيره؟.

ما إن هزّت رأسها مثل بندول السّاعة حتّى انتقلت إلى مستوى آخر من الإقناع:

– إذا تعجّلت الآن وقبلت، سيكون من الصّعب التّخلّص منه مستقبلاً حين يكون بيننا أولاد.

– طبعاً، كلّما كنتِ في مكان أعلى كلّما زادت درجة اتّساع رؤيتك.

– ممتاز، رائعة أنتِ يا «ابتهاج» كلّ الرّوعة، بدأنا نتّفق الآن.

اتّكأت على الأريكة:

– يجب أن يكون فارس أحلامي وسيماً حنوناً متديّنا، محافظاً على صلاته، يحترم المرأة لشخصها، هل رأيتِ كيف ينظر إليّ حين كنّا نمرّ عليه صباحاً ونحن في طريقنا إلى الثّانويّة؟.

– هل رأيتِ نظّاراته الشّمسيّة؟، من المؤكّد أنّه دفع فيها مبلغاً محترما.

– «ابتهاج»... تزوّجيه وأريحيني، يا حفيظ.

– والله لو يقبل لما تردّدت لحظة.

– هل أكلّمه لك؟.

وجمت قليلاً كأنّها تفكّر في الأمر الذي بدا لها مستحيلا مع وزنها، فهمست مباشرة في أذنها:

- إذن ساعديني.

قلتها وأنا أحاول اختصار المسألة برمّتها تفادياً لأيّة فكرة هامشيّة، قد تتخذها ذريعة للتّهرّب من مساعدتي.

- وهذا برهان على أنّي إلى جانبك.

وأرتني صورة الأستاذ حين تبلّل بماء المطر في ذلك اليوم.

- حمقاء، لماذا لم تريني إيّاها من قبل؟، من التقطها له؟، وهذه النظّارات... يا للرّوعة!.

- ليس ذنبي، كلّما أردت الحديث معكِ عنها قلتِ لي «فيما بعد، فيما بعد».

وراحت تلوك العبارة بين أسنانها، متهكّمة بأسلوبي في الكلام.

وعاد لي شريط الذّكريات.

- نحن هنا.

انتبهت لهزّتها العنيفة.

- أخبركِ بمن التقطت له الصّورة؟.

- من؟.

- خمّني.

- آه، لماذا أرهق أعصابي؟، المهمّ أنّه أمامي الآن.

ثمّ نظرت تجاه الباب مشيرة لي بالاقتراب، وبدأت توشوش في أذني.

قلت مستغربة بعدما فهمت كلّ ما يجب عليّ القيام به:

- إنّ كيدهنّ عظيم!.

فرفعت قبضتها نحو السّماء قائلة في زهو وتبختر:

- المجد لنا نحن الفتيات.

30

مؤامرة عيد الفطر

حين تساءلت عن سبب تقديمها لي فستاناً أحمر مزركشا، انفجرت في وجهي غاضبة:

– هل ستقابلينهم بسروال الجينز أم بثياب النّوم؟.

– أقابلهم؟!.

– من سيأتون لخطبتكِ يوم الخميس القادم، هذا الفستان هديّة أبيك، ابتاعه لكِ خصّيصاً لهذه المناسبة بعد التّوصية عليه، انظري... فاخر.

– أبي الذي في الصّورة؟.

وضحكت «صفاء» قائلة وهي ترتّب الأريكة لتجلس:

– أبونا الذي على الحائط.

بدءاً من يوم الأربعاء، أُعلنت في منزلنا حالة طوارئ؛ كميّات من اللّحوم والخضار والفواكه وصلت بناء على طلبات أمّي، أرسلها أبي من مقرّ عمله، بالهاتف دون أن نراه أو نرى عمّي «خالد»، وخالتي هنا، معتكفة في منزلنا منذ أيّام، وأنا حائرة تخرسني الدّهشة، في ظلّ فشل مساعي وزيرة سعادتي في التّدخّل، لأوّل مرّة في التّاريخ.

يبدو أنّهم مصرّون جميعاً على إفساد فرحتي بشهادة «البكالوريا».

★★★

يوم الخميس وقبل صلاة الفجر، كنت أسمع من غرفتي أصوات القدور والملاعق، ولمّا توجّهت إلى المطبخ لتناول فطوري المعتاد، عاجلتني أمّي عند الباب قبل تحيّة الصّباح:

– لَمَ أنتِ شاحبة الوجه هكذا؟، سيقولون إنّكِ تعانين من الأنيميا.

لم تترك لي فرصة النّظر نحو «ماما سوسو» لأرى ردّ فعلها:

– هل أقول لهم لا داعي لقدومكم؟، سيسألون عن السّبب، افهمي يا بنت... موقفي ضعيف.

– لكن أمّي؟.

– أمّي ماذا؟، أمّي ماذا؟، كفّي عن عنادك، إلى متى هذا الطّيش؟، أنتِ تكبرين.

كدت أسمع صرير أسنانها وهي ترمقني بعيني نمر.

كلّهم كانوا هناك إلاّ أبي الذي ما زال على الحائط.

من غيظي بقيت صامتة أنظر إلى «ماما سوسو» والدّموع تخنقني خنقا، بعدما اعتقدت أنّي استنفدتها اللّيلة الماضية، بينما واصل الجنرال إصدار الأوامر بيد تقرع ما وضعه القَدر أمامها:

– اهتمّي برائحتكِ وانتبهي لحديثك؛ لا تمازحيهم ولا تثرثري معهم، حسبكِ ما قلّ ودلّ، لا تكثري من الزّينة؛ أشياء خفيفة فقط وركّزي على الكحل وأحمر الشّفاه، حين تدخلين بصينيّة القهوة سلّمي بصوتٍ خافتٍ، خافتٍ جدّاً، وعيناك في الأرض... تذكّري ذلك.

وحين لم أعرها اهتماماً، صرخت بقوّة ارتجّت لها الكؤوس:

– مفهوم؟.

هززت رأسي إيجابا، بينما نظرت هي نحو «أيّوب» وكأنّه كان التّالي على القائمة:

– والله... سألقيك من النّافذة إذا سمعت صراخك، كفّ عن إحداث الضّوضاء، أقولها وأكرّر، كفّ عن جنونك، أنا أحذّرك «أيّوب»، لا تفضحنا أمام زوج أختك.

تضخّم ذهولي وخامرني شعور سلبيّ؛ يبدو أنّها رتّبت كلّ شيء وراء ظهري، وسأزُفّ إليه عنوة.

ثمّ فجأة نقلت عينيها ناحية اسم آخر كان في القائمة:

– احذري ما تتفوّهين به، لا تقضمي أظافرك أمامهم كالبلهاء، لا تأكلي بلهفة وتسرّع، بضع ملاعق فحسب، أنتِ معي «صفاء»؟... امضغي اللّقمة جيّداً قبل بلعها، ولا تلطّخي السّجّادة.

كانت جدّتي تتجوّل بنظراتها وهي تمضغ ببطء، كأنّ الأمر لا يعنيها، لا من قريب ولا من بعيد، فقلت لها متوسّلة:

– لماذا لا تتدخّلين في الموضوع؟، ألستِ جدّتي؟، ألستُ تفاحة المنزل التي لا يجب أن تُمسّ؟... ألستِ تعيشين معنا؟.

– أمّك وتعرف مصلحتك.

وراح فكّها يسحق ما تناولته قبل أن تلقي في وجهي كلماتها، في حركة ميكانيكيّة تشبه حركات القاطرات العتيقة.

– والله ستحاسبون جميعاً يوم القيامة، والله الذي لا إله إلاّ هو ستمرّون جميعاً على الصّراط، وستتخطّفكم كلاليب جهنّم، تذكّروا هذا جيّداً... أنا لن أغفر لكم ما تقترفونه في حقّي.

– أنا ما زلت صغيرا.

– أنت بالذّات لا تتكلّم معي... أين قناعك؟.

ورحت أفرغ ما تراكم بداخلي من غضب، ثمّ رجعت إلى التّوسّل حين لم أفلح:

– تعاطفوا معي ولو بكلمة على الأقلّ، عسى الله أن يرفع عنكم إثم الخذلان.

ما إن لاحت على وجه أخي الصّغير أمارات التّعجّب حتّى بادرته:

– «أيّوب» حبيبي، ألست الحارس الذي لا يهادن الشرّ؟.

كاد يقول شيئا، غير أنّ عبارات أمّي كانت أسرع إليّ:

– لا تستفزّيني، لست عدوّتكِ يا حمقاء، أنا أمّك ويجب أن تغادري هذا المترل يوماً ما إلى مترل آخر.

– هل صحيح إذا بقيتِ هنا ستتأكسدين مثل تفاحة؟.

بفم امتلأ بمزيج من القهوة والخبز تفجّرت ضحكة مدوّية من «صفاء»، حتّى كادت تختنق، لولا جدّتي و«ماما سوسو» اللّتان وجّهتا لها ضربات خفيفة على الظّهر متناوبتين، وهما تبسملان وتحوقلان، فيما نظر لي «أيّوب» بحدّة وهو ينتظر جواباً على سؤاله، ثمّ غيّر نبرته قائلا:

– ليس مهمّا... أخيراً سنتخلّص منكِ ويبقى التّلفزيون لي وحدي.

وشرب كأسه دفعة واحدة، ثمّ أردف ماسحاً ما علق بشفتيه:

– ما زلت لا أفهم لماذا لا تتركوني أضعه في غرفتي أو تشتروا لي واحدا؟، هل هذا صعب أم سيكلّفكم كثيرا؟.

ثمّ أمرت «صفاء» التي أصبحت عيناها مغرورقتين الآن بدموع تعوقها عن الإبصار:

– مشّطي لها شعرها، أنا وخالتك سنكون مشغولتين مع الضّيوف.

ونظرت لي بعيون متّقدة، وهي تهزّ إصبعها محذّرة:

– سيأتون على الحادية عشرة تماما، ستقدّمين لهم بعض الحلوى الخفيفة مع القهوة وبعض العصير، في انتظار تجهيز مائدة الغداء، لن أعيد كلامي ثانية، من أقنعكِ أنّك بلغتِ مرحلة تستطيعين فيها فعل ما تشائين؟، أنا من سيرسم لكِ مصيركِ الآن، توقّفي عن إثارة أعصابي، توقّفي الآن، شووووت... ولا كلمة.

وغادرت المكان بمزاج يشبه ماء البركة الموحل.

31

لا سلام مع الصّيّادين

تقترب السّاعة الآن من الحادية عشرة صباحاً.

بدأت الزّغاريد تُسمع جليّاً أمام منزلنا، ثمّ رنّ جرس الباب فخفق قلبي.

أومأت لي أمّي بالذّهاب كي أحضّر نفسي، كنت جاهزة تقريباً، تنقصني بعض اللّمسات الخفيفة، ومتوتّرة جدّاً أمام المرآة، حيث انعكست صورة «صفاء» وهي تطمئنني بروتوكوليّا:

– خطبة غير رسميّة، باستطاعتكِ الرّفض، لا تتوتّري «إلهام».

فقلت بإصرار وأنا أغلق أزرار الفستان:

– والله العظيم لن أتزوّجه مهما فعل من أجلي.

فقالت «صفاء» بمكر واضح على وجهها:

– كوني مهذّبة مع أسرة زوجك.

جملة استفزّتني كي ألتفتَ إليها مستنكرة لامبالاتها الطّفوليّة، فعاجلتني:

– ستنتحرين مثلما نراه في أفلام السّينما؟، يا سلام... ويبكي الجميع عليك بالمناديل.

وأنا أجلس ثانية أمام المرآة، وشوشت لها:

– من أجل ميكانيكيّ لا يتجاوز ذكاؤه درجة حرارة الغرفة؟.

أرجعت المشط إلى مكانه متحمّسة:

– إذا كنتِ تخطّطين للهروب من النّافذة فسأساعدك في النّزول، ما فائدة الأخت إذا لم تساعد شقيقتها في ظروف صعبة كهذه؟!.

– لن أهرب... هم من سيهربون.

ارتسم على وجهها اهتمام بسيط، بدأ يتعاظم كلّما مرّت الثّواني و لم أجبها بشيء.

– آهٍ لو تعرفون ما ينتظركم؟...

ما كدت أكمل جملتي في نفسي، حتّى دخلت خالتي فجأة علينا تستعجلني بحركة تشجيعيّة من يدها:

– هيّا «إلهام»، لا تتركيهم ينتظرون كثيراً.

ثمّ أمسكت بكتفي وقد لامست نبرتها نبرة الدّيبلوماسيّين:

– لن يجبرك أحد على الزّواج، الرّأي الأخير لكِ وحدك، وسيبقى لكِ وحدك، هذه حياتك الخاصّة، سبحان الله!.

نهضت من مكاني:

– تذكّرا شيئاً واحداً سيكون هامّا لكما، لست أنا من بدأت الحرب، لكن أنا وحدي... من ستنهيها.

تبادلتا النّظرات، وعلامات الضّياع والحيرة مرسومتان على وجهيهما رسما، وقبل أن تتكلّم «ماما سوسو» قلت:

– يقولون إنّ القهوة مفيدة جدّاً للبشرة، هل الصّينيّة جاهزة؟.

واقتحمت المطبخ، لأجد «أيّوب» يتناول المثلّجات، وقد وضع أمامه قناع «باتمان».

ما إن رآني حتّى قال بحماسه المألوف:

– أعلم أنّكِ لستِ راضية، لست مغفّلا يا أختي، لو احتجتِ مساعدة من أيّ نوع لا تتردّدي، «باتمان» هنا في خدمتك، أنا الحارس الذي لا يهادن الشرّ، لن أتخلّى عن مبادئي.

– كن جاهزاً للتّدخّل؛ هم من سيكونون بحاجة للمساعدة.

– إذن سأحضر الرّداء الأسود.

وانطلق راكضا.

– آهٍ لو تعرفون ما ينتظركم؟، سأجعلكم تندمون...

ورحت أكرّر ذلك مجدّداً في نفسي استئناسا، وأنا أرى خلسة حاشيته التي جلست متربّصة في الصّالون، مسرورات كأنّهنّ نجحن في اصطياد حمامة.

★★★

دخلت مطأطأة الرّأس دون إلقاء السّلام، أسير في خطوات متقاربة متثاقلة، متظاهرة بالحياء، وما إن رأتني أخته حتّى قفزت نحوي تريد تقبيلي عنوة، وتبعتها أختها الثّانية، لكنّ اندفاع أمّه نحوي بدّد طاقتهما:

– يا سلام على عروستنا القمر، الله أكبر، الله أكبر.

– الله أكبر عليكم، هل تظنّين أنّي أضحية العيد؟.

أرادت تغطية جزعها بابتسامة صفراء، فاستغلّيت تراجعها إلى الخلف وتظاهرت بالتّعثّر بطرف فستاني، وألقيت على وجهه وملابسه البيضاء الجميلة، كلّ ما ثقلت به الصّينيّة.

ثمّ اقتحم «أيّوب» الصّالون في حركة بهلوانيّة، مرتدياً بزّة «باتمان»، ممّا زاد من ارتباكهنّ؛ فراحت إحدى شقيقتيه تصرخ طالبة النّجدة، بينما أرادت الأخرى الفرار، غير أنّ «أيّوب» كان قد سدّ مدخل الباب رغم جسمه الضّئيل، فبدا كقطّ شرس استُنفر من هجوم كلب عليه.

عمّ المكان هدوء حذر.

ثمّ انصرفوا كلّهم دون كلمة واحدة، بعدما تبادلوا بعض الإشارات البصريّة، آخذين معهم باقة الأزهار، وألقت التي كانت تطلب النّجدة قبل قليل نظرة حائرة على «أيّوب»، وهي تمرّ بجانبه مرتعشة.

كان وجه الميكانيكيّ كالحا، ممتقعاً بلون أحمر يشوبه سواد، وهو يواجه سهام نظرات والدته المصون.

32

الأرنوبة!

وانسحبت إلى غرفتي وعلى رأسي إكليل الغار...

ألقيت الفستان الأحمر فوق الخزانة، ثمّ ارتميت على السّرير أحدّق في الثّريّا وكلّي اعتزاز، وكأنّني تخلّصت من شرّ تأبّطني طويلاً أو أراد.

توقّعت أن يأتي إليّ أحد ليضربني... ليحاورني على الأقلّ، لكن هيهات، سكون مريع يعمّ المكان، فاستسلمت للنّوم.

★★★

عندما سمعت أذان الظّهر، خرجت متوجّسة نحو الحمّام للوضوء؛ بدا الصّالون مليئاً بالأشباح، لم أُعر أيّ شيء من هذا انتباهي، بل صلّيت وسبّحت، ثمّ توجّهت بعدها إلى المطبخ.

لكن... أين اختفى الجميع؟.

ثمّ تركّز اهتمامي على الجوع المفاجئ الذي بدأ ينهشني نهشا، وكأنّه انتقام آخر من المتعاونين مع الصّيّادين، فرفعت الغطاء عن القدر الأوّل والثّاني والثّالث، وأكلت كلّ ما شئت، مستغربة من شدّة شهيّتي المفتوحة على غير العادة، ثمّ تناولت عدّة موزات، وعدت إلى غرفتي مثل إوزّة.

شهيّة مفتوحة كهذه، ستجعل أيّة واحدة في مكاني تغطّ في نوم عميق مجدّدا.

السّاعة الآن السّادسة مساء.

استيقظت على صوت أمّي المرتفع وهي تحكي بحسرة لأبي الذي هاتفها مستفسراً عمّا حدث، وسمعت صوت ضحكته التي أميّزها من بين آلاف الضّحكات.

– هل في الأمر ما يضحك يا رجل؟، هل تعلم أنّ ابنتك المدلّلة ستظلّ عانساً مثل أختي، تماماً مثل أمّها سوسو، واضحك ساعتها قدر ما تشاء.

وأغلقت الخطّ في وجهه، وهي تمسح عينيها من بقايا دموع بدت لي نادمة على ذرفها.

منذ تلك الحادثة، أصبحت تتحاشاني.

وطال خصامها أسبوعاً كاملا، بل حتّى جدّتي، كلّما نظرت إليّ انتشرت على تضاريس وجهها معالم الغرابة فحوقلت.

أمّا «صفاء» فكانت تردّد كلّما رأتني أمامها متعجّبة:

– يا أرنوبة!.

كنت كالتي تتنفّس تحت الماء، حتّى واجهتني «ماما سوسو» بقولها مرّة وهي تعلّمني تحضير بعض الحلويّات:

– خطّة «ابتهاج» أليس كذلك؟، أنتِ ساذجة «إلهام»، أعرف جيّداً كيف تفكّرين أكثر ممّا تعرفه «مونيا» عنك، أنسيتِ أنّي خالتك؟.

هززت رأسي إيجاباً، متحسّرة ومحاولة مداراة ما اعتراني من حرج، بتنظيف شرشف المائدة الذي اتّسخ بآثار البيض، منتظرة منها مزيداً من التّوبيخ الجميل.

ثمّ تملّكتني شجاعة الكلام، فاستعطفتها:

– والله يا «ماما سوسو» لو لم تكن صادقة معي لما نفّذت خطّتها، ولما اتخذتها صديقة منذ البداية.

هزّت رأسها توافقني وهي تحاول ضبط قوام العجينة، بعد أن عمّت رائحة الخميرة المكان:

– أعرف، «ابتهاج» فتاة صادقة نقيّة القلب، على كلّ حال يبقى كيدنا عظيماً نحن النّساء.

ثمّ نظرت وراءها في توتّر، ورفعت قبضتها المتّسخة ببقايا الدّقيق، قائلة بصوت خافت:

– المجد لنا نحن الفتيات.

★★★

لحظة...

قبل ذلك، وفي مساء متأخّر من يوم الخطبة، هاتفتني «ابتهاج» مستفسرة عمّا حدث، فأخبرتها أنّي نفّذت الخطّة التي رسمتها لي بحذافيرها، بعد أن استنفدت كلّ أشكال المعارضة السّلميّة، معربة في الوقت ذاته عن قلقي الشّديد من ردود الأفعال المرتقبة، ثمّ حمّلتها المسؤوليّة في لحظة غضب، حين احتدم النّقاش بيننا، فصرخت بي:

– نعم؟، هل فكرة الرّفض فكرتي الشّخصيّة؟.

– أنا الدّجاجة التي سيُنتزع ريشها نزعا، وأنتِ سبب كلّ هذه التّراجيديا.

– لن يلمسك أحد، لكِ كلّ الضّمانات.

– عن أيّ ضمانات تتحدّثين؟، أنتِ لا تعرفين أمّي جيّدا.

– وداعاً «سوبرانو»، نلتقي في الجنّة.

وأطلقت ضحكة رنّانة انقطعت بإقفال الخطّ.

ما تراني أفعل وقد خرج الموضوع من يدي؟، ثمّ أمذنبة أنا إذا دافعت عن حقّي في الاختيار؟.

وأظل أبحث في داخلي عن شيء ما أهرب به من ضميري الذي استيقظ... فأرى متاهة.

أجمل شيء قمت به هو أنّي قرأت آية الكرسيّ ونمت، موكّلة أمري إلى الله.

لم تضربني أمّي ويا ليتها فعلت وانتهى الأمر:

– والله الذي لا إله إلاّ هو لن تري منّي ديناراً واحداً بعد الآن، ولن تذهبي معنا للتّخييم، أنتِ وحليفك الأحمق، ستبقيان هنا تحرسان المنزل، وإذا دخل أحدهم ألقي عليه الصّينيّة، اتّفقنا «سوبرانو»؟.

فيردّ عليها خفية:

– لا عليك أختي، سينتصر الخير في النّهاية.

اشتدّت مأساتي شدّة إعصار استوائيّ، فقد سبّب لي حصار أمّي الاقتصاديّ أضراراً فادحة لم تكن في الحسبان، كما علمت أنّها هدّدت بترك المنزل لو تدخّل أبي، وحتّى «صفاء» المرعوبة منها، فرّت من أمامي كالدّجاجة نحو غرفتها، ذات ليلة مدّعية العوز:

– من أين آتيك بالمال؟، ألا ترين أنّي فقيرة مثلك؟... يا ساتر.

وراحت تردّد منسحبة:

– لله يا محسنين... لله يا محسنين.

ولجأت إلى العادل الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرّة، أدعوه في ساعة سَحَر أن يعفو عن ذنوبي، التي أعلمها والتي لا أعلمها، سبحانه العليم بكلّ شيء.

– شوووت.

كانت الورقة النّقديّة دافئة جدّاً حين داعبت باطن يدي.

33

ثمن العصيان

أنا الآن أعيش حياة جديدة ذات وجهين.

قُبلت رغبتي الأولى كمنتسبة إلى كلّية اللّغات الأجنبيّة، تخصّص «إسبانيّة»، بينما قُبلت رغبة «ابتهاج» الثّانية في شعبة «الإعلام والاتّصال».

قالت «ابتهاج» عندما أتممنا التّسجيل في المنحة الجامعيّة:

– يا سلام، الآن فقط أستطيع أن أشتري ما أشاء من البيتزا، سآكل كلّ الأنواع.

ولمحت شيئاً من لعابها على شفتها السّفلى.

تصنّعت ابتسامة مجزية على وجهي، في انتظار أن يُفتح المضيق.

ومرّت الأيّام وطالت فترة العقوبة، حتّى تشاجرت «ماما سوسو» مع أمّي ذات ليلة شجاراً صريحا، وطغت أصواتهما في أرجاء المنزل:

– ماذا دهاكِ «مونيا»؟، أيّ عقاب هذا؟، هل تدفعينها للحصول على المال من مصدر خارجيّ الله وحده يعلم هويّته؟، أنتِ تعرفين أنّ صرف أوّل منحة لها سيكون في ديسمبر، وربما ستتأخّر شهراً إضافيّا، وحسابها البنكيّ الذي فتحه أبوها باسمها، لا يمكن سحب أيّ دينار منه، من أين ستأتي بالمال إذن؟، ابنتكِ لم تعد طفلة، ابنتكِ الآن لديها مصاريف، لديها مواصلات...

قاطعتها بحدّة:

– كفّي عن الدّفاع عنها، أنتِ تدركين السّبب جيّدا، لا تناقشيني في هذا، أنا من ولدتها وأنا من أتّخذ القرار، تمرّدها سيؤدّي بنا إلى الكارثة، ومن واجبي أن أمنع الكوارث عن بيتي، أوليس هذا من حقّي أيضا؟.

– أرأيتِ ما تقولين؟، هي ابنتكِ إذن، وستبقى ابنتكِ مهما أخطأت.

اعترضت كلماتها متوسّلة:

– دعيني الآن، صدري مثقل...

فقاطعتها بدورها في حزم:

– لا تتركي الشّيطان يفرّق بينكما، سيسهل عليه افتراسها فيما بعد، وحينئذ سيتضخّم المشكل، ويتوسّع إلى حدّ لا يستطيع أيّ طرف التّحكّم فيه.

– اتركيني «سميّة»، أعرف جيّداً ما أقوم به، كما أعرف أنّك أنتِ من تعطينهما المال، لست نائمة في جرّة عسل.

تسلّلت إلى محاكمتي الغيابيّة:

– «مونيا»، فكّري في المسألة من زاوية أخرى، لا تكوني متسلّطة، حاولي الاقتراب منها أكثر، لتفهمي ما الذي يحدث داخل عقل مراهقة، كوني واقعيّة، اجذبيها إليك، «إلهام» فتاة حسّاسة، لا تصدّيها، غضبكِ هذا سينفّرها منكِ ويزيد الطّين بلّة.

– بل أنتِ العاطفيّة، والعاطفة تفسد أكثر ممّا تصلح.

– هل تقصدين أنّي أدلّل...؟.

– الله على عقلك.

وراحت تشير بيدها عشوائيًا، في حركة عصبيّة كعادتها.

– أنتِ نشأتِ في بيئة وهي تنشأ الآن في بيئة مختلفة، بالله عليكِ «مونيا»... بالله عليك، هذه ابنتك الكبرى، «بثينة» هربت من المنزل تحت الضّغط، تذكّري هذا جيّدا، وأنتِ تعرفين أنّ ألسنة النّاس تتحرّك دون أن يعوقها شيء.

وجلست على أقرب أريكة متنهّدة:

– العالم سيّء بما يكفي ويزيد.

تعجبني خالتي حين تتحوّل إلى محامية مخضرمة، ترافع عن الحقّ المهضوم أمام خصم عنيد، هو القاضي والجلاّد.

وينفضّ النّقاش، ليتكرّر من جديد وليسفر عن نفس النّتائج، حتّى فكّرت في الذّهاب إلى مكتب أبي ليتدخّل، ممّا دفع أختي «صفاء» إلى القول ضاحكة:

– أبونا على الحائط، وسيبقى على الحائط، ولن ينزل أبدا، انسي الأمر «سوبرانو».

ثمّ أكملت وهي تنظر لي متحدّية على غير عادتها، وبنبرة أقرب إلى التهكّم:

– أذكّرك... لقد وجّهت له تحذيراً رسميّاً بترك المنزل لو أعطاكِ ديناراً واحدا، وأنتِ تعرفين أمّي جيّدا، سائل سريع الالتهاب.

★★★

وناءت بي الظّروف الجديدة عن «ابتهاج»، صديقتي الحميمة، بحكم اختلاف الاختصاصات وأوقات الدّراسة، فصار الهاتف هو الرّابط الوحيد بيننا.

نعم... انتقلت إلى الجامعة مثلما انتقل معي هوس تكوين فرقة إنشاديّة، وبتّ أتحيّن الفرصة المناسبة، لم أستطع نسيان ما غرسه الأستاذ فينا، وكأنّني أردّ به جميلاً تكرّم به علينا في العام الماضي.

«الفنّ يغيّر المجتمع، فاجعلنه صحّيّا»، «كلّ شيء يحمل الجمال هو زراعة عميقة في النّفس، وعمليّة تغيير مستقبليّ للأفكار»، «النّفس تحبّ الجمال وترنو إليه، فيُزرع في لاوعيها كلّ ما احتواه هذا الجمال».

هذه هي عباراته التي ما زلت أحفظها عن ظهر قلب.

فقدت مصروفي اليوميّ، وفقدت كلّ سبب منطقيّ للاتّصال بالأستاذ الذي كان يملأ عليّ حياتي.

– لماذا لا تتخذين نجاحك في «البكالوريا» ذريعة وتتّصلين به؟، لم يكن...

– فات الأوان، سأبدو سخيفة.

هذا ما أتشبّث به أمام «صفاء»، ونحن نرى حسابه على «فيسبوك»، بعد تنشيطه.

أتجلّد متذكّرة كلامه لنا ذات يوم:

– الفتاة جوهرة ثمينة، ويجب أن تبقى كذلك، رغم كلّ التّحدّيات التي تواجهها في الحياة.

كان يقول ذلك متحرّكاً في مساحته الخاصّة دون أن يتجاوزها، بالنّصح والإرشاد، فيحثّنا على السّتر والعفّة في القول والفعل، لأنّ القانون لا يسمح له بالتّدخّل في شؤون تحدث خارج المؤسّسة التّربويّة.

وزاد تشوّش ذهني، وأنا ألمس عجزي كقعيدة على كرسيّ متحرّك، وزادتني صورته تحت المطر غمّاً على غمّ.

في المقابل...

هل تصدّقون أنّ الميكانيكيّ ما زال يحاول إقناع أمّي بتوقيفي من الجامعة؟.

سمعته بأذني يقول لها عند المدخل ورائحة التّبغ تنبعث حوله إنّي أضيّع وقتي ووقته.

ولمّا أحس بخطواتي هرب.

– آه يا «صفاء» لو أمسكته، والله لأركله ركل الكلاب.

فتنفجر ضاحكة.

– الوقح، هل تعرفين سبب قدومه؟.

فهزّت رأسها نافية وهي تمسح عينيها من دموع الضّحك الهستيريّ فاستطردت:

– طلب تأجير محلّ من المحلاّت المغلقة لدينا، وكأنّ كلّ محلاّت المدينة لم تعجبه!، وقاحة «سعاد»... أتذكرين؟، هل يجب الآن أن أحمل معي صينيّة أينما ذهبت؟.

وبلغ السّيل الزّبى، حين أرسل من يتعقّبني في الطّريق.

– التّجاهل وحده هو الذي يعيد كلّ شخص إلى حجمه الطّبيعيّ.

هذا ما تهدّؤني به «ماما سوسو»، وهي تعطيني مصروفي اليوميّ.

– ما يغيظني أنّكنّ ذهبتنّ إليهم معتذرات، وتركتموني وحدي في البيت، من يجب عليه الاعتذار من الآخر؟.

– «إلهام»!، لنكن واقعيّات، تصرّفكِ معهم فظيع، مجرّد التّفكير فيه يملأ القلب رعبا، لقد رأيت نظرات الغضب في عينيه، إهانة ما بعدها إهانة، له ولعائلته، أيّ رجل يقبل هذا؟.

– لا أكترث «ماما سوسو».

– يجب أن تدركي العواقب، أنتِ في الجامعة الآن.

– أرأيتِ أمّه؟، كأنّ البيت بيتها، ثمّ «ماما سوسو»... منطقيّا... هل رأيتِ كيف يتصرّفن نحوي؟، هل رأيتِ نظراته؟، وكأنّهم جاؤوا لاصطياد حمامة.

– حمامة؟.

– لا سلام مع الصّيّادين.

– أنتِ كالتي تسير وعيناها في السّماء، وحين تصطدم بشيء تقول مندهشة؛ «ما الذي وضع هذا في طريقي؟!».

– أمّي تفتعل المشاكل.

لم أتركها تكمل رسم تعجّبها على ملامحها الجميلة، وواصلت باعتزاز متذكّرة مجدي السّابق:

– أنا أعيش معكم في سلام منذ أن جئت إلى هذه الدّنيا، هل سمعتم عنّي يوماً شيئاً يغضبكم؟، أذكّركِ «ماما سوسو» أنّي لا أتحدّى سلطتها، ولا أتقمّص دور الضّحيّة، لكنّها لم تترك لي فرصة التّعبير السّلميّ، هل تلومينني الآن على ردّ فعلي؟.

– كان لا بدّ من الاعتذار عن فعلتكِ.

– يجب على التّفّاحة أن تقاوم رغم أنّها في النّهاية... ستُؤكل.

انفرجت أساريرها لثانيتين، ثمّ عادت إلى جدّيّتها شيئاً فشيئا:

– تخيفينني بأفكارك الثّوريّة.

فرحت أستعطفها بصوت منكسر:

– أقنعيها أنّي لا أريده، من فضلك «ماما سوسو»، أنتِ وزيرة سعادتي، ويجب أن تظلّي في منصبك، أنتِ من أقنعتها بفكرة انضمامي للفرقة الإنشاديّة، والحمد لله لم أخيّب ظنّكِ مطلقا، على فكرة... أنا مشكلتكم على المستوى التّطبيقيّ، فحلّوني بالتّراضي.

قلت جملتي الأخيرة منكّتة، تخفيفاً للجديّة التي أضحت تحاصرنا، فأطرقت برأسها وراحت تضمّني في حنوّ وهي تربّت على ظهري.

34

حديث مع الملائكة

أرى سقف غرفتي يتّضح لي تدريجيّا، ويسكن رأسي ألم خفيف ودوار.

كانت السّاعة تقترب رويداً رويداً من منتصف النّهار، وكلّما يمرّ الوقت أدرك أنّي نمت منذ البارحة، نعم منذ... آه... بسبب الحقنة المهدّئة التي أعطتنيها الطّبيبة، في ذلك المساء المشؤوم.

نبتت في منزلنا شجرة حزن ضخمة، سرعان ما راحت تغرس جذورها إلى أسفل، فتزعزع كلّ شيء في أسرة «المسيو كادار»، التي كانت محطّ أنظار سكّان مدينتنا.

وتلاحقت الذّكريات.

★★★

– اسمها «عائشة»، ووالدها أستاذ فيزياء في الثّانويّة، على وشك التّقاعد، أمّا أمّها فمعلّمة في المدرسة الابتدائيّة.

هذا ما سمعت أمّي تقوله لخالتي، بفرحة تأخذ منها أنفاسها، بينما راحت «صفاء» تصيح متمايلة:

– وأخيراً سيتزوّج عمّي الكونت «خالد»، وأخيراً سأرى الكونتيسة.

وأطلقت زغرودة في طول قطار نقل البضائع.

تعرّف عليها خلال مهمّة أرسله أبي فيها إلى «تيميمون»، لتنظيم رحلة لسوّاح أجانب في العام الماضي، ولا أخبار بعدئذ عن الطّريقة التي سارت بها الأمور، وكم كانت فرحة أمّي عظيمة بإنجازه التّاريخيّ، وكأنّه هو من اخترع الطّائرة:

– الحمد لله، لقد أتمّ نصف دينه، الآن هو مستقرّ، وباستقراره تستقرّ العائلة أكثر، لو تُنسيه التّدخين... لقامت بأكبر إنجاز في حياتها.

ورفعت يديها إلى السّماء متضرّعة.

ظننت لوهلة أنّها نسيتني، غير أنّ «ريمة عادت لعادتها القديمة».

– بقيتِ أنتِ فقط و»إلهام»، أريد رؤية أولادكما... أحملهم بين ذراعيّ، أريد أن أرى بعينيّ هاتين أولاد تلك المدعوّة «صفاء».

توجّهت بالعبارة إلى خالتي.

– و«لوكا» القطّة.

أشاحت أمّي وجهها عنّي، مستغربة هذا المزاح السّمج.

يا للحمرة التي اكتسحت وجه «ماما سوسو» الجميل!، صبيّة متورّدة الخدّين أمامي وقد باغتتها نظرات المعجبين.

وتمّ الأمر بسرعة قياسيّة، وفي شقّة واسعة اشتراها على مسافة ثلاثين كيلومتراً التئم فيها شمل الشّمال والجنوب، وتحوّلنا نحن إلى مخلوقات ليليّة مدّة أسبوع كامل، قضيناه في الرّقص والغناء.

بعد شهر ونيّف، بدأ أبي يفقد زبائنه شيئاً فشيئا، فقد كان عمّي «خالد» ذراعه الأيمن لسنوات طوال.

تقول أمّي إنّه من الضّروري الآن إيجاد من يحلّ محلّ هذا الذي انشغل بعروسه ليل نهار، لكن هذه الخطوة على بساطتها وإيجازها تعدّ أمراً مستحيلا؛ أين سيجد أبي اليابانيّ من يشبهه؟!.

لم يساعده سوى عمّي «المحجوب»، كبرهان على صدق احتفاظه بعشرة أطيب من ريح المسك، فوفّر له سكرتيرة مناسبة تماماً لشروطه، بصعوبة ماثلت صعوبتها هي في التّخلّص من ربّ عمل لا يقدّر جهدها، فقد استُغلّت بشكل أقرب ما يكون لاستغلال العبيد، ناهيك عن راتبها الضّئيل، الذي يتأخّر في أحيان كثيرة لأكثر من شهرين.

«بشرى»... ابنة السّبع والعشرين ربيعا، التي سيغدو لها في أسرتنا شأن... وأيّ شأن!.

وفجأة ينقلب كلّ شيء رأساً على عقب.

★★★

كنت في الصّالون أحاول العثور على برنامج تلفزيونيّ يبدّد كآبتي، حين سمعت صراخ «صفاء»، اعتقدت في البداية أنّها كسرت شيئاً ثمينا، فأرادت التّخلّص من تبعاته قبل اكتشاف أمرها، لكنّها راحت تنادي أمّي بنبرة صوت حملت كلّ أشكال الذّعر والتّشتّت الذّهنيّ، فأسرعت نحوها، لأجد أمّي ساكنة على الأرض تنظر إلى السّماء، والرّعب يجتاح كلّ ذرّة في جسدينا.

– ما بها؟، انظري... لماذا هي شاخصة هكذا ببصرها إلى الأعلى؟.

– ساعديني على نقلها إلى غرفتها.

لم أتمّ عبارتي حتّى أغمضت عينيها، ثمّ فتحتهما بصعوبة، وراح صوتها يتلاشى بطيئاً، ثمّ غمرها عرق غزير، وتحوّل صوت تنفّسها إلى حشرجة.

في هذه اللّحظة تحديداً، أدركنا أنّ شيئاً خطيراً أصابها، فهرعت «صفاء» لطلب الإسعاف، وبقيت أنا معها أمسك بيدها، مخافة أن ترحل روحها البيضاء على حين غرّة.

أردت مناداة جدّتي، لكنّ تشنّجاً قويّاً أصابني، ثمّ استعاد لساني توازنه، وعكفت على ترديد الشّهادة، فأمسكتها ضاغطة كي أمنع روحها من المغادرة، فتغيّر لون وجهها من الشّحوب إلى الامتقاع.

صرخت بكلّ ما في صوتي من قوّة، ربما يُبقيها الصّراخ معي، غير أنّها بدت لي وكأنّها تكلّم الملائكة، وعندما رأيت الطّبيبة تدخل مسرعة رفقة ممرّض معها استبشرت.

لقد أتت من ستعيد لي أمّي... لقد أتت من سترجع إليها الحياة... لقد أتت من بيدها خيوط اللّعبة.

لكنّها عجزت...

من اعتقدت بلاهتي أنّها المتحكّمة في السّيناريو خذلتني، حين تسارع كلّ شيء تلقائيّاً رغم توسّلاتي، فلم يتسنّ لي فهم ما الذي حدث بالضّبط.

نظرت الطّبيبة إليّ مشفقة وأغمضت لها عينيها المفتوحتين بيدها اليمنى مستسلمة للأمر الواقع، وكأنّها تسدل السّتار على عرض مسرحيّ استمرّ سنوات، عرض مثير طويل لمسيرة حافلة من حياة أمّي الوادعة:

- انتهى كلّ شيء يا ابنتي، فليرحمها الله برحمته الواسعة.

ورأيت الدّموع تتلألأ في عينيها وهي تخاطبني بنبرة تشبّعت بكلّ أشكال الاستسلام.

- ألستِ طبيبة؟، لماذا لا تستطيعين فعل شيء لها؟، ما فائدة دراستك؟.

اكتفت بتأمّلي باكية، وقد زاد إشفاقها عليّ فراحت تضمّني إلى صدرها، لكنّي دفعتها عنّي حتّى كدت أسقطها أرضا:

- كنتِ تدرسين أم كنتِ تضيّعين الوقت مع عشيق؟.

كانت الصّدمة هي من تضع الكلمات على لساني، وتصوغ لي عباراتي، صياغة ليست أقرب إلى الإهانة فحسب، بل للكفر أيضاً منها للإيمان.

35

شجرة الحزن

لم تتحكّم جدّتي لمّا نزلت من غرفتها متعوّذة سوى في أنينها المكبوت، لكنّه تضاعف بتوافد الجارات اللّاتي اتّفقن على عبارة واحدة تتكرّر، حتّى أضحت كالمطرقة فوق رأسي:

– أمّ «إلهام السّوبرانو» ماتت.

– أزمة قلبيّة... دفنوها البارحة عقب صلاة العصر.

هذا ما ألقته «ماما سوسو» قرب أذني، وهي قابعة أمام سريري، محاولة كبح ما خالت أنّها تسيطر عليه من دموع على وجهها الجميل، الذي صار الآن يشبه كثيراً وجه أمّي.

لقد مات لي أحنّ حضن عرفته في التّاريخ... انهار سور حمايتنا، دون مقدّمات.

– ماتت بسببي؛ بسبب رفضي للميكانيكيّ.

– لا يا «إلهام»، هذا قضاء الله وقدره، لماذا تصرّين على مقاومة شيء لا يمكن مقاومته؟، أنتِ تدمّرين أعصابك.

تناولت منديلاً ورقيّاً جديداً مضيفة في أسف:

– لقد تلفّظت بكلام أمام الطّبيبة... لا يليق، هل ذنبها أنّها أتت لتلبية نداء الواجب الإنسانيّ؟.

– كنت تحت الصّدمة «ماما سوسو».

صرخت بها وقد غلبني البكاء، فقالت وهي تمسح على شعري بحنانها المعهود:

– لقد أنقذتكِ حقنتها من انهيار عصبيّ وشيك، حمداً لله على كلّ حال.

وخنقت دموعاً كانت ستفرّ من مقلتيها الجميلتين من جديد.

– لماذا يحدث كلّ هذا لي يا ربّي؟، لقد كان بيتنا عشّاً حقيقيّاً للسّعادة، حتّى ظهر هذا الكلب المسعور، لينهار السّقف على رؤوسنا.

تلاشت خالتي من أمامي كدخان طاردته الرّياح وهي تعضّ شفتها.

ماتت أمّي صبيحة يوم مشمس من أيّام أشهر الرّبيع من سنة 2017، ماتت ليمسي المنزل فارغاً كئيباً كآبة أشهر الخريف، وقد كانت من قبل هي سور الصّين العظيم.

★★★

حين دخلتُ المطبخ بعد ثلاثة أيّام، عاودني المشهد...

روحها ما زالت تطوف بين الكراسي، تبحث عن الذين ألفتهم وألفوها، عن المنافقات والأشرار، الذين كانوا سبباً في فراقها للجسد المستهلك طوال ستّين عاماً كاملة.

هي أمامي الآن جالسة تقشّر الخضروات، تقف أمام حوض المغسلة تنظّف المقلاة من أجل طبق «أيّوب» المفضّل، تعلّمني بحرص غامض تحضير طبق شهيّ، تقرّباً من زوجي المستقبليّ.

كأنّي أراها تصلّي الفجر أمام عينيّ، وتقرأ من مصحف جدّتي، أو تديم النّظر في صورة أبي المعلّقة على الحائط في الصّالون.

لماذا العالم بهذه القسوة والجبروت؟.

يا ربّ السّماوات... هل كانت تعرف أنّها ستموت قريبا؟، هل كانت مريضة وأخفت مرضها عنّا جميعا؟، ثمّ لماذا ظلّت تلحّ عليّ في الزّواج كي ترى أولادي؟.

وزاد ذهني تشتّتا.

آه منكِ يا دنيا، تفتحين ذراعيك حتّى نأمن لك، حتّى نقتنع تماماً أنّنا السّادة ملّاك الأرض والمفاتيح، ثمّ تغدرين بنا... غدر الضّباع.

وراحت شجرة الحزن تزداد نموّا واخضرارا في كلّ الاتّجاهات، وكلّما نمت تداعت معها أشياء أخرى.

كان يأكل في المطبخ، وحين رآني واقفة أمامه حاول الخروج متسلّلا، فأمسكته من منكبيه أهزّه بقوّة:

– ما بك «أيّوب»؟... لماذا تصرّ على الهروب منّي؟.

– أنتِ من قتلتِ أمّي، أنتِ من قتلتها، أنتِ قاتلة، قاتلة، قاتلة...

– من أخبرك بهذا يا أحمق؟.

قالها صارخاً والدّموع في عينيه، وقلتها متألّمة ودموعي متيبّسة.

وما زال يكرّرها وهو يبكي محاولاً الإفلات من مسكتي التي طوّقته بها، وما زال صوته يتردّد في رأسي مطرقة فولاذيّة من الوزن الثّقيل.

وكلّما يعيد جملته أتجمّد في مكاني كالتّمثال، ثمّ جثوت على ركبتيّ أرتجف، وخُيّل إليّ أنّها تطوّقني بذراعيها، وراح عطرها ينتشر في كلّ الأرجاء.

فجأة... تذكّرت الفستان الأحمر الذي ألقيته فوق الخزانة:

– سأمزّقه، سأمزّق الشرّ الذي...

وهرعت إلى غرفتي، لكنّي حين صعدت على الكرسيّ لألتقطه، احتضنته... والله احتضنته، احتضنت جسدها الطّاهر، غير عابئة بالعطاس المستمرّ، وإحساس الضّيق الذي انتابني من الغبار المتسلّل لأنفي، ولا بالعنكبوت ذي الأرجل الطّويلة المتجمّد مكانه على السّقف يرقب حركتي.

ثمّ ألقيت به من جديد فوق الخزانة، فستان ما كنت لأعرفه أصلاً لولا تلك الخطبة المشؤومة.

– سألعنك في صلاتي يا صرصور... ليل نهار، مثلما ألعن شيطاناً تمرّد على الله ساعة خلق آدم... أيّها الميكانيكيّ القذر.

36

متلازمة الانسحاب

بقدر ما نألف شخصاً، بقدر ما تكون متلازمة انسحابه شديدة على القلب.

إذا انهار سور حمايتكِ ستفقدين كلّ شعور قويّ بالأمان، وسيتفكّك كلّ شيء في تصوّرك، سبق أن أقنعتكِ الظّروف أنّه في صلابة الفولاذ.

لقد سُلبت منّا جميعاً جوهرة التّاج.

كم أحتاج الآن لمن يوقظ الطّفلة الوديعة في داخلي، الطّفلة التي قديماً كانت تُدعى «إلهام»، قبل أن يزحف الشّرّ إليها.

ارتدت «صفاء» حجاباً شرعيّا، وأوقفت الاحتفال بعيد ميلادها، كما برز أخدود صغير بين حاجبيها، يشي بمعاناتها المكبوتة مثلي.

وراودتني فكرة تأسيس فرقة إنشاديّة جامعيّة، أكثر من أيّ وقت مضى، كي أملأ وقتي... فقد بدا لي النّهار واللّيل طويلين جدّا.

نعم، صدقت «صفاء» حين قالت إنّي مزاجيّة، ويجب أن أشغل نفسي بشيء ما على الدّوام.

★★★

هناك... وراء أسوار الحرم الجامعيّ، طرحت الفكرة على صديقاتي ونشرتها بين الطّالبات، ساعية –قدر المستطاع– لبناء شيء متين، لكنّي وجدت ثلاثاً منهنّ متحمّسات غيورات على الفنّ الأصيل، فآثرت الصّبر والتّريّث، حتّى تنضج الرّؤية لي جيّدا.

كانت تحدّق بي في حافلة النّقل الجامعيّ، وكأنّها تحاول التّعرّف على وجه مألوف.

هي طالبة سمراء متوسّطة الطّول، ذات خمار ورديّ.

لم أعر للأمر أهميّة وواصلت النّظر إلى الخارج، فلمحت أستاذة اللّغة العربيّة التي كانت تدرّسنا تتهادى ببطء عبر الشّارع العريض، مريضة هرمة، بالكاد تقدر على الحفاظ على توازنها بين المارّة.

كنت أريد النّزول من أجل تقبيل يدها اعتذاراً عن كلّ ذنب اقترفته في حقّها، وهي التي أفنت عمرها كلّه في خدمة التّعليم.

ولاحقتها ببصري مستأنسة بالماضي.

– مرحباً يا آنسة، أرجو المعذرة، أحاول التّعرّف عليك...

صمتت قليلاً لتختبر ردّ فعلي، ثمّ واصلت بنبرة حنان فيّاض:

– ألستِ... «إلهام السّوبرانو»؟.

لم تنتظر توكيدي أو نفيي، بل واصلت مباشرة بعيون مشعّة:

– اسمحي لي أن أعبّر لكِ عن مدى إعجابي الكبير بالمستوى المذهل الذي ظهرتِ به، أنتِ أيقونة إنشاديّة «سوبرانو»، شرف كبير لي أن ألتقيك وجهاً لوجه.

هل تستطيع اللّغة شرح هذا الذي تملّكني في اللّحظة التي سمعت فيها الكلمة السّرّيّة؟.

هل توجد عبارات أجزل، أثق فيها لتصف شعوري المتعاظم نظير هذا الغيث من الثّناء؟.

وانشرح صدري كطفلة صغيرة، وأنا أسمع ترجمة شعور كنت أحسّ به كلّما حدّقت في صورة الأستاذ.

يا ربّ السّماوات، كنت بحاجة لمن يلقي أمامي شيئاً يجعلني ألمس ذكراه، كنت بحاجة لمن يفتح كرّاساتي المنسيّة، ويريني أوراقها القديمة البالية، بما في ذلك خطّي الرّديء.

كنت في أمسّ الحاجة لمن يعيد لي أمجاد الماضي التّليد بكلّ رونقه وبهائه، لمن يسقي أشجار عزّي التي أضناها العطش لسنوات عجاف.

كنت بحاجة لمن يوقظ في فؤادي كلّ إحساس جميل نشأ مذ عرفت هذه الكلمة... لأوّل مرّة في حياتي.

ووجدت نفسي أحضن هذا الرّزق الذي ألقاه الله أمامي، وكلّما حضنتها ازداد شوقي للأستاذ الذي أحببته من أعماقي في صمت، واستغربت «هناء» تصرّفاتي، هكذا عرّفت نفسها لي، متابعة كلامها بلهجة ولايات الشّرق الجزائريّ:

– أنا عضوة في إدارة إحدى الجمعيّات الثّقافيّة، ونحن نفكّر منذ أسابيع بإنشاء فرقة إنشاديّة للأطفال، وهذا –بطبيعة الحال– يقتضي التّعاون مع من لديها خبرة في الميدان، مثلكِ «سوبرانو».

وراحت تحكي عن مشاريع الجمعيّة وبرنامجها السّنوي، وعن تواجدها في الحفل الذي أقمناه في نهاية السّنة الدّراسيّة، وعن الصّدى الكبير الذي لقيه عند الجمهور الذي رأته يتدافع لالتقاط الصّور معنا، وحتّى الفيديوهات التي حصلت على نسب قياسيّة من المشاهدات.

وكلّما تحدّثت معي كان هو شخصيّاً من يحدّثني.

ثمّ عرضت عليّ زيارة الجمعيّة ذات يوم سبت، لمناقشة كلّ التّفاصيل، مع الرّئيسة وباقي عضوات المكتب.

– آسفة «هناء»، ليس الآن، لكن أعدكِ في أقرب وقت ممكن إن شاء الله.

– على مهلك، لسنا مستعجلات، العمل الجيّد يتطلّب وقتاً، نريد شيئاً احترافيّاً، مدروساً وراقيا.

يا ربّ السّماوات، هذه جملته.

ودّعتني وذهبت متفائلة، بعدما تبادلنا أرقام الهواتف، وكلّما ابتعدت عنّي أزداد شوقاً لصوته.

★★★

بقدر ما نألف شخصاً بقدر ما تكون متلازمة انسحابه شديدة على القلب.

هل هذه الجملة التي أكرّرها للمرّة الثانية يمكن أن تختزل حالة أبي الضّائع؟.

كثيراً ما أراه جالساً في الصّالون شارد الذّهن، ثمّ إذا رآني أقدّم له القهوة، أو رأى «صفاء»، يرسم ابتسامة مصطنعة على وجهه، يحجب بها على صوت ما يتمزّق داخله.

– لقد نزل أبونا من الحائط.

قلت هذا لأختي محاولة إعادة ابتسامتها، غير أنّها نظرت لي وخرجت من المطبخ.

– لقد تغيّر كثيراً عن السّابق، ألا تلاحظين أنّه يجلس معنا بالسّاعات؟، يستمع إلينا دون ضجر أو كلل؟.

هذا ما قلته لخالتي، الوحيدة التي ما زالت تحتفظ بعلاقة جيّدة معي:

– نعم، وأراه يحاول إحداث توازن بين عمله، في الوكالة السّياحيّة والبيت.

– أبي المسكين، وحيد في المنزل، ووحيد في العمل، والله إنّه يثير الشّفقة، لماذا لا تتزوّجينه «ماما سوسو»؟، هل أفاتحه في الموضوع؟.

– أرجوكِ «إلهام»، لم يمرّ على وفاة المرحومة سوى أسابيع...

قاطعتها متحمّسة لفكرتي:

– علينا التّفكير في المستقبل... يجب أن نتصالح مع ماضينا «ماما سوسو»، وإلاّ سحبتنا الأحزان إلى الحضيض، إلى متى سنظلّ على هذه الحالة؟.

قلتها وأنا أكابد معاناتي في دورة مفرغة؛ كلّما تساقط المطر تذكّرت الأستاذ، وكلّما تلألأت الشّمس في كبد السّماء تذكّرت أمّي.

احمرّ وجهها خجلاً وهي تنظر إلى أظافرها في حركة لا إراديّة:

– سمعت من الجارات أنّه يميل إلى «بشرى»، سكرتيرة مكتبه.

ألقتها بسرعة على مسمعي، كأنّها تتخلّص من شيء يزعجها، وابتعدت تاركة لساني مشلولاً من المفاجأة.

– لن أقبل هذا الارتباط ما حييت، هل جُنّ أبي؟!.

قلتها في تلك اللّيلة قبالة مرآة غرفتي، وكلّي ثورة على قراره الذي وضعني به على كفّ عفريت.

بعد مرور شهر ونيّف، بدأنا نسمع بعض الشّائعات، كادت «بشرى» بسببها أن تترك العمل.

يقولون إنّها تحوم حوله لماله الكثير، وإنّه أضحى فريسة سهلة، بعد رحيل زوجته «طاطا موني»، بل وصلت بهم الوقاحة إلى اعتبارها المتسبّبة في قتلها بالسّمّ ليخلو لها المجال!.

– هل رأيتها «ماما سوسو»؟!.

لم تجبني بشيء، فتذكّرت قول أمّي رحمها الله:

– ألسنة النّاس دون عظام، تتحرّك في الهواء أكثر من تحرّك السّمكة في الماء.

يشجّعني حسن استماعه لفتح الموضوع.

بعد العشاء، أعددت له فنجان قهوة من البنّ اللاّتينيّ الرّفيع، وجلست أرقب اللّحظة المناسبة، جرعتين وانفرجت أسارير وجهه.

كانت السّاعة تقترب من العاشرة ليلا.

– أبي، أريد الحديث معك في موضوع يهمّك ويهمّنا جميعا.

– أعرف، لا تتركي الأفكار تأخذك بعيدا، «أيّوب» ما زال صغيرا، لا تنسي أنّه الآن يعيد سنته الدّراسيّة، رحيل المرحومة المفاجئ سبّب له صدمة نفسيّة حادّة، سأتحدّث معه... امنحيني بعض الوقت، سيتقبّل الوضع الجديد إن شاء الله، الصّغار ينسون بسرعة.

– حسناً هذا شيء، لكن هناك شيء آخر أكثر أهمّيّة من ذلك.

وضع قهوته جانباً بعدما رشف منها رشفة كبيرة أفرغت كلّ الفنجان:

– نعم، أنا أستمع.

– أسرتنا مفكّكة، ويجب لحمها في أقرب وقت.

– هذا ما قاله لي عمّك منذ أسبوع، ولأنّ «صفاء» على مشارف شهادة «البكالوريا»، اقترح عليّ أن أتزوّج خالتكِ لتتماسك العائلة.

وهنا دخلت «صفاء»، وبصوت ملائكيّ أطلقت صرخة مرحة:

– «ماما سوسو» ستكون أمّنا جميعا، يا الله!، يا له من شعور رائع.

– جيّد إذن، لقد سهّل عليّ المهمّة، أعتقد أنّ «ماما سوسو» شخصيّة توافقيّة.

قلتها ببشاشة وحذر، منتظرة ضحكة أختي الأسطوريّة المتفجّرة، غير أنّها اكتفت بالابتسامة، وراحت تشرح لأبي خصال خالتي الحميدة، ثمّ صاحت بصوت حاسم:

– هل أعرض عليها الموضوع؟... هل أزغرد؟.

ووضعت يدها على فيها تمهيداً لإطلاق زغرودة قويّة.

وهنا انفجر ضاحكا.

– ليس الآن، هناك ترتيب آخر.

ثمّ راح يكلّمنا عن «بشرى» سكرتيرة المكتب، مستعرضاً بدوره خصالها الحميدة، وكأنّه يقارن بينهما، وأنا أستشيط غضباً في داخلي:

– لكن أبي، ألا ترى أنّ «ماما سوسو» أولى؟، لماذا تريد جلب غريبة إلى العائلة؟.

– أنتِ ترين من زاويتكِ الخاصّة يا «إلهام»، لنحاول النّظر من زوايا بعضنا البعض، لنتبادل الأماكن، ما رأيك؟... لنحاول تبنّي أفكار الأطراف الأخرى ولو لبرهة.

تنحنح ناهضا:

– لا علينا الآن، تأخّر الوقت وأنا لديّ موعد غدا، ويجب أن أكون مستعدّا له، تصبحان على خير.

في تلك اللّيلة، اكتشفت أنّ أبي محاور جيّد، ومفاوض عنيد، لا يصمد أمامه خصم.

★★★

بعد أسبوع زارنا عمّي «خالد» رفقة زوجته، التي كانت فرحة جداً بتوقّفه عن التّدخين، ففاتحته في الموضوع.

قال بنبرة محيّرة:

– ركّزي معي يا «إلهام»، حين تكبرين أكثر، سترين الحجم الحقيقيّ للأشياء.

ثمّ تناول فنجان الشّاي الموضوع أمامه، وهو ينظر إلى «عائشة»، التي هزّت رأسها موافقة:

– الوضع معقّد أكثر ممّا نتصوّره كلّنا، خالتكِ صمّام الأسرة، و«بشرى» صمّام العمل.

37

كيف أنساكِ «سوبرانو»؟!

ومرّ الصّيف والصّيفان والشّتاء والشّتاءان، وكلّما التقينا وكلّمتني كان هو من يكلّمني.

– لا مهرب لي من قبول عرض الجمعيّة، هذا إذا ما زال العرض ساريا.

هذا ما خلصت إليه في نفسي بعد عدّة محاولات غير مجدية في الجامعة، ليس لي وقت أضيّعه مع اللاّتي كلّ كلامهنّ تسويف وخذلان.

وبناء عليه... وكّلت أمري إلى الله.

اتّصلت برقم الهاتف الذي قدّمته لي «هناء»، فأجابت مرحّبة أنّ مقرّ الجمعيّة ما زال مفتوحا، ويمكنني إلقاء نظرة أوّليّة متى ما شئت.

وأخيراً، ثمّة الآن سبب مقنع جدّاً للتّواصل مع الأستاذ.

كان ذلك يوم الأربعاء، يوم جلست أمام الكمبيوتر بقلب يكاد يخرج من مكانه، وأرسلت له رسالة نصيّة عبر «فيسبوك»، وكلّي خيوط رجاء في ردّه.

ويا لها من لحظات تمرّ عليّ!.

كانت الثّامنة مساء حين أرسلت له أحرفي الأولى، ورحت أقضم أظفاري.

بعد ثلاث وعشرين دقيقة بالضّبط قرأها.

اعتقدت أنّه نسيني، لكنّه تعرّف عليّ مباشرة بعد أن كتبت له اسمي كاملا، وداعبني إحساس فرحه برسالتي، أو ربما هكذا تهيّأ لي من شدّة ولعي بالموضوع:

– السّلام عليكم أستاذ، أنا «إلهام» طالبة شعبة «اللّغات الأجنبيّة» سابقاً، كنت لديك في فرقة «أوميغا» في الثّانويّة، هل تتذكّرني أستاذ؟.

كان استقبال الرّسائل بطيئاً، إذ أتلقّى ما يرسله بفارق عشر ثوانٍ في المتوسّط، ورحت أكتب عبارات كثيرة مختلفة لأنعش ذاكرته، ونسيت من فرط فرحتي أن أكتب الكلمة المفتاحيّة التي أوجدها لي، واشتهرت بها في كلّ مكان:

– أنا من أهديتك الشّوكولاتة يوم الحفل، هل تتذكّرني أستاذ؟.

وانتظر الزّمن معي:

– أهلاً «إلهام»، أرجو أن تكوني بخير، أنتِ وأفراد عائلتك كافّة، كيف حالك؟.

ثمّ ظهرت العبارة التي أثلجت صدري، وفتحت ملفّ ذكرياتي الجميلة بكلّ حناياه:

– وكيف أنساكِ «سوبرانو»؟!، أتذكّركِ جيّدا، أنتِ «إلهام» مشروعي الكبير، «إلهام» التي لم تخذلني مطلقا.

فجأة، أضحت كلّ الأرض لا تسعني، فرحت أتراقص في الغرفة زهواً وطربا؛ غير عابئة بنظّاراتي التي كانت تتدلّى على صدري، يا لسعادتي، لقد تذكّرني... بعد سنوات، أنا... «إلهام السّوبرانو».

وفاضت عيناي أكثر وأنا أجهل مبعث بكائي الحقيقيّ، هل هو طوفان الفرح، أم خشيت أن أفقده فجأة، مثلما فقدت أحنّ حضن في التّاريخ.

لقد بتّ أتوجّس خيفة من هذه الدّنيا التي لا يُؤتمن جانبها بأيّ حال من الأحوال، ولولا صلاتي وثقتي بربّي، لاختفى الخطّ الفاصل بين العقل والجنون، وأنا التي كنت أضحك وأضحك، ونضحك جميعا؛ أختي وأمّي وأخي وجدّتي و«ماما سوسو»، وأبي الذي كان على الحائط، لكن في جوهر الأمر، كانت العجوز الشّمطاء هي من تقهقه ساخرة منّا نحن الغبيّات، نعم... السّاذجات سذاجة الحملان، المنساقات إلى الجزّار الذي طالما أوهمنا بحبّه، نصدّقها بكلّ الغرور الذي يتدفّق من قلوبنا، بل لا نتخيّل مطلقاً أنّه سيأتي يوم تنتفض فيه ضدّنا أو تثور.

لقد اعتدنا السّعادة حتّى تبلّدت أحاسيسنا، وحين يتبلّد الإحساس تموت معه كلّ التوقّعات.

أخبرني مسهباً أنّه توقّف بعد ذلك العام مباشرة، نتيجة التّدخّلات غير المنطقيّة في عمله، ومساومته بترسيم على حساب كرامته، وهو الآن يعمل في الشّركة الوطنيّة للكهرباء والغاز.

تجاوز حديثنا ثلاث ساعات كاملة وربما أكثر... لا أدري.

أتنتبه للوقت من تعيش في الجنّة؟.

ووجدت نفسي أخبر جنّتي بكلّ شيء؛ بفاجعة موت أمّي المفاجئ أمام مائدة المطبخ، بثورة غضبي في وجه الطّبيبة، وبتحميلي مسؤوليّة موتها من الجميع، لأنّي رفضت الزّواج من جارنا الميكانيكيّ.

وجدت نفسي أخبره بأدقّ أدقّ التّفاصيل، وساعدتني سرعة شبكة الإنترنيت التي راحت تتحسّن، وكلّما أخبره أكثر أرتاح أكثر، وكأنّه طبيبي النّفسيّ المتفرّغ لي، أنا «إلهام السّوبرانو»، مريضته الوحيدة.

وراح حديثنا يمتدّ ويتفرّع لأيّام وأيّام، تمتّنت علاقتنا من خلالها أكثر، ولعب الوعي فيها دوراً مفصليّاً.

38

مشاريع ارتباط

– ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لا شكّ أنّ هناك أمراً كان مقدّراً لك، فدفعكِ تعالى إليه.

هذا ما أجابني به حين أعلمته بتعثّراتي في تأسيس فرقة إنشاديّة جامعيّة.

ثمّ أعطاني ما اعتبرته سرّاً من أسرار الصّنعة:

– احذري «إلهام» من شيء هامّ، في الجمعيّة لا يوجد شيء يجبر الأطفال على الحضور؛ عليكنّ توفير آليات جذب وإغراء لاستقطاب العنصر البشريّ الملائم، ناهيك عن رفع ما هو موجود من إمكانات لأقصى مستوى، كي نضمن على الأقل بقاء المنخرطين، واستماتتهم في الدّفاع عمّا حقّقوه من إنجازات.

وحين يتكلّم يجب أن أسكت.

ثمّ أتى السّؤال الذي طالما أرهق مخيّلتي لأيّام، سؤال أحسب له ألف حساب، وكلّما خطر في ذهني يصيبني الوجل والرّهاب:

– أستاذ... هل تزوّجت؟.

كنت محرجة جداً وأنا أستغلّ الموقف المتولّد من ذكر أهمّيّة تنظيم الوقت بين العمل والأسرة والإنشاد.

أكلني النّدم هنيهة فخمّنت:

– سيعتبرني متطفّلة على حياته الشّخصيّة.

لكن أمام إلحاح فضولي القاتل، اعتبرته شرّاً لا بدّ منه، ويجب أن أحصل على إجابة واضحة صريحة.

وانقطعت شبكة الإنترنيت ليتوقّف الزّمن.

انتظرت ردّه بمشاعر مختلطة لا أعرف كيف أصفها، فرحت أقول بيني وبين نفسي:

– لو كان متزوّجاً فسأنسحب بكرامتي؛ لا أريد أن أكون سبباً في معاناة من غامر بمستقبله من أجلي، لا أريد أن أكون مبعث انفصاله عن زوجته، ماذا سيقول عنّي؟؛ غابت سنوات ثمّ ظهرت فجأة كشبح، لتطفو معها

كلّ المشكلات على السّطح، وماذا ستقول زوجته؟؛ امرأة لعوب من طالبات الجامعة، أتت لتخطف منّي زوجي بنوستالجيا من الزّمن الجميل، ناهيك عن الإثم الذي سيُكتب في صحيفتي إذا ضاع أطفالهما.

ويتشعّب التّفكير في اليوم الثّالث:

– كيف سيكون موقفي أمام ذاتي كإنسانة؟، فتاة تلقي بنفسها على من أحبّته، هكذا دون وازع دينيّ، كيف سأحترم ذاتي ساعتها إذا كان شعاري الغاية تبرّر الوسيلة؟.

وتواردت الخواطر لباقي الأيّام.

يا للعار...

أأتعجّب من تصرّف «سعاد» وقد تجاوزتها في الخداع؟!، أنا درّة مصونة ويجب أن أخفي لوعتي، مهما كلّفني الثّمن.

استسلمت للقلق الذي استبدّ بي ذات ليلة لّما تجاوزت الواحدة والنّصف، وأنا أنتظر عودة شبكة الإنترنيت اللّعينة، ثمّ قرّرت الخروج من هذه الدّوّامة، بإرغام نفسي على النّوم.

أنام؟!...

من هذه التي تنام ودماغها في أوجّ توهّجه؟، أطوي مجرّات من الأفكار وتطويني في سرعة الضّوء.

أزعجت وسادتي، لا أكثر ولا أقلّ، هذا ما نجحت في فعله حتّى أذان الفجر.

★★★

قبل عام من الآن، اهتدى أبي إلى حلّ مثير، فاجأنا به ذات مساء ونحن جالسات في الصّالون الفسيح.

– يا سلام، ستكون لأبي زوجتان لأوّل مرّة في تاريخ المدينة، سيتحدّثون عنّا في التّلفزيون وفي «فيسبوك»، يا حلاوة، يا حلاوة.

انتظرت من أختي معارضة سلميّة على الأقلّ، لكن ما جاد به لسانها وهي ترشف من فنجان قهوتها مرحة، أكّد لي تماماً أن هناك أشياء حدثت في الكواليس.

أمّا أبي الذي تخلّى عن وجوده على الحائط منذ مدّة، فراح يحدّثنا عن «بشرى»؛ الحور العين.

بنوع من التّحفّظ كشابّ يخجل من ذكر محاسن عروسه، ثمّ استرسل في رواية أمانتها، وإتقانها عصاميّا لخمس لغات كاملة، العربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة والإسبانيّة والألمانيّة، مع تمتّعها بثقافة أوسع من المحيط الأطلسيّ، وسرعة ردود أفعالها النّادرة مع المسائل المستعجلة، و«صفاء» تضحك بين الفينة والأخرى، في مكر جليّ استوطن عينيها البرّاقتين:

– هل تقصد أنّها ستظلّ تساعدك في العمل؟.

وزاد بريق عينيها.

- طبعاً.

يا له من قرار ألقاه معتزّا، مرتشفاً رشفة من فنجانه الأبيض الصّغير.

- لكن... يبدو الأمر غير مألوف في مدينتنا؟.

ألقيت بها إليه متجاسرة، فتجاسرت هي نحوي بنظرات غريبة.

- عادي جدّا، نكهة فريدة للوضع الجديد، زوجتي تعمل معي، أين الإشكال في هذا؟.

ثمّ أكمل حين لم يجد منّا اعتراضا:

- يجب أن نتجاوز الظّروف، أن نهرب إلى الأمام، أليس هذا كلامك يا «إلهام»؟.

وتفحّص وجهي كمن يبحث عن شيء فيه، فنظرت بدوري ناحية «ماما سوسو»، لأتخلّص ممّا كان يجول بخاطري، وحين عدت إليه ببصري أكمل:

- لكنّه هروب إستراتيجيّ، بل أفكّر في تغيير مكتب الوكالة، ستكون هنا في إحدى المحلاّت الشّاغرة، بدل تنقّلها إلى مكان بعيد.

يبدو أنّه قد رتّب كلّ شيء، وهو الآن يخبرنا لا يستشيرنا.

★★★

وتمّت الزّيجتان، بحفلين سريعين كان من المفروض أن يتجسّد فيهما البذخ أيّما تجسيد، لكن بسبب ذكرى أمّي رحمها الله، لم نتوسّع في دعوة النّاس، وتفهّمت «بشرى» وعائلتها وضعيّتنا، وسرعان ما اندمجت معنا وأحبّها «أيّوب»، لملائكيّة طبعها، وطيّبة قلبها ولين معشرها.

حنطيّة البشرة، رفيعة الجسم طويلة القامة، عيناها واسعتان وشعرها داكن؛ أوّل مرّة أرى فيها زوجة أبي الثّانية.

وأضحى لسعيد الحظّ غرفتان؛ واحدة في الطّابق الثّاني، وهي غرفة أمّي رحمها الله، والثّانية في الطّابق الثّالث الذي تسكن فيه «بشرى»، مع حرصه الشّديد على العدل بينهما.

هذا ما أخبرتني به «صفاء» ملمّحة إلى إمام المسجد الذي ظلّ يوصيه بالعدل، بحاجبين في قمّة وجهه.

ثمّ تقول وهي تهزّ رأسها ببطء مبتسمة بمكرها المعهود:

- كان أبي على الحائط، وحين نزل...

39

الوجه الأنثويّ الجميل

لا يريد أبي أن يكرّر خطأه للمرّة الثّانية:

- يجب أن تكون قلوبنا واسعة، تحتوينا أجمعين مثل منزلنا والأرض المحيطة به.

ثمّ يضيف مشجّعا:

تقاربن فيما بينكنّ... زرن بعضكنّ بعضا مثلا، أريد تنمية علاقات وطيدة بين الجميع.

وهل أجرؤ أنا على دخول غرفة أمّي؟.

أبي الذي هرّب من تساؤلاتي حول موتها المفاجئ، بصمت يغلّفه وهو يتأمّل صورته التي ما زالت على الحائط، يريد الآن تقوية أواصر الثّقة المتبادلة، عبر وجبات مشتركة في مطبخ «ماما سوسو» أو مطبخ «بشرى»، التي تقول دائماً كلّما جلست قبالتها إنّها تحبّ صوتي كثيرا، لأنّه يذكّرها بطفولتها، حين كانت منشدة في الكشّافة.

- سأريكِ طريقة تحضير طبق لم تتناولي أشهى منه، تعالي عندي من حين لآخر «إلهام».

هذا ما تقوله لي زوجة أبي الثّانية، ثمّ تضيف:

- كم أحبّ الحديث معك بالإسبانيّة؟، وكأنّني في «مدريد».

- هل حقّا تحبّين أبي؟.

وهذا ما يلقيه «أيّوب» في وجهها أمام خالتي، بعدما تجاوز صدمته، فيتورّد الوجهان، وتضحك «صفاء» عليهما، ليختفي نهائيّا ذلك الأخدود الذي طالما ميّزها كعلامة فارقة.

سبحان من توفّى أمّي لنحسّ جميعاً بقيمتها الحقيقيّة في الأسرة.

يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء، وشاء تعالى أن ينزع عنّا شيئا؛ ليؤتينا أشياء كانت بالأمس القريب مجرّد أمنيات.

يا لرحمتك الواسعة يا ربّ.

أخيراً... كشفت لنا الدّنيا عن وجهها الأنثويّ الجميل الذي ألفناه، بعدما ظلّت مكفهرّة الملامح قاتمة الألوان.

وتذكّرت ما قاله الأستاذ لنا ذات يوم:

– لا تنسوا الآية الكريمة «وتلك الأيّام نداولها بين النّاس».

★★★

وكيف أنساه وقد نهضت سبع مرّات من فراشي لأرى ردّه؟.

– ألا تلقون نظرة على الإنترنيت؟، هذا الانقطاع لا يبدو طبيعيّا، أم هو حظّي التّعيس يتجسّد الآن في شيء ماديّ؟.

بصوت حنون دافئ أجابتني «صفاء» وهي تشحن هاتفها:

– ماذا أفعل لك «سوبرانو»؟، أدمنت الإنترنيت مثلك إلى درجة لا أتخيّل نفسي دونها، لكن يبدو أنّ المشكلة لديهم هناك في «اتّصالات الجزائر».

وتشير بيدها في حركة عشوائيّة نحو الشّرق.

– هل لديك الإنترنيت في هاتفك؟.

فتتهرّب منّي بعبارات مطّاطيّة:

– لديّ مشكل في البطّارية.

– لا تكذبي، هاتفكِ جديد.

– لكنّه ليس أصليّاً.

– يا ساتر... أنتِ كالضّفدعة، لا يهمّك أين تقفزين بقدر ما تهمّك استمراريّة حركة القفز.

تتظاهر بالصّمم، فيستولي عليّ اليأس والإحباط ليلاً، فأواسي نفسي:

– لماذا لا أكون زوجته الثّانية؟، أيّ بأس في ذلك؟، لأبي زوجتان، وأموره على أحسن ما يرام، إذا أرادني هو، فما شأن العالم بنا؟، لكن... هل تقبل زوجته؟.

أضع الوسادة فوق رأسي:

– سأحدّثها بالأمر، وإن لم تقبل فسأريها فيديوهات الحفل، كي تقتنع أنّي تحفة فنّية صنعها زوجها الأستاذ، إذن من حقّه أن يكون صاحب التّحفة، وحتّى لو نظرنا إلى المسألة فلسفيّاً لوجدناها منطقيّة تماماً.

وغفوت دون أن أشعر.

لم أفق صباحاً إلاّ على طرقات «ماما سوسو» على باب غرفتي كنقرات عصفور، تناديني لتناول الفطور، وسرعان ما راحت تستفسر عن سبب انتفاخ جفوني، فرحت أسحقها بين ذراعيّ سعيدة:

– صباح الخير «ماما سوسو»، يا أحلى ماما في الدّنيا كلّها.

– سبحان الله، هذا ما يقوله لي «عبد القادر» مع تغيير بعض المصطلحات.

★★★

وأعود للبيت بعد يوم شاقّ في الجامعة.

– مرّت شاحنة فقطعت خيط الاتّصال دون قصد.

– المهمّ؟.

وأطلقت ضحكتها الكثر ففضحت بها ما أرادت مفاجأتي به.

– آآآ، عادت الشّبكة!.

ولا أعرف كيف وصلت إلى غرفتي بتلك السّرعة القياسيّة.

بأصابع ترتجف أعدت إدخال جميع البيانات، وفتحت علبة الرّسائل، واقفة من جلال الموقف، أفرك عينيّ اللّتين راحتا تدمعان بشدّة من ضوء شاشة الكمبيوتر، متلهّفة إلى جوابه الذي أرّقني لأيّام.

– ما زلت أعزبا، لم يشأ الله لي أن أتزوّج بعد، كلّ شيء عنده بمقدار.

هذا ما كتبه لي حرفيّاً تلك اللّيلة، والله هذه هي كلماته.

كتمت صرختي براحة يدي اليمنى غير مصدّقة، ثمّ أحسست بأنفاس «ماما سوسو» خلفي.

التفتّ إليها مندهشة من كوني لم أنتبه لوجودها أصلا، وحين التقت عينانا ابتسمت ابتسامتها الكثر، فتوزّع تلألؤ وجهها على مساحته الألماسيّة في تناسق ربّانيّ بديع، وهي تطمئني بنبرة تدفّقت منها مشاعر الحنان:

– كلّ شيء عنده بمقدار يا «إلهام»... كلّ شيء عنده بمقدار.

وعانقتها بدموعي المندلقة على وجهي كالماء المسكوب، ثمّ بدأ صوت نشيجي يعلو ويعلو، وهي تربّت على كتفي مردّدة بصوتها الدّافئ:

– آه يا «إلهام» الصّغيرة، آه يا ابنتي.

40

لا تهيني نفسكِ باسم الحبّ

سبحان من أماتها لتتزوّج خالتي من أبي بعد أن تجاوزت سنّ الثّلاثين.

سبحان من أخذها إلى جواره لتتحجّب «صفاء» العمود الصّلب، وتعي معنى وجودها في هذه الدّنيا.

ولا أملك سوى التّسبيح.

★★★

في زيارة وصفوها لي بشبه العائليّة، أرسل «أمين» صاحب الثّلاثة والثّلاثين عاماً أمّه وأخته لجسّ النّبض، في نيّة واضحة لبناء أسرة لا يمكنها الاستمرار إلاّ بوجود عمود في صلابة الفولاذ.

احتسيتا القهوة مع «ماما سوسو»، ثمّ غادرتا بسرعة عازمتين على العودة في أقرب وقت.

– ما زالت صغيرة، لم تكمل حتّى المرحلة الثّانويّة من الدّراسة، هل يُعقل هذا «ماما سوسو»؟.

– لقد سأل عنها جيّدا، فقالوا إنّها ذات دين وخلق، ومن عائلة محترمة، وهو مستعدّ لانتظارها حتّى تجتاز «البكالوريا».

– الجامعة؟.

– سيدعها تكمل دراستها وهي على ذمّته، ما المشكلة في ذلك يا «إلهام»؟، هل هذا يعارض الإسلام في شيء؟.

– لم أقصد هذا... لكن يبدو الأمر غير مألوف.

– بل منطقي تماما؛ زوجة تكمل دراستها في الجامعة، تذهب صباحاً وترجع مساء، والجامعة أمامها على بعد أمتار، لماذا تحرم نفسها من العلم ما دام كلّ شيء ميسّر لها؟.

ثمّ أضافت بهدوء:

– ما كان الإسلام يوماً يعارض طلب العلم، تقاليدنا غير المنطقيّة هي التي تعرقل كلّ شيء، حتّى صرنا نعتقد أنّها من صميم الدّين.

– أتتزوّجه دون حبّ؟.

– سيأتي الحبّ فيما بعد، «أمين» شابّ ملتزم، من عائلة كريمة متديّنة.

– ما عمله؟.

– موظّف كغيره من الموظّفين في «اتّصالات الجزائر».

– «اتّصالات الجزائر»، الله الله... ألف مبروك على كلّ حال، والحبّ سيأتي فيما بعد، وستأتي معه التّخفيضات.

عشرات التّحوّلات تحدث أمامي بعد انهيار سور الصّين العظيم.

ورحت أقارن في داخلي.

★★★

لا أحد يلوم شيطاناً على خسّة طبعه، ولو أصبح يرتدي الألبسة الرّفيعة، ويركب سيّارة «BMW» فخمة، فلن يغيّر فيه شيئا.

لكن هل يُعقل أنّ ميكانيكيّا لديه من المال ما يجعله يقتني سيّارة فارهة قيمتها تقارب مليار سنتيم؟.

– هذا هو الوقت المناسب لأضرب ضربتي، فهي ما زالت منهارة من وفاة أمّها، ومن المؤكّد أنّها سترضخ أمام المال رضوخ الغزالة للأسد.

يبدو أنّه قد نام على هذه العبارة مستأنساً بمعاناتي، بعدما عرف أنّي على وشك التّخرّج.

– هيهات ما تحلم به، لا تنتظر منّي الخضوع والإذعان، أيّها الشّيطان الطّويل صاحب العينين الماكرتين.

البارحة فقط، وأنا واقفة أمام مدخل المدرّج الجامعي، تقدّمت منّي إحدى الزّميلات، وبكل وقاحة راحت تفاتحني في الموضوع مجدّدا، محاولة إقناعي أنّ الذي أرسلها هو أفضل شخص ساقه الله إليّ، زاعمة أنّ آخر الإحصاءات في الجزائر تشير إلى أنّ هناك أكثر من أربعة ملايين عانس، ويجب أن أسرع في اتخاذ قرار إيجابيّ يثلج الصّدر، إذا كنت لا أريد أن تشملني إحصاءات العام القادم.

صددتها بغضب وحزم:

– ابتعدي عنّي، لا تلمسيني، ألا تدركين أنّ «منير» يرتديك كقفّاز.

تراجعت خطوتين إلى الوراء قائلة بتصنّع لم تنجح في إغفاله:

– أنا أراعي مصلحتك، أهكذا تقابلين إحساني؟.

– إحسان؟، أعيدي الكلمة لأنّي ربما لم أسمعك جيّدا... كم تلقّيت منه نظير عملك هذا؟.

– لا شيء لا شيء، أنا أحاول...

قاطعتها بحدّة:

– خاتم من ذهب؟، سوار؟، لا تكذبي... انظري في عينيّ.

ارتعشت وقد بدا وجهها المبهرج لوحة من لوحات «بيكاسو» حين سطعت عليه شمس بزغت من بين غيوم رماديّة.

– قدّم لي هذه القلادة، ليست...

– هل يُعقل هذا؟، قلادة من ذهب فقط لإقناعي؟، لماذا في رأيك؟.

لم تنبس ببنت شفة، فمضيت غير مبالية بما ستعنيه لها كلماتي:

– ميكانيكيّ يهديك أنتِ شيئاً ثميناً مقابل لعب دور المبعوث.

هذه المرّة كانت سبّابة يدي تمسح قامتها من الأعلى إلى الأسفل نكاية بها:

– لا يوجد من يقدّم هدايا ثمينة هكذا جزافا.

صمتت برهة وهي تنتقل بين عيني اليمنى واليسرى، تبتلع ريقاً أبى أن يطاوعها على الكذب، لكنّي أردت طرق الحديد وهو ساخن:

– حين نطعم الأسد شيئاً، فقد جعلناه يعمل في السّيرك.

كانت جملة قاسية ألقيت بها متعمّدة على مسمع من تجمهروا قريباً منّا، غير عابئة بآداب الحديث.

– أجزائي التّأنيب لأنّي أفكّر في مصلحتك؟.

– يا لقلبك الرّؤوف!...

وانطلقت تداري خبثها بمحاضرة عن الأخلاق والإيثار ومساعدة الغير، ورأسها يهتزّ مع كلامها دون تناغم، وحين تمادت في كذبها أشرت إليها:

– ارحلي الآن أو أتّصل بالشّرطة، أظنّ أنّكِ ستكونين سعيدة بإقناعهم بالثّراء الفاحش لمدير السّيرك.

كنت أعرف أنّها هي من تنقل أخباري إليه.

وتنامى إحساسي بالخطر مثل قطّة تستعدّ لنزال شرس، رغم كوني مصابة بالزّكام.

أمّا هي، فكأنّ هناك من قدّم لها تقارير مغلوطة عنّي.

بعد ساعتين، ندمت على كلّ ما تفوّهت به، حين قادتني بغتة مشاعر الإحباط والغضب الأكول، لأنّي تعلّمت من هذه الحياة ألاّ أكشف كلّ أوراقي دفعة واحدة.

★★★

– نريد عملاً احترافياً وسنتكفّل نحن بالباقي، لا نريد أن يشغلك شيء عنّا «سوبرانو»، لا شيء... لا شيء إطلاقاً.

هذا ما صارحتني به رئيسة الجمعيّة، الأستاذة «كريمة»، في ثالث اجتماع عمل لنا، وهي تتأمّلني وفي عينيها إصرار غريب، ذكّرني بإصرار الأستاذ الذي رأيته أوّل ما رأيته حين التقيناه ذات ثلاثاء، من أواخر شهر سبتمبر من سنة 2015.

ثمّ استطردت بنبرة متفائلة، وقد دبّت فيها حماسة مفاجئة:

– الأطفال موجودون، ولكِ أن تختاري من بينهم ما تشائين، هناك حوالي ثلاثين عنصراً من الجنسين، لدينا أروع الأصوات، «هيفاء»، «رغد»، «إيلينا»، «مروان»، آهٍ لو تسمعين «فوزي»، فقط «فوزي»، صوت لم تسمعيه في حياتك أبدا.

وراحت تدعّم جملتها بإشارة نفي قويّة بيديها.

– حسنا، لنضع يوماً مناسباً ألتقيهم فيه، سيحضر معي أستاذ متخصّص في الفكر الإنشاديّ الحديث، لنختار معاً العناصر المناسبة، هناك بروتوكول صارم يجب أن يُحترم، أتعلمين؟... للنّجاح ضريبة عالية جدّا.

قلتها دون إرادة منّي، بابتسامة داريت بها قلقي وتوتّري، وأنا لا أعرف حقيقة هل سيستطيع الحضور، أم سيعتذر لأواجه مصيري وحدي.

– الأستاذ «سمير»؟، ممتاز، السّبت القادم إن شاء الله، صباحاً على السّاعة العاشرة، سأخبر الأطفال وذويهم، هناك من الأمّهات من ترغب في الحديث معه.

– هل تعرفينه؟.

– ومن لا يعرف الأستاذ «سمير»؟، قبل أشهر فقط قدّم دورة في تصحيح الصّوت، أيقونة فنيّة محترمة لها هيبتها، انظري!.

وأرتني نفس الصّورة في هاتفها التي أعطتني إيّاها «ابتهاج»، وراحت تتشدّق متعالية:

– أنا الوحيدة التي لديها هذه التّحفة.

تعلّمت أن أجعل خصمي يفرغ كلّ ما في جعبته، رغم بذلي جهداً كبيراً لأحتفظ بهدوئي أمام هذا الاستفزاز العلنيّ.

وساورتني الشّكوك وهي تعيد اسمه بسعادة غامرة، وقد ارتسمت على محيّاها هالة تفاؤل تغيّرت بها نبرتها، ثمّ ارتعدت فرائصي، وانقبض قلبي فجأة، من هذا الشّعور الذي تجاوز السّمعة الطيّبة بأميال.

تفحّصت عينيها محاولة استقراء ما تخفيه عنّي، فألفيتهما وديعتين مثل عيني هرّتنا النّافقة مؤخّرا، لا مكان للّؤم فيهما، ذات وجه مدوّر مثل وجه أمّي رحمها الله، غير أنّه لا يوحي ضرورة بالثّقة.

كشفت مغادرتي السّريعة هروبي من شيء ما، وما إن دلفت باب غرفتي حتّى أخرجت هاتفي، ونيران الغيرة تلتهمني كوحش كاسر.

يا ربّ السّماوات، من أين لها بالصّورة؟، هل يمكن أن تكون...

★★★

- صباح الخير «سوبرانو»...

قاطعتها على الفور بنبرة حادّة حدّة السّكين:

- من أين يأتي الخير وصورته في كلّ مكان، ما هذا يا «ابتهاج»؟، اعتقدت أنّي الوحيدة التي تملك صورة له، ثمّ بعد كلّ هذه السّنوات أفاجأ أنّ رئيسة الجمعيّة لها نفس الصّورة، من أين حصلت عليها؟.

- الجمعيّة التي دعتكِ إلى...

- وهل هناك جمعيّة أخرى؟.

- لو تركتني أكمل كلامي آنذاك لاتّضح لكِ كلّ شيء، أنا الآن مشغولة، اعذريني، سأحادثك لاحقا.

41

هو مشروعي الكبير

- سأؤسّس أوّل فرقة إنشاديّة لي.

هذا ما واجهت به مرآتي وأنا أحاول تسريح شعري، بعد حمّام مسائيّ دافئ، أرحت به جمجمتي المتهالكة من وطأة التّفكير المتصاعد.

ثمّ أجدّد نيّتي:

- هو عمل تطوّعيّ أقابل به وجهه تعالى حين ألقاه، لا أبتغي منه شهرة أو نفوذا، أو تقرّباً من السّلطات.

وتحرّكت نحو الهدف، في عطلة الشّتاء لسنة 2019، بحشد من ثمانية عشر طفلاً وطفلة، اشترطت أن يكونوا قد وُلدوا قبل عشر سنوات من الآن، تفادياً لأيّ مشكل قد يسبّبه منهج التّدريب الصّوتيّ المعتمد.

ويأسرني التّفكير فأكاد أجنّ وأنا أخاطب ذاتي:

- هل سيأتي لمساعدتي؟.

ثمّ تأخذني مخيّلتي من سيرته إلى الإنشاد الذي انجرف أغلب صانعيه إلى استعمال آلات العزف الموسيقيّة، فأخرجوا هذا الفنّ عن هويته، وأخشى أن يُفرض عليّ ما لا أقبله جملة وتفصيلا، ولا سيما وقد وعدتني رئيسة الجمعيّة بكلّ ما أرغب به من تجهيزات.

هذا ما أُسرّ به لخالتي، فتستعيذ بالله.

ثمّ أمرّ على «بشرى»، فتسألني عن جديدي في الجمعيّة، فأتجلّد صوناً للضّمير:

- إذا فُرض عليّ استعمال آلات العزف سأستقيل مباشرة، لن أرضخ لأيّ ضغوط مهما كانت المغريات.

فتناقشني من باب السّعة والجواز، وأناقشها من باب «كلّ شيء إلاّ وله أثر»:

- أنتم من بقيتم تحافظون على الإنشاد الحقيقيّ هناك في ولايات الصّحراء، أمّا هنا فقد اختلط الحابل بالنّابل.

تترك كلّ شيء وتستمع لشرحي:

- إذا تمّ استعمال آلات العزف بدل توظيفها في الإنشاد فهو توقيع شهادة وفاته.

لدينا خطوط حمراء لا يجب تجاوزها لأنّها سور حماية، وفكر فلسفيّ بُني على قاعدة صلبة، ما يكون الاستهتار به إلاّ نتيجة طبيعيّة لتشوّش الرّؤية والأفكار، ثمّ من المؤكّد أنّ هناك من سيلمس فداحة الأخطاء التي ارتكبها بحسن نيّة، لكن للأسف سيكون متأخّراً جدّاً، إلى درجة أنّ مسألة إعادة القطار إلى سكّته قد تستغرق سنوات طوال، وربما صراعات داخليّة سيكون الكلّ فيها خاسرا.

ويبهجني اهتمامها بالموضوع، فأتشجّع للمواصلة:

– لقد تربّت أجيال متعاقبة على أخطائهم، وكلّ جيل سيضيف أخطاء أخرى، ويساهم بدوره في التّميّع والتّعفّن، الشّيء الذي يجعلني أتساءل دائماً عن المستفيد الأوّل من محو الخطّ الفاصل بين فنّ الإنشاد وما يشبهه من فنون غنائيّة أخرى، ولا أجد إجابات وافية.

فتجيبني بجديّة وهي تضع آخر اللّمسات على طبق صحراويّ لذيذ للعشاء:

– من يستهتر في حماية نفسه، فهو المذنب الأوّل فيما يحدث له.

ثمّ بسقت لي سيرته من جديد وأنا أتناول قطعة لحم من الطّبق، كنخلة تشرئبّ بجذعها عالياً في السّماء، فيغمرني الشّوق الفيّاض:

– أخيراً سأراه عن قرب بعد كلّ هذه السّنوات.

عبارة ظلّت ترنّ في رأسي، وأخيراً... سأرى سرّ قلبي الذي داريته عن تخومي، لولا وشاية عينيّ وخيانة صوتي، وتحريض فؤادي... سأراه أمامي وأنا أجهل ردّ فعله حين يراني أمامه.

– فيم تفكّرين؟، ستعضّين لسانك.

وينفجر الجميع ضحكا، غير أنّي لا أعبأ بهم وأستمرّ في شرودي بعد أن أجاملهم بابتسامة:

– هل سأعجبه بهذه النّظّارات الطّبيّة البيضاء؟، أم سينفر منّي متذرّعا؟.

– نحن هنا.

– دعيني «صفاء».

إلاّ أنّها تتشبّث بمشاكستي، وكأنّني أختها الصّغرى.

★★★

في غرفتي أقول في نفسي وأصابعي تتراقص على لوحة المفاتيح:

– من المؤكّد أنّه الآن في العمل، وليس له وقت ليرى تفاهاتي.

وطالت مدّة الرّدّ، دقيقة ودقيقتان، ثمّ إحدى وعشرون دقيقة... وتوجّست من اعتذاره.

– يا للفضيحة أمام رئيسة الجمعيّة، سأتكفّل بالأطفال وحدي، وفاة أمّي علّمتني مواجهة الصّعاب، وفاة أمّي علّمتني أن أعي جيّداً مشقّة الصّعود، وأنا المولودة بملعقة من ذهب، سأقاوم رغم ألاّ رصيد لي في الإشراف، سأتصرّف كأرملة ترك لها زوجها في معترك الحياة أطفالا، فهل ستتخلّى عنهم؟، أم ستقتلهم وتنتحر؟.

ثمّ أتسلّح بما أحاول ترسيخه في اللاّوعي:

– لله الأمر من قبل ومن بعد، والله لا يضيع أجر المحسنين.

قبل يوم السّبت المبارك بيومين وأنا أعاني بقايا زكام أبى أن يفارقني صلحا.

تصلّبت بعد صلاة الصّبح أمام المرآة متعرّقة أتفحّص أبعاد جسمي بتفاصيله:

– الحمد لله؛ أثر الشّوكولاتة الدّاكنة، مرآتي لا تكذب.

رحت أكرّر العبارة التي أرفع بها هرمون السّعادة، ثمّ نزلت إلى المطبخ مسرعة، منتهزة فرصة تأخّر الجميع في النّهوض:

– تأمّليني جيّداً «ماما سوسو»، ما رأيكِ في شكلي؟.

– جميلة وأنيقة ورشيقة كعادتك، أنتِ تشبهين الطّبيبات، لكن لماذا «إلهام»؟.

– هل سينفر منّي؟... سينفر... أليس كذلك؟، يا إلهي الرّحيم، مرّت سنوات لم يرني فيها.

– من؟.

وأسهبت لها في الحكي، وكلّما تحدّثت عنه تحوّلت إلى إمبراطورة.

– آه... لهذا كنت شاردة البارحة... سآتي معك.

فصرخت ممسكة برأسي من هول ما قالته:

– كلاّ، سيشكّ في الأمر، لا يوجد سبب منطقيّ لحضورك.

– هل أنتِ متأكّدة من كونه سيأتي؟.

– لم يجبني...

– أرافقكِ لأعرف من رئيسة الجمعيّة مصدر الصّورة.

– لا تهمّني الآن الصّورة «ماما سوسو».

تردّدت لحظات قبل أن أنطق بها:

– لنفرض أنّه سيأتي، ماذا ستقولين له؟؛ ابنة أختي متيّمة بك، من فضلك يا أستاذ... تزوّجها.

وانفجرت ضاحكة ملء شدقيها، ويا لضحكتها الجذّابة التي تنسي هموم المعدّلات.

42

الثّعلوبة

كلّما اقتربت السّاعة العاشرة، يخفق محرّكي النفّاث الذي خُلق بين جوانحي:

– أخشى ألاّ يأتي وهو معذور... والله معذور.

أقول هذا في داخلي ثمّ أضع مرساتي:

– سيأتي إن شاء الله، يوم السّبت يوم عطلة.

وأزداد اطمئناناً حين أتذكّر أنّي صحوت لصلاة التّهجّد، ثمّ راجعت حزبين من القرآن الكريم، بل صلّينا الفرض كلّنا جماعة، أنا و«ماما سوسو» و«بشرى»، في حين غابت «صفاء» لعذر شرعيّ.

– سأخفي النّظارات كي أبدو على الشّكل الذي رآني عليه قبل أربع سنوات، ليرى «السّوبرانو» التي عهد أن يراها أمامه.

هذا ما حدّثني به قريني الملعون وأنا أتأمّل صورته في الهاتف، ثمّ عدلت عن سخافتي:

– يجب أن يقبلني على شكل الحالي، ما معنى أن أخفيَ شيئاً عنه؟.

في ذلك الصّباح المشمس، ودّعتني «ماما سوسو» وهي تطبع قبلة كبيرة على جبيني، حمّلتها كلّ أمانيها والأحلام، ثمّ ثبّتت عينيها في عينيّ:

– الكذب مفتاح كلّ شرّ، أنتِ درّة يا «إلهام»، صوني نفسك ولا تهينيها باسم الحبّ، والله لن تأخذي شيئاً لم يكتبه الله لك.

وكرّرت جملتها، كأنّها تتعمّد نقش العبارة عميقاً في داخلي، فابتسمت ويدي على حقيبتي.

★★★

ما إن ولجت باب مقرّ الجمعيّة، حتّى تفاجأت بكعكة عملاقة من أربعة طوابق، كُتب عليها «أهلاً وسهلاً أستاذنا الكبير»، فوق منضدة دائريّة الشّكل تتوسّط القاعة، مدجّجة بالموز والبرقوق والمشمش، مع بعض الحلوى التّقليديّة، وعبوات مياه.

– سأهديه الشّوكولاتة مثل المرّة السّابقة، وأمري إلى خالق الأذواق.

هذا ما عزمت عليه، وأنا أخرج منديلاً ورقيّاً أداري به ما يفرزه أنفي حرجا، قبل أن أبدأ رحلة المجاملات مع عضوات المكتب، في انتظار أن تشرق عليّ شمسي.

على حين غرّة، التفتت رئيسة الجمعيّة بصوت مرحّب، وابتسامة في عرض مرمى كرة القدم، فالتفتّ معها متلهّفة ظانّة أنّه وصل، غير أنّي صُدمت بفتاة بدت لي في منتصف العشرينيّات، ترتدي حجاباً فيروزيّا، طويلة القامة، بيضاء البشرة كالرّوسيّات، تناسق لون حجابها مع لون عينيها المائل قليلاً إلى الزّرقة.

تيبّست مكاني كتمثال غرانيتيّ، و لم أنتبه إلاّ لصوت رئيسة الجمعيّة التي صاحت:

– وعليكم السّلام، أهلاً «ابتسام».

وطبعت قبلتين حارّتين على وجنتيها الممتلئتين، فلم أتبيّن تورّد التّزيين من تورّد الخجل، فيما راحت الأخريات تقبّلنها كأنّهنّ على معرفة سابقة بها، وأنا الصمّاء وسط العرس.

عندها أمسكتني من يدي برفق:

– أعرّفك على ابنتي... «ابتسام»، خرّيجة كليّة الطّبّ العام الفائت.

وقبّلتني الدّمية.

نعم... أربع قبلات كاملة.

– أنتِ تبكين؟.

– مجرّد زكام خفيف، من الأفضل لو تتجنّبيني.

ضحكت وراحت تعتصرني بين أحضانها عصراً وهي تلقي بعبارتها عالياً أمام الحاضرات:

– أنا مطعّمة.

أحسست من نبرة صوتها تهديداً خفيّا، فقلت في نفسي والغيرة تأكلني أكلا:

– وربّ الكعبة الشّريفة، لأجذبنّها من شعرها وأجرّها جرّاً على أرضيّة القاعة، لو حاولت مجرّد الحديث معه، حبيبي... يُسرق منّي في وضح النّهار وأسكت؟، كلاّ لن أتركها تهنأ به، أنا هي المتحكّمة في قواعد اللّعبة، النّصر أو الاستشهاد، والمجد لنا... نحن الفتيات.

هزّتني الرّئيسة بلطف:

– «إلهام» حبيبتي، ما بك؟، خيراً إن شاء الله، تغيّرت سحنتك.

– لا شيء، تذكّرت شيئاً من الماضي.

– أهناك خطب ما؟، مشكل عائليّ مثلا؟، أنا أصغي.

– المسكينة مريضة... ماما.

– حقّا... طهوراً إن شاء الله.

لا أعرف كيف استطاعتا رسم شفقة بوليووديّة على وجهيهما بتلك السّرعة، ثمّ جلست بجانبها وراحت توشوش بهمس، تعمّدت إذاعته نحوي:

– أخبرتني والدته البارحة أنّه سيأتي، لقد اشترى سيّارة جديدة.

نعم... بكلّ قذارة الخنازير ووداعة الحملان.

تخدّرت ساقاي وأنا أرى البساط يُسحب من تحتي، ثمّ التفتت إليّ قائلة:

– لم تخبريني ما المشكل؟، على فكرة هنا في الجمعيّة لا توجد أسرار.

فقلت بنبرة تحذير لا تخفى عن عاقل:

– خاطرة تتسكّع في رأسي، أحاول بلورتها في شكل مقبول، قبل أن تفلت منّي في تصرّف طائش.

– يبدو أنّني سأتعامل مع شخصيّة حسّاسة، عاطفتها الجيّاشة تقود...

لم تكمل جملتها ضاحكة، حتّى طرق الأستاذ الباب المفتوح ملقياً السّلام بابتسامته الصّافية.

يا الله...

عجزت أقلام الزّمن على أن تكتب على صفحة وجهه شيئا، وهو الذي إذا أمسك وردة في يده زادته إثارة وزادها جمالا.

واحمرّ وجهي وأنا أراه أمامي بشحمه ولحمه، يتبادل التّحيّة مع الحاضرات والحاضرين.

ثمّ اقترب منّي مسلّما، ولعلّه أحسّ باضطرابي الذي حاولت إخفاءه عبثا، وعيون القطط البشريّة، فلم يزد فوق ذلك شيئا.

ورحت أبثّ في ذاتي سكينة وأنا أردّد:

– نحن الاثنان نرتدي نظّارات طبيّة، معنى هذا أنّنا نتوافق وننسجم مع بعضينا، ما شأن هذه الدّمية؟.

تفطّنت لأزيزي بالتفات بعض البنات الصّغيرات لي، مستغربات من هذه المجنونة التي تكلّم نفسها.

– يا إلهي، ما هذا المنطق الغريب الذي أفكّر به؟، ما دخل النّظارات في التّوافق؟.

في النّهاية حزمت أمري:

– هذه المرّة سأعطيه لوح الشّوكولاتة أمام أعين كلّ الحاضرين، كي أقطع الطّريق أمام ابنة رئيسة الجمعيّة، فلا تتسلّق بتفكيرها جبال «الهيمالايا»، صبركِ عليّ أيّتها الدّمية، المسألة كلّها لن تتعدّى نصف دقيقة.

ورحت أقتنص فرصتي، محترسة من الثّعلوبة التي تطارده بعينيها، كلّما سار أو تكلّم أو تناول شيئاً من المنضدة، التي تزيّنت ببعض الأطباق الفاخرة.

وسمعت أمّها بلكنتها المصطنعة المتعالية تزعم أنّ ابنتها هي من حضّرت هذا الصّنف أو ذاك، مسترسلة في شكرها، وشكر أصابعها التي يجب أن تلفّ في حرير صينيّ، والماكرة -بطبيعة الحال- لا تفوّت ثانية إلاّ وأصلحت فيها خمارها أمامه، في حركة لا إراديّة حين تلتقي أعينهما.

حسن حسن، وربّ الكعبة الشّريفة لأذيقنّكِ الأمرّين، والبادئ أظلم، أنا من طبعي مسالمة، والويل... كلّ الويل لمن تغضبني.

– أستاذ.

نظر إليّ منتبها، كما نظر «عبد الناصر» و«رغد» و«جانيت» و«عفاف» و«نانسي»، وبعض العضوات.

باعتزاز أرستقراطيّ فتحت حقيبة يدي السّوداء، باحثة عن لوح الشّوكولاتة الذي جهّزته له منذ ليلة البارحة سرّا، وأنا أردّد في داخلي:

– دعي الكلّ يشاهد ما ستفعلينه الآن يا «إلهام»، كلّما زاد عدد الشّهود كلّما دفعتِ غريمتكِ إلى أسفل السّافلين.

يا ربّ السّماوات!...

43

موقفه يكفي

لم يأتِ هذه المرّة أيضاً متذرّعاً بالعمل، مكتفياً بإرسال أمّه «طاطا سامية» وأخته الشّابة «رهف»، التي يقارب سنّها سنّي، في زيارة شبه رسميّة.

بعد أن هنّأن أختي بحصولها على شهادة «البكالوريا»، رحن يثرثرن مع جدّتي كعادة النّسوة في كلّ مجلس، مندهشات ممّا فعله أبي الذي نزل من الحائط.

– في الواقع أنا محرجة من...

صمتت قليلاً ثمّ واصلت بنبرة ترقّب:

– لديه مرض السكّري من الصّنف الثّاني.

نطقت والدته وهي تداري صوتها باستحياء، ناظرة تجاه «صفاء».

– الرّأي رأي العروسة.

جملة ألقتها «ماما سوسو» لتزيح المسؤوليّة تماماً عن كاهلها، غير أنّ والدته واصلت حديثها، مركّزة نظراتها على أختي:

– ستسكن «صفاء» وحدها في شقة، في انتظار تسلّم مسكنه الخاصّ من برنامج «عدل»، إن شاء الله في المدينة الجديدة، يقولون إنّ المشروع سينطلق في نوفمبر 2020.

هنا، نطقت جدّتي:

– كيف أصيب بالسّكّريّ؟.

– في سنّ الخامسة والعشرين.

– وراثي؟.

وهزّت أمّه رأسها وهي تنظر لابنتها نظرة لم أتبيّن معناها جيّدا.

– المرض ليس عيباً «طاطا سامية».

تسبّبت صيغة «صفاء» في تحرير تنهيدة كبيرة من صدر والدته.

بعد انصرافهما سألت أختي مستفسرة:

– هل أنتِ موافقة على شخصيّته كرجل، أم لأنّ لديه كلّ ما تحلم به أيّة امرأة في العالم؟.

ولم تجبني أختي حتّى الآن.

★★★

وحبست أنفاسي...

توقّف الزّمن وأنا أبحث في الحقيبة دون جدوى عن لوح الشّوكولاتة، الذي بقي منه ثلاث قطع فقط، ورحت أعيد تفتيش حقيبة يدي كأنّ عيناي تخدعانني.

ماذا أفعل الآن يا ربّي؟... نظرات الكلّ تحاصرني، والأستاذ... أأقابله بما اغتُصب من حقّه؟...

ابتلعت ريقي بتوتّر كشفه صوت أنفاسي، حرارة صيف تجتاح وجهي اللّحظة، وأنا على رأس شامخ من الخجل.

وهنا امتدّت يده إلى الحقيبة، وكأنّه فهم كلّ شيء من احمرار وجهي وتمتمتي السّاخطة.

– يا «إلهام»، يا «إلهام»... ما زلتِ تعرفين جيّداً ما أحبّ.

وأخذ الجزء البسيط المتبقّي من اللّوح الذي كان معي.

وخيّل إليّ أنّه ضخّم يده ليُظهر لهم أنّ هناك قطعاً كبيرة من الشّوكولاتة، فوضع واحدة في فيه، بحركة خاطفة تشبه ألعاب الخفّة، مخفياً باقي القطع في جيب سترته الرّماديّة.

ثمّ همس لي بالإسبانيّة متعمّداً إسماع الأخريات:

– «غراثياس سوبرانو»، «غراثياس سوبرانو».

يا الله... إنّها شيفرتنا السّرّيّة.

وحانت منّي نظرة انتصار نحو طبيبة المستقبل، ها هي الآن قد تحوّلت إلى مومياء فرعونية محنّطة، في حين رمقتني رئيسة الجمعيّة بسهام نظراتها، وكأنّني انتزعت القمر من سمائها انتزاعا.

عجبا لها!... هل أتركها تأخذ حبيبي هكذا ببساطة دون قتال؟.

هي المذنبة... هي من حامت حول من جعلته وطني، متجاوزة بذلك كلّ الخطوط الحمراء، والله لا عشت إن أفلحت، والمجد لنا... نحن الفتيات.

ورجعت في ثوب المقاتل المنتصر في حرب ضروس، أنا التي أطلقت الرّصاصة الأخيرة فكسبتُ بها الحرب.

وتذكّرت ما حدث لي قبل أربع سنوات من هذه اللّحظة.

عاد نفس الفيلم بكلّ لقطاته يمرّ أمام عينيّ، تذكّرت الحالة التي عدت بها آنذاك بعد الإعلان، تذكّرت كيف كنت أطرق الباب بعنف، ناسية تماماً أنّ لدينا جرساً يصدر نغمة حلوة.

تذكّرت «صفاء» التي فتحت لي متذمّرة، متسائلة في الوقت ذاته عن جدواه.

غير أنّي لم أجد وجهها الحبيب لتقول لي:

– عيونك تتلألأ من الفرح، ما الخبر؟، بشّرينا بشّرك الله.

وبكيت بشدّة في حضن خالتي، وأنا أفتقد النّسخة القديمة من حياتي، يحيط بي الحنين إلى الماضي إحاطة السّوار بالمعصم، وتتسرّب مشاعري مترسّبة عبر سردابٍ عتيق.

– والله يا «إلهام»، والله ربّ الدّنيا والآخرة... إنّه يحبّك.

44

زيارات تفتيشيّة

حديثة عهد بالإشراف أنا، ومن غير المعقول أن أواصل سيري دون خبير.

– يختلف بناء الحصّة التّدريبيّة الموجّهة للكبار عن مثيلتها الخاصّة بالصّغار، ويجب ألاّ تحيدي عن هذا مطلقاً يا «إلهام».

أهزّ رأسي موافقة وأسترسل في عبارات التّقوية النّفسيّة، لبناء جسور متينة بيني وبينهم:

– ممتاز «رغد»، أنتِ تقومين بعمل جيّد.

– رائع «عبد النّاصر»، محاولة تستحقّ كلّ التّقدير والاحترام.

– جيّد جدّاً «عفاف»، هذا ما أريده منك بالضّبط.

«كلّ شيء في حياة الطّفل قد يشكّل منعرجاً خطيراً في حياته مستقبلا».

عبارة قالها عرَضاً قبل أربع سنوات من الآن، وما زالت عالقة في ذهني وكأنّه قالها قبل ساعات، لم أتخيّل آنذاك أنّه سيأتي يوم أتعامل فيه معها تعاملي مع نار الفرن.

أضحيت الآن ألعب الدّور الذي لعبه الأستاذ في فترة سابقة من حياتي، أشخّص أصواتهم، وأسجّل «بيانات الرّصد» في دفتر خاصّ كما علّمني؛ مثل مستوى الأداء الصّوتي وما يرتبط به من تنفّس وتردّدات سليمة للذّبذبة، والشّعور بالوزن النفسيّ؛ ويشمل هذا مدى صحّة الصّوت، بحيث يكون سليماً خالياً من عيبي الكبت والانزلاق، ومشكلتي البحّة والنّشاز العرضيّ.

– هل أنا جاهزة الآن؟.

وأضحك على براءتها وهي تسألني بصوت يكاد يكون باكيا، حين وضعت إمضائي على كشف الفحص العامّ للقدرة الصّوتيّة «SV 5».

هذه هي «عفاف»، مرآتي ذات العشرة أعوام.

ثمّ أتحوّل إلى مستوى قوّة الصّوت؛ بحيث يكون تردّد الذّبذبة في قيمته الفضلى قدر المستطاع، وأعرف ذلك بالأزيز الذي يطرق الأذنين، ثمّ مدى سلاسة عمليّة التّنفّس، بحيث تكون عادية خالية من مظاهر التّطوّر الصّوتيّ؛ كرنين استرجاع الهواء، أو السّعال، أو إفراز الدّموع، أو احمرار الوجه.

وأخيراً درجة التّناغم في عمليّات الأداء بين الفرديّ والمجموعة من جهة، وبين أفراد المجموعة فيما بينهم من جهة أخرى، ومدى الشّعور بالوزن النّفسيّ، والقدرة على ترجمته إيقاعيّاً، دون نسيان التّأثير البصريّ، وما يرتبط به من هندام وتفاعل وانسجام جسديّ بين المنشدين.

★★★

- إنّها عمليّات بالغة التّعقيد عزيزتي «بشرى»، كأنّي أرسل صاروخاً إلى الفضاء.

- يتقدّم الزّمن وتتقدّم معه كلّ الأشياء.

- هل كنتم تتدرّبون على هذا المنهج حين كنتِ في الكشّافة؟.

- لا... كنّا نردّد الأناشيد فقط، لا تصحيح الصّوت ولا تمارين لتقوية التّنفّس.

- يا لجمال الشّعور الذي يخالجني «ماما سوسو»، لمّا أجدهم وقد نجحوا في تقليد أصوات الدّيوان الموسيقيّ!، في تسارع غريب لم أعهده من قبل، بل عساي أكون صائبة حين اخترت لهم أنشودة «أحبّا يا قلبي» لفرقة «الأشواق» الجزائريّة، نظراً لمستواهم الذي أضحى يناطح السّحاب.

- فرقة «الأشواق»؟، «محمّد شعيب»؟...

- هل تعرفينها؟.

- طبعاً، من منطقتنا من «بشّار»، من لا يعرفها هناك؟.

وراحت تنشد وهي تحضّر السّلَطة، ثمّ توقّفت:

- فرقة قديمة من التّسعينيّات... لديها فرقة للبنات أتعلمين؟.

وهزّت خالتي رأسها إعجابا.

- ممتاز... في الصّحراء ولديهم فرقة منشدات؟.

- نعم عراقة الفرقة عبّد لها كلّ الطّرق، لو رأيت يا «سميّة» مدى حبّ النّاس لهم.

- حين تتغلغل الثّقة بما يكفي فسيسارع الكلّ إليك، لأنّك الملجأ الآمن.

بهذا أجابتها خالتي، لكنّي أحسست أنّها تقصدني، فأنقش عبارتها في قلبي نقشا، مقارنة حكمتها بحكمته.

★★★

وكلّما تسلّل إلى أنفي شيء من عطره، أيقنت أنّه سيكون هنا بعد لحظات، وحتّى الأطفال تعلّقوا بأبيهم الجديد، فصاروا يسألونني عن موعد مجيئه، ولا أملك إلاّ أن أتذرّع بانشغاله في العمل.

– المشرفة الجيّدة هي من تقلّل من تدخّل هامش الظّروف في عملها، لا تقلقي... سآتي إليكِ من حين إلى آخر.

هذا ما صارحني به مفتّشي، وأنا أرتدي قفّازاتي البيضاء، مركّزاً على بعض الكتب الهامّة في الفكر الإنشاديّ الحديث، التي أوصى بوجوب الاطّلاع عليها، من أجل تشكيل رؤية نظريّة صلبة عامّة، تتأسّس عليها أفكاري، مثل «المنظار في النّقد الإنشادي»، و«تأمّلات في الفلسفة الإنشاديّة»، و«قضايا إنشاديّة» للشّيخ «أبو محمود التّرمذيّ».

وأصبر...

متيقّنة أنّي لا أستطيع بناء المدينة الفاضلة، لكن سأحاول على الأقلّ بناء المهندس والمهندسة، اللّذين سيصمّمان منازلها وشوارعها ومرافقها العامّة.

أنا مسبار وعي ثقافيّ يتشكّل طرديّاً مع شماطة العجوز؛ سأغيّر العالم وأضع بصمتي راسخة في التّاريخ... والله المستعان.

نعم، ليس سهلاً البتّة أن يرتاح لك أصحاب الصّفحة البيضاء، ليس في قدرة أيّ شخص غريب أن يحتضن «عفاف» أو «رغد» الأمّورة، أو أن يعانقه «رشدي» أو «عبد النّاصر» أو «مروان»، ويفصح لك الجميع دون استثناء، عن مشاعرهم وهم في غاية السّعادة والحبور، بل ويبوحون لك آمنين بما يختلج في خلدهم ويدور.

– سأكون مثل الأستاذ.

هذا ما يجاهر به «عبد النّاصر» أمام زملائه وزميلاته متفاخرا، فأتمثّله حبيبي حين كان صغيرا.

آه يا زمن... كلّما توغّلت في التّعليم أكثر، أيقنت ما كان يتكبّده معلّمونا وأساتذتنا من عناء، منذ اليوم الأوّل الذي رافقتني فيه أمّي إلى المدرسة الابتدائيّة، وهي تمسك بيدي، محاولة طمأنتي أن كلّ شيء سيكون على أحسن ما يُرام.

– انتبهي للوريد الوداجي الأيمن.

وأراني إيّاه واضعاً إصبعه على مساحة صغيرة في رقبة «عبد النّاصر»:

– هذا الوريد هو مؤشّر هامّ لبداية التّخلّص من الكبت الصّوتيّ، إذا رأيتِه بارزاً بهذا الشّكل، فهو علامة جيّدة على عمل الأحبال الصّوتيّة، هذا الانتفاخ محمود، لأنّه يدلّ على بذل جهد إيجابيّ في التّصحيح.

– لماذا لا يظهر في طبقات الأصوات الغليظة؟.

– يظهر من صوت «فا» من «C3»، عموما.

وحين يتكلّم يجب أن يصغي إليه الجميع:

– هناك نوعان؛ وريد وداجي ظاهر وآخر غائر، ومن كليهما لدينا اثنان، على جانبي الرّقبة، وظيفتهما نقل الدّمّ من الدّماغ ومناطق الوجه إلى القلب لتصفيته، ثمّ يعود نقيّاً محمّلاً بالأوكسجين عبر الشّريان، لاحظي أنّ ظهور هذا الوريد غالباً ما يكون في الجهة اليمنى بالنّسبة لرقبة المنشد أو المنشدة.

– معنى هذا أنّ بروزه دليل على أنّ المنشد أو المنشدة يبذل جهداً حقيقيّاً في تصحيح الأصوات الصّدريّة؟.

– ممتاز... رغم أنّه عند بعض مدارس الغناء يفسّر بكونه أثراً سلبيّا.

ثمّ أضاف:

– في النّهاية هو أثر فيزيولوجيّ في الرّقبة، لكن كيف يجب أن يُقرأ، هذا هو الإشكال الحقيقيّ.

وحين رنّ هاتفه نزع قفّازيه محاولاً إنهاء الموضوع:

– منهم من يقول إنّ الوريد الوداجي الظّاهر الأيمن أقرب إلى السّطح من نظيره الأيسر، والله أعلى وأعلم.

وما زال يدهشني تواضعه!.

– على كلّ حال... لا همّنا هنا التّفاصيل بقدر ما همّنا الصّورة العامّة.

وخرج مسرعاً وهو ينظر إلى رقم المتّصل، ثمّ سمعته يقول منشرح الصّدر:

– أنا قادم.

ولا أعرف لَمَ أكون سعيدة لسعادته!.

لقد كنّا في مرحلة تسمّى في الفكر الإنشاديّ الحديث مرحلة «تأهيل الذّات»؛ وهي فترة تشرنق، تحضّر فيها الفرقة جيّداً، استعداداً للمرحلة التّالية، مرحلة «تحقيق الذّات»؛ مرحلة المشاركات والتّسجيلات، وكان حريصاً على تذليل كلّ الصّعوبات التي تقف في سبيلي.

كانت تفصلنا نصف ساعة فقط عن نهاية الحصّة حين اكتحلت عيناي برؤياه، دخل مرفوقاً برئيسة الجمعيّة والكاتبة العامّة، التي أرادت ضمّ ابنتها للفرقة، وراحت تشتكي من صوتها الذي يشبه طنين بعوضة.

غير أنّه ابتسم واثقاً وهو يمسح على رأس «عفاف»:

– لا تخشي شيئا، درجة استيعاب الأطفال عالية بمرّتين أو أربع من درجة استيعاب الكبار، وعليه فالنّتائج التي يمكن تحقيقها قد تتخطّى توقّعاتنا، خاصّة إذا توفّرت مادّة إنشاديّة جيّدة المحتوى، ذات لدونة خاصّة.

ونظر إليّ كأنّه يخاطبني مكملا:

– وارتبط المشرف أو المشرفة بعلاقات طيّبة مع ذويهم، بما يضمن استمراريّة سلِسة للتّنشئة والتّوعية والتّربية.

ثمّ أضاف دون أن يشيح بوجهه عنّي، على مسمع من رئيسة الجمعيّة التي شدّها كلامه:

– على مهلك، العمل الجيّد يتطلّب وقتا، لا تتعجّلي النّتائج، الجمهور كتلة من العواطف يستعمل أحكاماً عاطفيّة أكثر منها عقليّة... لا تبن عليه كلّ البناء، ولا تنظري إليه كأنّه ناقد يعرف ما يفعل، هي العاطفة التي

تتحرّك، ومن خصائص العاطفة إذا تحرّكت أنّها لا تستطيع ضمان ثباتها واستقرارها تجاه موقف معيّن، لهذا عليكِ بالإتقان والعلم بالشّيء ما استطعتِ... لا تنسي «مزارعي الحديقة الخلفيّة».

★★★

- آه يا «ماما سوسو» لو رأيته وهو يتكلّم أمامنا... كأنّه بروفيسور.

- رأيته الإثنين الماضي، كان برفقة أمّه يتسوّقان، ومرّت بقربهما بعض الكلاب المتشرّدة، وقفت أمامهما مستعدّاً لأيّة مساعدة... كما تعلمون جميعاً أنا الحارس الذي لا يهادن الشرّ.

فينطق أبي وقد غالبه ضحك استصعب كتمه، وهو ما زال يمضغ لقمة صغيرة وضعها في فيه قبل لحظات:

- متزوّج؟.

- لا يا أبي ليس بعد، لقد كان...

وتركلني خالتي من تحت المنضدة تنبيها، قبل أن تنزلق منّي أيّة كلمة ليست في محلّها.

- نعم يا أختي العزيزة، في عينيكِ كلام تريدين قوله.

- أسألكِ شيئاً وأجيبيني دون لفّ أو دوران.

- بالتّأكيد، ولماذا أراوغ؟.

- هل تفعلين هذا كلّه لله، أم لعيني الأستاذ؟.

عبارة ألقت بها «صفاء» على مسمع كلّ من كانوا جالسين إلى المائدة، ونحن نتناول العشاء في مطبخ «بشرى».

45

مراوغة رومنسيّة

– صباح الخير، تريد «ابتسام» أن تتكوّن مثلك في الإشراف، ربما ستحتاجين إليها كمساعدة يوماً ما، أو ربما أسّستْ فِرقة ثانية، على فكرة... ابنتي تعشق الإنشاد حدّ الجنون.

أطلقت كلامها كقذيفة مدفع في وجهي، وهي تطوف بعينيها بين وجه الأستاذ ووجه الثّعلوبة الذي علته خصلات شعر كستنائيّة اللّون، أظهرتها عمداً تحت الخمار.

تصنّف أصوات الأطفال «سوبرانو غير ناضج»، سرعان ما يتطوّر إلى «سوبرانو» و«آلتو» عند النّساء، كما يتطوّر إلى «تينور» و«باص» عند الرّجال، هذا تماماً ما أكّده لي مفتّشي، الذي نصحني أن أدمج بين التّقنيات والأناشيد في حصّة واحدة، أسبوعيّاً كلّ يوم سبت على السّاعة العاشرة صباحاً في مقر الجمعيّة، كي لا يملّ الأطفال بطبيعتهم.

جزء التّقنيّات في البداية هو في الواقع وقت مخصّص لتصحيح الأصوات وتقويتها.

بقدر ما أدهشني هذا المزج التّعليميّ، بقدر ما كان ذهني منشغلاً بالماكرة التي تترصّده بجانبي.

أخاطب صورتي المنعكسة في مرآة غرفتي:

– فرقتي الآن تضمّ ثمانية عشر منشداً ومنشدة من بينهم سبعة ذكور، والباقي كلّهم إناث، لديّ مشروع أسعى لتثمينه، مشروع بذر الأستاذ بذرته في قلبي قبل سنوات من الآن، وليس وحده من راح ينمو.

وحين أتذكّر ما ينتظرني من ضغوط في المستقبل أقول:

– لا أستطيع أن أتوقّف وأتركهم، أنا أمّ وهؤلاء أولادي، وسبحان الله الذي جعلني قِبلة لمن يبحثون عن رأفة قلب تتجسّد.

يوم السّبت المشؤوم.

وصلت باكراً بنصف ساعة، لأجد رئيسة الجمعية هناك رفقة ابنتها تتجادلان، دون أن تدركا أنّ فراغ القاعة والرّواق ينشر ذبذباتهما الصّوتيّة.

– خطّة ولا كلّ الخطط.

– لن أتركه لها، وسنرى من ستأخذه في النّهاية، آه ماما رائحة عطره.

– ششششوت... حركة في الرّواق.

تسمّرت مكاني غير مصدّقة وقاحة ما طرق طبلة أذني، ثمّ تنبّهت إلى قدوم الرّئيسة بعد أن حذّرت ابنتها، فاختبأت بسرعة وراء بعض الأغراض المكوّمة، والأفكار لا تتوقّف عن التّزاحم في رأسي.

انتظرت أن تعود إلى ابنتها كي أخرج، لكنّها أبت الانصراف، فبدأ قلبي ينبض بسرعة، حتّى خشيت أن تتسلّل ذبذباته إلى أذنيها الكبيرتين:

– «عفاف»؟، هذه أنت؟.

– صباح الخير، هل الأستاذة هنا؟.

– ليس بعد، أنتِ فقط من تأتين قبل موعدك... شاطرة.

تنفّست الصّعداء... فيما راحت ضحكاتها تتصاعد، وهي تمسكها برفق من كتفيها، مسكة هرّتنا للفئران.

★★★

– آه يا «ماما سوسو»، كدت أموت من الرّعب.

– أنقذتكِ «عفاف» في الوقت المناسب.

– كانت ستأتي لتلقي نظرة خلف الأغراض المكوّمة، أنا متأكّدة، كنت أسمع صوت تنفّسها لولا ستر الله.

– ما كانت خطّتها؟.

– الله أعلم يا «بشرى»، لم أسمع كلّ الحديث الذي دار بينهما، يبدو أنّي أتيت متأخّرة.

– والأستاذ؟.

– لا يعرف شيئاً عن مؤامرتهما، لكن قال لي جملة غريبة في نهاية الحصّة.

وواصلت سرد كلّ شيء بالتّفصيل.

46

فراء الثّعلب

بين عشيّة وضحاها أصبحت ابنة رئيسة الجمعيّة مساعدتي في الإشراف، وأعترف أنّها كانت تلبّي أوامري كجارية من جواري ألف ليلة وليلة، أمّا حين يحضر الأستاذ فتتحوّل إلى «شهريار».

– انظر أستاذ، أنا من كتبت هذا.

كمعادلة جديدة تتشكّل أمامي، نظر إلى الورقة التي تراجعتُ عن تمزيقها في جزء من الثّانية، ثمّ قال غير آبه بحركاتها الصّبيانيّة:

– دعيها لي، سأطّلع عليها في وقت لاحق.

ورمقتني بنظرة غريبة، وهي تهشّ بيديها على ذبابة حاولت الاستقرار على أنفها الرّقيق.

لا أعرف ما الذي جال بخاطرها في تلك الآونة بالذّات، غير أنّي أحسست بشيء يشتعل في صدري من تجاسرها أمامي.

ثمّ وجّهت لي ضربتها الثّانية:

– آه تذكّرت أستاذ، ستحضر اليوم بعض البنات للانضمام للفرقة.

– الفرقة فرقة «إلهام»، وهي صاحبة القرار النّهائيّ.

ونظر إليّ بعينين تتلألآن، في حين تجاهلت ردّه بابتسامة حاولت كثيراً إعطاءها ملمساً حريريّا.

– لَمَ لم تخبريني من قبل؟.

– لا أريد إزعاجك عزيزتي، اتركي لي أمر المنخرطين الجدد، ألست مساعدتك؟، سأتولّى...

– تريدين تأسيس فرقة ثانية؟.

– لا لا، حاشا لله.

وسكتت فجأة بعدما أحسّت أنّ ردّها الغريب على سؤال الأستاذ أبان شيئاً كان مستورا.

وسرعان ما أكملت عبارتها التي ظهرت لها ناقصة المعنى:

– لدينا مشاركات، يجب تقوية الفرقة بعناصر جديدة، يجب أن تتألّق جمعيّتنا.

– ليس هذا اتّفاقي مع الرّئيسة، ما زلنا في مرحلة «تأهيل الذّات».

ونظرتُ نحوه كي يتدخّل، إلاّ أنّها قطعت نظرتي وهي تعدّل خمارها أمامه:

– ماذا نفعل؟، تلقينا دعوات كثيرة للمشاركة، كما أنّي أخبرت الجميع أنّ الأستاذ يعمل معنا.

تبادلتُ نظرات الاستغراب معه، وانطلق لساني دون شعور:

– أيّة مشاركة؟، ما زالت الفِرقة لم تجهز بعد، لماذا نخاطر بسمعتنا؟.

– صباح الخير، أتيت في الوقت المناسب.

– تعالي أمّي، أفهميها أنّ علينا ضغطاً رهيباً، ويجب أن نشارك ولو بشكل رمزيّ.

– كيف يكون هذا «ابتسام»؟، إمّا أن تكون لدينا فِرقة أو لا تكون، لا وجود لاحتمال ثالث.

– لماذا هذا التّطرّف؟... كوني وسطيّة.

أغضبني وصفها لدرجة أنّي فكّرت في طردها من القاعة، غير أنّ نظرات الأستاذ لي ألغت نيّتي، فقلت:

– أنا مشرفة هذه الفرقة، ولا قرار يمرّ دون موافقتي الشّخصيّة.

لسعتها عبارتي، فقالت وهي تعدّل خمارها من جديد، لتغطّي بعض الخصلات التي أخرجتها عمدا.

– المهمّ أن يعرف الجميع أنّ لدينا فرقة ولو كانوا من الصّمّ البكم.

تضخّم شيء في حلقي فانتفضت:

– هذا هو الخداع، أطفالي ليسوا بيادق، سينهار كلّ شيء أمام الجمهور، أنا هي المشرفة على الفِرقة، هل يجب أن أذكّرك بها ثانية؟.

ارتعشت وهي تحاول الحفاظ على هدوئها أمامه تصنّعا:

– لا بأس أستاذتنا، لا أجد سبباً واحداً لكلّ هذا الغضب، إذا لم يكن بمقدورك إتمام التّدريبات فالأستاذ هنا، لن يتخلّى عنّا، أليس كذلك أستاذ؟.

ودعّمت نظرتها إليه بإيماءة خفيفة من رأسها، وانحناءة تقدير، ثمّ نظرت نحو أمّها قائلة:

– آه... نسيت أستاذ... كيف حال والدتك؟.

– الحمد لله بألف خير.

– سأتّصل بها هذه اللّيلة، يجب أن أطمئنّ على صحّتها.

وألقت نحوي بقرني الاستشعار.

★★★

لم أنم جيّداً تلك اللّيلة وأنا أحاول إيجاد تفسير منطقيّ لما حدث، حين نظرت إليها وهي تحاول إخفاء تردّدها بتعديل خمارها، أضمرت التّشكّك والتّعاطف، رغم أنّهما شعوران من غير المنطقيّ اجتماعهما في قلب واحد، لكن ما كان يجول بداخلي ساعة استقراء عينيها وعينيه البرّاقتين، فرض عليّ التّحلّي بشيء اسمه الصّبر.

وتزداد هواجسي توحّشاً ساعة بعد ساعة.

منذ حادثة الشّوكولاتة في يوم الاستقبال، وأنا أشعر أنّ الطّريق معبّد أمامي أكثر من أيّ وقت مضى، وسبحان الذي عبّده دون حول منّي ولا قوّة، غير أنّه لم يبادر بأيّ شيء حتّى الآن، والثّعلوبة على اتّصال دائم بأمّه، تطبخ شيئاً نجساً كريه الرّائحة.

و لم يحضر في الحصّة الموالية، فعادت الثّعلوبة إلى تقمّص دور الجارية.

– من هم الأطفال الجدد الرّاغبون في الانخراط؟.

– لا يتجاوزون الثّمانية وربما أقلّ.

وراحت تعطيني أسماءهم، «بهيّة»، «ريهام»، «محمد أمين»، «هاجر»، «أمينة»...

حدّقت في عينيها برهة ثمّ ألقيت بطُعمي:

– غريب... تحفظين كلّ اسم وكأنّك تعرفينهم من قبل، لماذا لا تشاركين بهم باسم الجمعيّة؟.

أطلقت ضحكة تخيّلت أنّها أفلتت بها من حرجها، ثمّ عانقت «عفاف» قائلة:

– سأساعدك في دروسك، تعالي إليّ اللّيلة.

– منذ متى وأنتِ تساعدين «عفاف» في دروسها؟.

– «عفاف» حلوتي.

وزحفت نحو الآخرين كأفعى تبحث عن فريسة، وأنا أتفرّس في وجهها أبحث عن ذريعة للشّجار.

★★★

كانت السّاعة قد تجاوزت منتصف اللّيل حين سمعت طرقاً خفيفاً على الباب، فنهضت معتقدة أنّها «بشرى»، أتت تحتاجني في شيء ما، غير أنّي ألفيت نفسي بين أحضان وزيرة السّعادة.

– آه... هناك شيء في عينيك.

– أنتِ الوحيدة التي تفهمني «ماما سوسو»، سأنفجر من الغيظ... والله سأنفجر.

وسردت لها آخر التّطوّرات، محاولة التّحكّم بدموعي هذه المرّة.

– إنّها تلعب لعبة خطرة.

– وأنا متأكّدة من هذا «ماما سوسو»، لكن لا أعرف ما هي بالضّبط، أكاد أجنّ... كلّما تراني تتبجّح بعلاقتها القويّة مع أمّه، أو تستفزّني بفرقتها الثّانية.

– إنّها تحاصرك من جهتين.

– لهذا قال لي «لا تفسدي حلماً أسّسناه معاً»؟، لكن كان هذا في الحصّة التي أتت فيها مع أمّها، قبل أن تخبرني أمامه بالمنضمّين الجدد.

– من المؤكّد أنّه كان يعلم بخطواتها القادمة، فاستبقها.

فقلت وأنا أستجمع تركيزي، محاولةً خداع عقلي الباطن:

– لا أفهم... وضّحي أكثر.

– أليس الأستاذ خبيراً بميدانه؟، ألم يعِ مناورات الإدارة حين كان في الثّانويّة؟.

– صحيح.

– ما تلعبه هذه خلف ظهره لا يعدو أن يكون مجرّد نباح كلب على فيل، ستتخلّص منك فيما بعد بذريعة...

فقاطعتها واقفة:

– تتخلّص منّي؟، فرقة أسّستها أنا وتأخذها هي؟، سأقاتل من أجل أطفالي «ماما سوسو».

– اجلسي، الفرقة طعم للأستاذ، لا أكثر ولا أقلّ، ألم تفهمي عبارته؟، ركّزي معي... لن تستطيع المشاركة بالأطفال الذين أحضرتهم معها لأنّهم غير جاهزين، لذلك ستدعّم فرقتها بعناصر من فرقتك.

وعدت إلى نقطة البداية وقطيع أفكاري ليس له قائد، لكنّها ابتسمت ابتسامتها الكنز، مربّتة على كتفي:

– توكّلي على الله ونامي الآن يا صغيرتي، فقد تأخّر الوقت كثيرا.

قبل ساعات فقط من دخول «ماما سوسو» غرفتي، كانت «عفاف» قد عادت إلى المترل بوعد كبير.

47

طعنة بسكّين المطبخ

وقفت الحافلة أمام مقرّ الجمعيّة، يلمع سقفها في ذلك اليوم المشمس، لتأخذ الفرقة لمشاركة ما كانت في الحسبان، وقفت دون أن يدرك سائقها أنّه هو السّكّين الذي ضُربت به في منتصف شهر فيفري من سنة 2020.

★★★

قبل ذلك بأسبوعين.

– أرجوك أستاذ، فسّر لي ما يحدث، الفِرقة غير جاهزة، ستحدث فضيحة أمام الجمهور.

– لا تتهاوني أبداً في المعايير، ولا يجب أن تقودك العاطفة.

ثمّ ابتسم ابتسامة غامضة وأردف هامسا:

– ثقي بي «سوبرانو».

وكلّما قال هذه الكلمة... أصبح في عيني هو الإمبراطور.

أسبوع يفصلنا الآن عن المشاركة المرتقبة.

– لدينا الآن أمامنا خمسة وثلاثون طفلاً وطفلة، سنفجّر الحفل.

قالتها رئيسة الجمعيّة وهي تحاكي بيديها قوّة الانفجار.

– بالتّأكيد ماما، من الآن فصاعداً سيُحسب للجمعيّة ألف حساب، سيحضر الوالي، والصّحافة، أتعلمين؟، أخبرتني «هناء» قبل ساعة.

وتوسّعت عيناهما كفنجاني قهوة من الحجم الكبير.

– جيّد... «عفاف» لا تخاف من الجمهور، سنضعها في المقدّمة.

في ذلك اليوم الذي مرّ عليّ ثقيلاً ثقل أيّام الصّيف الرّطبة، وضعت اللّمسات الأخيرة على إحدى الأناشيد التي اخترتها عشوائيّا في إطار موضوع المشاركة، خاصّة وأنّ هناك مجموعة من البنات ممّن التحقن بالفرقة سيشاركن من أوّل مرّة، دون تدريبات كافية.

كنت أريد إحداث مشكل لأمنع مشاركة هؤلاء الذين يُستغلّون استغلال العبيد، لكن ما إن نظرت إلى الأستاذ حتّى هزّ رأسه نافيا.

لم يترك لي فرصة التّعجّب من حركته:

– ممتاز، ستختار الأستاذة «إلهام» العناصر الجاهزة للمشاركة.

قالها وهو ينظر إليّ بثقة مشجّعا، بينما بدت الرّئيسة وابنتها التي راحت تلتفت يميناً وشمالا، قد أُخذتا على حين غرّة.

– هل سترافق الفرقة على المنصّة؟.

هذا ما استطاعت «ابتسام» قوله، وهي تعدّل خمارها الذي أضحى على رأسها مجرّد ديكور.

– الفرقة فرقة الأستاذة «إلهام»، ويجب أن نضع فيها كلّ ثقتنا.

فهمست الرّئيسة لابنتها التي يتعكّر مزاجها كلّما ذُكر اسمي أمامها:

– سينهار كلّ شيء.

فأجابتها على الفور:

– لديّ خطّة بديلة.

وغمزت بعينها اليسرى شبه غمزة.

وحانت نظرة منّي إليه، مستعلمة عن كيفيّة التّصرّف، فهزّ رأسه إيجاباً هذه المرّة، باطمئنان وهدوء ظلّ إلى الآن يدهشني، مشيراً لي ببدء اختيار العناصر.

اخترت أربعة فقط من أصل خمسة وثلاثين طفلاً وطفلة، وسط دهشة الرّئيسة وبعض العضوات اللاّتي لم يفهمن شيئا، ثمّ سمعت الثّعلوبة تتحدّث مع نفسها:

– تريدين اللّعب معي؟، سنرى من سيربح في النّهاية.

– هؤلاء هم كلّ الفرقة؟.

– نعم «هناء»، هذه هي الفرقة التي ستشارك باسم الجمعيّة.

قلتها باطمئنان تامّ وأنا أرى السّرور في عينيه، ثمّ أضفت بنبرة باردة برودة ذلك اليوم:

– ألم تطلبا فرقة إنشاديّة جاهزة للعمل تحت أيّ ضغط؟.

وصمتّ لبرهة أتأمّل الوجوه التي تحوّلت إلى تماثيل، ثمّ أكملت وأنا أشير بسبّابتي:

– هذه هي الفرقة؛ «عبد النّاصر» و«جانت» و«عفاف» و«رغد».

– هل أنا جاهزة الآن؟.

– نعم «عفاف»، أنت وكلّ من اخترتهم، جاهزون للمشاركة في أيّة تظاهرة ثقافيّة.

فقالت رئيسة الجمعيّة دون أن ترفع بصرها عن ابنتها:

– لماذا إذن أحضرنا البنات الجديدات؟.

فقالت وهي تحاول ضبط خمارها مجدّدا، متظاهرة أنّها تسيطر على الوضع:

– لو كنت مكانك لاخترت «فوزي» مثلا، منشد قديم في الفرقة، و«بهيّة»... «مازن»، «عبد الباقي»، تشجيعاً للوجوه الجديدة.

– على الرّحب والسّعة، لم يطردهم أحد ولن يطردهم أحد، لكن هناك فرق شاسع بين الفِرقة ككلّ والفِرقة المشاركة، أمّا «فوزي» فكما ترين، لديه إنفلونزا، وصوته متغيّر.

لم تقنعها مبرّراتي، وهي تنظر قلقة صوب اليمين واليسار كمن تبحث عن شيء، بينما حاولت إحدى الأمّهات التّدخّل لصالح ابنتها وكأنّ الأمر حقّ من حقوقها:

– لماذا لم تختاري «ميسلون»؟، لديها صوت جميل، هكذا قالت لي «ابتسام» في البداية حين أتت لبيتي.

– لأنّ لها صوتاً جميلاً... لكن ليس سليماً بما يكفي، هذه مسائل تقنيّة.

ورأيت دموعاً تنساب على وجوه بعض البنات، فنطقت إحدى العضوات معترضة:

– والله حرام أن تكسري بخاطر هؤلاء الملائكة.

ساندها كلّ الحاضرات، إلاّ أنّي قطعت نظرهنّ القاصرة بعبارة صارمة:

– لقد انتهى زمن المعجزات، فكيف نكلّم من كان في المهد صبيّا؟.

قلتها وأنا أنظر في عينيه، فأخذت بيد ابنتها تجرّها جرّاً إلى الخارج، مقسمة ألاّ تطأ رجلها المكان ثانية.

لم أكن في وضع يسمح لي بشرح ما يعنيه موقفي، ولن تعي أنّ تصرّفها معناه دفع طفلتها دفعاً لتكون جزءاً من مهزلة كبيرة، يصفّق فيها الحضور على بيادق، تمّ استغلال رغبتهم في حبّ الظّهور والتّألّق وصوت التّصفيق.

أمخطئة أنا لو حكّمت ضميري المهنيّ؟.

وتذكّرت جملته حين نظرت إليه؛ «لا تتهاوني أبداً في المعايير... لا يجب أن تقودك العاطفة».

– آه يا «ماما سوسو»... لو رأيت الصّدمة على وجه رئيسة الجمعيّة وابنتها بعد الحفل.

ودسست رأسي في حضنها، ثمّ أكملت على مهل:

– ما كنت أدري أنّها وعدته بشيء حتّى انفجرت في وجهه أمام المارّة؛ «هل أنت رجل؟».

التفت حوله، ثمّ سرعان ما استعاد قوّة شخصيّته:

– ما دخلي أنا؟، لقد أخبرتها بما يجب عليها قوله أمام...

فقاطعته موجّهة إصبعها إلى وجهه المنتفخ:

– تذكّر أنّك خنتني.

– أريد مستحقّاتي.

قهقهت في وجهه:

– لن أدفع شيئاً، وأمامك القضاء.

– لستِ أنتِ الرّئيسة.

وولج مقصورة القيادة، وهو ينظر لابنته التي جلست بجانبه في المقعد الأماميّ للحافلة مرفوعة الرّأس.

★★★

بدت القاعة فسيحة؛ تتكوّن من ركح مسرح يمتدّ لأكثر من عشرين متراً عرضا، تقابله مساحة واسعة مخصّصة لمقاعد المتفرّجين.

– آه يا «ماما سوسو» لو رأيتِ ما رأيت، صدمة على وجوه الحاضرين، مثل الصّدمة التي كانت على الوجوه في حفل نهاية السّنة، هل تتذكّرين؟.

– والأستاذ؟.

– كان بقربي بقفّازيه مستعدّاً للتّدخّل إن اقتضت الضّرورة.

قلتها بفخر وقد تغيّرت نبرة صوتي لمّا ذُكرت سيرته، ثمّ أكملت سردي مفتخرة:

– من المستحيل أن تقنعي أيّ أحد ممّن جلسوا مقابل الرّكح، أنّ ما سيقدّمه لهم هؤلاء الأربعة من الأطفال، شيء سيبقى منحوتاً في الذّاكرة.

لا أحتاج إلى وصف أصوات الأطفال، فقد كانت «عفاف» بلباسها الأحمر الأنيق سفيرة النّوايا الحسنة.

مرتبكة من الضّجيج الذي لم تستطع التّأقلم معه، اقتربت صحفيّة من «عفاف» رفقة مصوّر معها، وبعد أن ألقت عبارة مدح قصيرة قالت:

– أنتِ على المباشر الآن، هل تعرّفيننا باسمك صغيرتي؟.

– «عفاف» من فرقة «اللآلئ».

– «عفاف» رأيناكِ تصولين وتجولين بصوتك القويّ، هل لنا أن تحدّثينا عن سرّ هذه القوّة باختصار؟.

– أوّلاً بسم الله الرحمن الرّحيم، أشكركم على هذه اللّفتة الإعلاميّة الكريمة، كما أشكر المنظّمين على ثقتهم بنا، ودعوتهم لنا لإحياء هذا الحفل...

قاطعتها قائلة وهي تضغط بيدها اليمنى على أذنها:

– نعم زميلي «رشيد»، أسمعك جيّدا.

ثمّ نظرت إلى «عفاف»:

– من هي المشرفة على الفرقة؟، اقتربي من الميكروفون.

ودفعتها من ظهرها بباطن يدها بلطف.

– الأستاذة «إلهام» التي أشكرها بالمناسبة على جهودها وتضحياتها، وأشكر الأستاذ «سمير» على جهوده أيضا...

– شكراً «عفاف» شكراً، الوقت يداهمنا للأسف.

ثمّ أكملت حديثها وهي تضغط مجدّدا بيدها اليمنى على أذنها، بعد أن نقلت الميكروفون إلى اليسرى:

– نعم زميلي «رشيد»، كما قلت تعدّ هذه المبادرة الأولى من نوعها في المنطقة بعد حملة التّشجير... نعم... نعم ونغتنم الفرصة للحديث مع السيّد محافظ الغابات، السيّد...

وراحت تسير مبتعدة نحوه وهي تحاول تذكّر اسمه.

كانت عضوات الجمعية واقفات على مقربة، ومعهنّ الثّعلوبة التي أخفت وجهها بيديها، أمام أمّها المصعوقة من تصرّفها، ثمّ سمعتها تهمس لها بحدّة:

– لقد انهار كلّ شيء ماما، لقد انهار كلّ شيء، ماذا أفعل الآن؟.

– ماذا تفعلين أنتِ خلف ظهري؟.

لم تجب ببنت شفة، وكأنّها في عالم آخر، وبقيت تكرّر جملتها في تسارع جنونيّ، ثمّ شخصت ببصرها نحوي، لمّا رأت الوالي يقترب من الأستاذ مصافحاً بحرارة، وظلّت تنتقل بعينيها بينهما وبين وسائل الإعلام التي تحلّقت حولهما تطلب تصريحا.

ثمّ نظر الجميع إليّ حين أظهرني الأستاذ لهم بسبّابته، ولم يكتفِ بهذا، بل بقي يمسك بيد الوالي، مترجّياً أن يسير معه نحوي، وعلامات الرّضى في عينيهما.

بينما تسلّلت هي منتفضة، كالقطّة المبلّلة بماء المطر، تهمس بحدّة كعادتها حين يغلبها الغضب:

– سأريه من أنا... سأري السّائق اللّعين من تكون «ابتسام».

وكان سائق الحافلة هو والد «عفاف».

48

تأخير غير مفهوم

– متى سيزورنا الأستاذ؟.

– لا أدري «عبد النّاصر» حبيبي... والله لا أدري.

قلتها صادقة وفي نيّتي التّخلّص من سؤاله، غير أنّ تقدّمه نحوي هو ما شجّع «عفاف» على القول:

– وعدني بكمبيوتر إذا نجحت في شهادة التّعليم الابتدائيّ.

عانقتها وقد تذكّرت وعده لي... وانفجرت في البكاء.

– هذا ما حدث «ماما سوسو».

★★★

بعد هذه المشاركة، انسحبت العضوات الجديدات مثلما انسحبت «ابتسام» من حياتي نهائيّا.

أمّا رئيسة الجمعيّة، فكلّما رأتني من بعيد احمرّ وجهها خجلاً من فعلة ابنتها، مكتفية مكرهة بالتّحيّة المسائيّة إذا التقينا وجهاً لوجه.

أمّا هو فغاب عنّي ليغيب عنّي استقراري، وأنا أرى مستوى الأطفال يرتفع دون أن تكون لي القدرة على مجاراته.

عشرات الأسئلة تتدفّق عليّ، دون أن يرسو قاربي في مرسى، فأحاجي نفسي متشكّكة:

– ربما اتّصلت به رئيسة الجمعيّة وضغطت عليه لتزوّجته ابنتها، خاصّة وأنّ هذه الأخيرة على علاقة طيّبة مع والدته، وهو الآن في شهر العسل مع تلك الثّعلوبة، وأنا الأرنوبة، السّاذجة أنتظره هنا كالبلهاء، كالتي تنتظر باخرة في الصّحراء.

ثمّ يتلاعب بي شيطاني أكثر:

– أو... هل اختطفته منّي زميلته الأستاذة؟، يا ربّ السّماوات، هل كان يتلاعب بمشاعري وأنا التي أحببته في صمت؟.

فأفقد الأمل:

– يا لخيبتك العظمى يا «إلهام» ويا لغبائك الشّديد!.

بعد دقائق أستغفر وأنا أفكّ الأحجية:

– لو كان ذلك صحيحاً لعرفت، ولعرف الجميع في الجمعيّة، هذه الأشياء تنتشر سريعاً بين النّساء... أمّا أستاذة الكيمياء، الطّويلة السّمراء، فلم يسمع عنها أحد منذ أن انفجرت عليها بعض المحاليل في مختبر الثّانويّة.

تحجّرت في صدري تنهيدة سرعان ما شقّت طريقها إلى الخروج:

– آه، أين أنتِ الآن يا «ابتهاج»؟.

كانت خالتي –التي أضحت الآن رسميّا أمّي– تحسّ بما أعانيه، ولا تنفكّ تعيد على مسامعي عبارتها:

– إيّاك يا «إلهام» أن تهيني نفسكِ باسم الحبّ، إيّاكِ وإيّاكِ ثمّ إيّاك، ضعي هذا نصب عينيك، الله أرحم بعباده في كلّ زمان ومكان.

– ربما يكون متردّدا، لا يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله.

– هو متأكّد من شعوركِ نحوه، لكن هذه الأمور تتطلّب عادة وقتا، الرّجال لا يفكّرون مثلنا نحن النّساء.

– تذكّري أنّ «ابتسام» كانت توطّد علاقتها بأمّه.

– الزّواج قسمة ونصيب.

ثمّ تلمع عيناها:

– لن يُعدم حيلة في فتح الموضوع معك، اصبري فقط، أنا متأكّدة من أنّه سيفعل، بمشيئة الله، سيفعل... سيفعل.

ثمّ واصلت في حزم:

– لا تدعي الشّيطان يتلاعب بمشاعرك في لحظات ضعف، «ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، إنّ الله بالغ أمره»، ألستِ تقرئين هذه الآية في صلاتك؟.

– لكن «ماما سوسو»، غاب طويلاً هذه المرّة، لم يعد يحضر...

– مجرّد تهيّؤات، كان يغيب عنك من قبل، ليست مرّته الأولى.

– لا أعرف، إحساسي يخبرني أنّ شيئاً ما حدث، ربما... اتّصلي به «ماما سوسو».

– بصفتي...

وصمتّ أفكّر في ذريعة ما، لكنّها أجهضت فكرة كانت ستتشكّل:

– ثقي أنّ دعوتك مستجابة، فإذا أخّرها عنك؛ فلحكمة بالغة لا نعلمها، وإذا منعها عنك؛ فلأنّه علم أنّ فيها ضرراً سيقع، غير أنّه سيعوّضك عنها بشيء آخر.

اقشعرّ بدني وأنا أسمع عبارتها الأخيرة.

- ماذا تقصدين بيُعوّضني؟.

وضعت يديها على وجهي وراحت تشرح:

- ألوهيّة الله تقتضي حكمته، أمّا مشكلة الإنسان فتعجّله في الحصول على مبتغاه مهما كلّفه الأمر، ما يدريك؟، لعلّ ما تريدينه شرٌّ لكِ وأنتِ لا تعلمين، فيمنع الله بحكمته عنكِ حمق دعوتك.

- هل تقصدين أنّ...

قاطعتني مغلقة الموضوع كي لا يمتدّ إلى أفكار جانبيّة أخرى:

- لا تتركي إيمانك يهتزّ ولو جزءاً من الثّانية، هذا قصدي.

- والله لو طلبتِ منّي تسلّق جبال «الهيمالايا» لكان أسهل.

وخُيّل إليّ أنّ الزّمن قد توقّف نهائيّا، وبتّ لا أعرف ما معنى الاستمرار.

يا ربّ السّماوات... سأجنّ... والله سأجنّ.

وأهملت نفسي لأيّام.

★★★

طرقت «بشرى» باب غرفتي المفتوح باسمة:

- مساء الخير جميعاً.

- مساء الخير، يا لحظّنا منك، أصبحتِ مشغولة جدّاً، نترقّبك كهلال شوّال.

- ما بيدي «سميّة»، نحضّر لموسم الاصطياف.

قلت متعجّبة:

- من الآن؟!.

فهزّت رأسها إيجاباً وقد ظهرت على ملامحها آثار التّعب:

- أحسست بدوخة خفيفة فصعدت لأرتاح، وتركت «عبد القادر» في المكتب، قال إنّ لديه برنامجاً عليه تجهيزه مع «خالد» في ظرف ثلاثة أيّام، لأجل طلب تصريح من الوزارة.

- ألف مبروك، أنتِ حامل.

وراحت تقبّلها وسط حيرة «بشرى» وحيرتي.

ثمّ استنار وجهها كالبدر متلوّناً بالأحمر قائلة:

- بشّرك الله بما تحبّين... بشّركما الله بما تحبّان.

وراحت تكرّرها حتّى تلاشى صوتها في الرّواق.

نعم هذه هي خالتي، صاحبة الوجه الألماسيّ، ومستودع الرّقّة والحكمة.

★★★

– أهلاً «إلهام»، أريد التّقدّم لخطبتك رسميًا، إذا كنت موافقة سآتي السّبت القادم، الرّابع عشر من مارس إن شاء الله تعالى رفقة والدتي، فكّري جيّداً، أنتظر جوابك الصّريح.

نعم... هكذا... ببساطة شديدة، يقول الله للشّيء كن فيكون.

منحة ربّانيّة تركتني أطلق صرخة فظيعة مدويّة وأنا أمسك برأسي، قرب منتصف اللّيل، بعد بشارة زوجة أبي الثّانية، بأربع وعشرين ساعة، ليُهرع الجميع إلى نجدتي.

في أقلّ من خمس دقائق، كان الباب مرمياً على الأرضيّة، بعد أن اقتحم أبي الغرفة بجسارة المقاتلين، وخلفه «ماما سوسو» و«صفاء»، وامتزجت مشاعر المفاجأة مع صدمة الاقتحام، فأُلجم لساني وأنا أنظر إليه، وعلى وجهه أمارات الفزع، مستعلماً منّي عمّا حدث، دون أن يترك لي أيّة فرصة لإجابته.

أمام قوّة الأثر التي أنستني غريزة الكلام، أراد –وهو يحملني بين يديه– نقلي للاستعجالات، حيث ظنّ أنّي وقعت على الطّاولة الزّجاجيّة، ولم تنقذني إلاّ إشارة يدي أن كلّ شيء على ما يُرام.

ثمّ غلبني الشّوق والبكاء، فارتميت في حضن «ماما سوسو»، أرسل على صدرها كلّ ما جادت به غدّتي الدّمعيّة وما قصّرت وصيفتي، وكأنّي أفرغ الطّاقة الكامنة التي تولّدت من سنوات عجاف قضيتها في الانتظار.

49

فستانان لخطبتي

– هل سمعت بما يحدث في العالم؟.

– خيراً إن شاء الله.

صمتت وحين طال صمتها قلت:

– ما بك «صفاء»؟.

– يقول أبي أنّ هناك توقيفاً لبعض الرّحلات الجويّة في «إيطاليا».

★★★

حين هدأ ما ألمّ بي، أريتها الرّسالة بأصابع ما زالت تلملم بقايا ما علق بعينيّ المحمرّتين من دموع.

– ألم أقل لكِ إنّ الصّبر مفتاح الفرج؟، إنّه الله ربّ هذا الكون وخالقه.

وانفجرت باكية مجدّداً وأنا ألمس استجابته لي... هذا الإله الذي يرى كلّ شيء ويسمعه.

وسرعان ما راح ضميري يؤنّبني وأنا أتذكّر عجلتي الهوجاء، وقلقي الذي سمحت له بنخر أعصابي، ودفعي لحافّة الانهيار طوال الأيّام الماضية.

– آآآآآآآآآ، «باتمان».

كان هذا الحارس الذي لا يهادن الشّرّ، وهو يلقي بنفسه إلى داخل غرفتي.

– «أيّوب»، أنت في الطّور المتوسّط.

– صحيح خالتي... البارحة فقط اخترت ثلاثاً من الزّملاء لتشكيل فرقة خاصّة للتّدخّل السّريع، أسميتها «الباتمانيّون»، قلت إنّي سأتكفّل بلباسهم، فقالوا إنّهم سيفكّرون في الموضوع، لكنّي اشترطت عليهم مسبقاً أن أكون أنا القائد.

★★★

– أراكِ سعيدة اليوم، اتّصل بك صحيح؟... يدك ترتجف.

– كفّي عن إزعاجي «صفاء»... أنتِ تغارين.

أطلقت ضحكتها المدويّة وهي تتراقص كعادتها ثمّ قالت في مكر محمود:

– احذري أن تسقطي عليه الصّينيّة كما فعلت مع...

أو بالأحرى صاحت بها قبل ثمان وأربعين ساعة، دون أن تكمل جملتها، وهي تشير برأسها ناحية الجنوب، حين مرّت بجانبي في الرّواق، مسرعة لتقديم دروس الدّعم لبنات الجيران.

– سأراكِ في مكاني حين تأتي «اتّصالات الجزائر».

نعم... عادت لي أختي كما كانت، بوجهها البشوش الأحمر الممتلئ، واختفى الأخدود.

قبل أربعِ وعشرين ساعة، أعطتني «ماما سوسو» مع «بشرى» فستاناً أبيض مقروناً بابتسامتيهما الفيّاضتين:

– هديّة من أبيك الذي كان على الحائط.

واستدعى الفستان جراحاتي القديمة.

آه... أين أنتِ الآن يا أمّي؟.

أين أنتِ لتري بعينيك أنّه لم يكذب عليّ، لقد كان يحبّني في صمت، بصدق مثلما أحبّه ويزيد، أين أنتِ الآن لتري أنّي وخالتي لم نبقَ عانسين، وأنّ مخاوفك كلّها كانت مجرّد أوهام.

أتراني أتخيّل حين داعبت رائحتها الزّكيّة أنفي بمجرّد لمس الفستان؟...

أنفض عنه الغبار بعينين دامعتين، كأنّي أعيد فتح نافذة صغيرة من الماضي السّحيق، أنسّق الأحداث التي مرّت عليّ دون وعي أو إدراك.

★★★

وجاء اليوم الذي ولدت فيه من جديد، يوم السّبت الرابع عشر من مارس من سنة 2020.

بسبب أرق اللّيلة السّابقة التي نمت فيها ساعتين فقط، غادرت فراشي عند الثّالثة صباحا، لألجأ للصّلاة وتلاوة القرآن، حمداً لله وتضرّعا، أردت أن أبقى قريبة قدر المستطاع من الذي لم يخيّب رجائي فيه، وحاشاه أن يردّ من انبرى قلبه دعاء في كلّ سجود.

– ماذا؟.

قالتها والدّهشة تجتاح وجهها الجميل، حين رأتني بفستاني الأحمر، وأنا أفتح لها ولزوجة أبي الثّانية باب غرفتي، قرب السّاعة السّابعة صباحا.

– اعتقدت أنّكِ تخلّصتِ منه؟.

– لم أقوَ على ذلك «ماما سوسو»، ما زال الماضي يطاردني، كلّما ارتديته أشمّ عبيرها، فتركته ذكرى عطرة، حتّى ييسّر الله عليّ فأزور قبرها، ويا ليتني أستطيع، آه يا «ماما سوسو»... يا ليتني أستطيع.

واحتضنتها.

– أنتِ حسّاسة جدّاً يا «إلهام»، هذا قضاء الله وقدره، انتهى الأمر الآن، لو بكيتِ سنوات لن يرجعها أحد إليك، أطلبي لها الرّحمة والمغفرة، هذا أقصى ما نملكه للذين غادروا دنيانا.

– ماذا سأقول لها حين أقف على قبرها؟.

– قراءة الفاتحة على روحها الطّاهرة، لا أكثر ولا أقلّ، لن تسألكِ شيئا، الميّت ميّت.

وتأثرت «بشرى» بكلماتها فاغرورقت عيناها بالدّموع، إلاّ أنّها استعادت طاقتها الإيجابيّة بسرعة قائلة:

– اليوم يوم فرح يا عروسة.

ثمّ همست:

– أنا في الشّهر الثّاني.

– اسمحلن لي بتذكيركنّ أنّي في الخدمة دائما، هذا يوم جميل.

فبادرت إليه «بشرى» مبتسمة وهي تردّد:

– ساعد غيرك لو تدري، ما معنى حبّ الغير، ما أجمل أن تحيا في الأرض بلا نكران.

فالتفت إليها في حركة بطيئة:

– أنت فعلاً تحبّين أبي.

تركنا مشدوهات حين انتصب بزهو، ثمّ هزّ كتفيه في لامبالاة وخرج من غرفتي:

– ومع ذلك أنا في المطبخ، إذا احتجتنّ لأيّة مساعدة، لا تخجلن من شيء، أنا في الطّور المتوسّط الآن، لم أعد صغيراً.

هذه المرّة طلب أبي الحلوى والطّعام جاهزين من إحدى المطاعم المتخصّصة التي يتعامل معها، فلم تتعب أيّة واحدة منّا، بل انشغلن جميعاً بتزييني.

ثمّ تساءلت «صفاء» بمكرها المعتاد، وهي تعيد مجفّف الشّعر إلى مكانه:

– كيف يبدو الآن؟، ما زال وسيماً أليس كذلك؟، يا سلام... المشاعر الصّادقة لا تموت ولا تندثر، على فكرة... اشتريت هاتفاً جديداً من آخر طراز، سألتقط لكما صوراً احترافيّة.

ثمّ تنهّدت قائلة:

– وأخيراً سأرى أختي غارقة بين الغسيل وحفّاظات الأطفال.

وسدّت أنفها عابسة.

احمرّ وجهي خجلاً أمام «ماما سوسو» التي ارتسمت على وجهها الرّائع ابتسامة زادته روعة وسحرا، وهي تجيبها بدلاً عنّي:

– تذكّري أنّكِ ستصلين لهذه المرحلة في أقلّ من شهر.

– ماذا؟، هل...

وأطلقت صرخة مدويّة، بين ضحكات «ماما سوسو» المتقطّعة، التي همست لي على مسمع منها:

– سيعود الفرح إلينا مجدّدا... سيعود.

– ضعي هذا العطر، أنا أستعمله منذ زواجي، سيجنّ الأستاذ.

فغمغمت تلقائيّاً:

– لا سمح الله «بشرى».

لينفجر الجميع ضحكا.

50

المجد لنا... نحن الفتيات

– لقد أتوا لقد أتوا هو وأمّه يحملان طبقاً كبيراً وإكليلاً ضخماً من الورود.

كلمات ألقاها «أيّوب» دون توقّف في فضاء غرفتي، ومضى مجبوراً لاستقبالهما في الشّارع.

وتملّكتني قشعريرة أحسّت بها «ماما سوسو» فاحتضنتني مهنّئة، ثمّ سمعت زغرودة سرعان ما بدأت تتعالى مقتربة من المنزل، لتساندها زغاريد الجارات، ثمّ صوت جرس الباب، وخفق قلبي بشدّة حتّى خلته سيتوقّف، واكتساني حياء فيّاض.

بعد قليل ستُقرأ فاتحتي على أستاذي الذي أُغرمت به منذ سنوات، وهذا الصّيف إن شاء الله، سأمرّ من تحت ذراع أبي متّجهة نحو منزله، هذا ما وعدني به حبيبي، وسيفي بوعده لي.

– «إلهام السّوبرانو»، ألف مبروك.

التفتّ ورائي مذهولة، ففاجأتني بالتقاط صورة لي من هاتفها.

– مفاجأة، كم هي المدّة التي لم تريا فيها بعضكما؟.

قالتها «صفاء» وهي تنظّف كاميرا هاتفها الجديد.

– «ابتهاج»، متى عدتِ من كندا؟.

– كندا؟... في اللّحظة الأخيرة قبل غلق الأجواء، العالم يغلي.

ثمّ أطلقت العنان للسانها:

– يا شرّيرة، من حسن حظّي أنّي ما زلت أتمتّع برادار قويّ.

– طبعاً طبعا.

قلتها وأنا أقبّلها قبلة حارّة على وجنتها اليمنى، دون أن أخفي إعجابي الشّديد بجسدها المنحوت نحتا، وقد زال عنها كلّ ما كانت تحمله من دهون ومياه، بل أشرق وجهها بعدما اختفت منه كلّ البثور.

– لا تستغربي، ليست عمليّة جراحيّة، ضبطت غريزة الأكل فقط... ليس مستحيلا.

– صحيح؟... يا للرّوعة، أنت حقّاً جميلة «ابتهاج»، والله جميلة.

ورحت أتأمّل ملامحها الجديدة، حتّى أيقظتني:

– انظري ماذا أحضرت، كاميرا من آخر طراز، هديّة خطوبتك، لكن اسمحيلي أن أقدّم لك موهبتي في التّصوير.

– شكرا «ابتهاج»، فعلاً أنتِ تعرفين جيّداً كيف تختارين هداياك.

فأضافت «ماما سوسو»:

– سنخلّد هذه المناسبة، استرخي الآن ولا تفكّري بشيء، نحن جميعاً هنا بجانبك، سنناديكِ يا عروستنا في الوقت المناسب لتقديم القهوة والحلويّات.

وخرجت آخذة «أيّوب» معها، بعدما رجع مسرعاً ليخبرنا أنّهما جالسان في الصّالون مع أبي.

– حفظه الله وسدّد خطاه.

قالتها وعيناها على هاتفها الجديد، ثمّ رفعت كفّيها إلى السّماء بعد وضعه في جيب حجابها الفيروزيّ، متلافية لكمتي التّحذيريّة الخفيفة على كتفها:

– سأراكِ في مكاني حين تأتي «اتّصالات الجزائر».

فابتسمت خجلة، وقد تجسّد وضعها المستقبليّ أمامها.

★★★

ورأيته... يا الله!... نعم، رأيته... والله رأيته، ولفّني عطر ملاكي... وتاجي، وسرّي الدّفين.

في قميص أبيض ناصع نصاعة ثلج قمم الجبال، وسترة كلاسيكيّة رماديّة، خفيف اللّحية والشّارب.

رأيته رابضاً كأسد ينتظر أنثاه، وأمامه باقة ورد كبيرة بلون فستاني، وبجانبه والدته التي ارتدت...

– آآآ... لقد رآني.

والتقت أعيننا... ففررت إلى المطبخ، وما إن دخلت حتّى كانت «صفاء» خلفي مع «ابتهاج»:

– لو التقطت لك صورة، أيّتها الشّرّيرة، كنتِ وراء الباب تتلصّصين.

– ششششوت... من؟... أنا؟... أهنّئكِ على هذا الخيال الخصب.

قلتها والحرارة تغزو وجهي متظاهرة بتجهيز الصّينيّة، فقد نزلت إلى المطبخ بنيّة تفقّد ما سأقدّمه لهم، ثمّ وجدت باب الصّالون مواربا، فرحت أختلس النّظرات.

ثمّ اقتربت منّي «ابتهاج»:

– ألف مبروك «إلهام»، وأخيراً انتصرت الشّوكولاتة المرّة على السّكّر، لو لديّ شخص يحبّني كحبّ الأستاذ لك.

– إن شاء الله ستجدين من يقدّركِ كجوهرة ثمينة من جواهر التّاج.

– على فكرة... هل تذكرين المدير؟.

– مدير الثّانويّة؟... ما به؟.

– أُقيل من منصبه العام الماضي، بسبب سوء استخدام المنصب، ووضعوا مكانه مديرة.

ثمّ اقتربت منّي هامسة:

– والمديرة الجديدة –التي كانت أستاذة– اتّصلت بالأستاذ لإنشاء فرقة إنشاديّة.

– لم يخبرني.

– لأنّها اتّصلت به البارحة قبل المغرب بدقائق.

– أوف دعونا من ذلك، «ماما سوسو» تناديك، يا سلام على أختي «السّوبرانو»؛ ما شاء الله... قمر نزل من السّماء، انظري «ابتهاج»... انظري، سيجنّ الأستاذ اليوم... سيجنّ.

وارتعدت فرائصي وأنا أحاول حمل الصّينيّة التي أصبحت بين ليلة وضحاها تزن أطنانا، وأحاول في ذات الوقت إبعاد خصلات شعري التي تتداخل مع مجال رؤيتي، فتشوّش عليّ موضع خطواتي، وقرأت آية الكرسيّ تبرّكا، ودخلت متوكّلة على الله، مطأطأة الرّأس هامسة في استحياء شديد:

– السّلام عليكم.

– وعليكم السّلام ورحمة الله تعالى وبركاته، أهلاً بعروستنا «إلهام»، ما شاء الله على هذا الجمال.

ونهضت من مكانها معانقة مبسملة، مسترسلة في عبارات الثّناء والمدح، بينما وقف هو إلى جانبها، وراحت تقبّلني وهي تضمّني لصدرها بين الفينة والأخرى، ثمّ أجلستني على يسارها ضاحكة:

– لقد حكى لي «سمير» عنكِ كثيرا، ستكونان أروع عروسين، أنا متأكّدة من ذلك.

وأسرّت في أذني:

– أنتظر أطفالكما، لا تتأخّرا كثيرا.

ارتبكت وأنا أنظر نحو خالتي، فأوعزت لي ضاحكة بعينيها أن أصبّ القهوة، وارتعشت يداي وأنا أملأ الفناجين المذهّبة، ومن فرط فرحتي نسيت أن أبدأ بوالدته بحكم التّقاليد، وقدّمت الفنجان الأوّل لحبيبي الذي أعطاه لها مبتسما، وكأنّه يعاتبني دون عتاب، ثمّ قدّمت له فنجانه مع قطعتين من الشّوكولاتة، كنت حريصة على حفظهما له منذ ليلة بشراه، وكأنّني أحفظ جبناً يجب أن يتخمّر طويلاً من أجل نكهته المميّزة.

– انظروا لحبّة الطّماطم، ستنفجر.

قالتها «صفاء» بمكر وهي تقلّد صوت الانفجار، مغرقة كلّ الحاضرين في الضّحك، بينما كانت الشّمس تقترب بحرارتها العظيمة من وجهي، وأنا أنظر للأرض استحياء من أبي، ورحت أكمل تقديم القهوة والعصير لباقي أفراد العائلة، بينما واصلت «صفاء» مشاكستها لي:

– احذري أن تسقطي شيئا، ارتعاشك لا يشي بخير.

– دعيها وشأنها، «إلهام» كانت وما زالت تفّاحة المنزل.

★★★

وألبسني الخاتم... نعم أنا متأكّدة من أنّه ألبسني الخاتم، الذي عرفت فيما بعد أنّه اقتناه لي منذ سنة حصولي على «البكالوريا»، وسط الزّغاريد المتهاطلة على قلبينا تهاطل المطر عليه قبل أربع سنوات من الآن.

ثمّ طبع قبلتين دافئتين، أولاها على جبيني، وثانيتها على ظاهر يدي مردفا:

– «غراثياس سوبرانو».

وارتجفت كأنّني أسمعها لأوّل مرّة منذ أربع سنوات.

– انظرا هنا.

والتُقطت لنا عشرات الصّور من «صفاء» و«ابتهاج» و«ماما سوسو»، و«بشرى».

واتّفقنا على كلّ شيء، استعداداً لليوم التّاريخيّ، الذي بتّ أنتظره أكثر من انتظار عودة الإنترنيت.

ما إن أنهينا فاتحة الكتاب، حتّى أطلقت «ماما سوسو» زغرودة طويلة أخرى كالتي عهدتها عند أمّي، وتبعتها «صفاء» و«بشرى» و«ابتهاج»، وأطالت والدته «طاطا خديجة» زغرودتها أيضا، وهنا انفجرت باكية في حضنها الذي كثيراً ما احتضن حبيبي، وهي تضمّني لصدرها بكلّ ما أوتيت من قوّة، وكأنّها أدركت من ردّ فعلي التّلقائيّ، ما ألمّ بي فجأة من لوعة الشّوق، للّتي أتوق أن تكون هناك جالسة قبالتي.

وأخرج أبي من جيبه مفتاحا، أخذ يلوّح به كحركة بندول السّاعة قائلا:

– هذه من أجلك، لكن لا تلمسيها قبل حصولك على رخصة السّياقة.

وكاد قلبي يتوقّف، فيما تهاطلت عليّ التّبريكات تهاطل المطر على وجه حبيبي.

– ستكونين ابنتي يا «إلهام».

أسرّت بها والدته وهي تتنقل بعينيها بين عينيّ، بنظرات تشبّعت بأسمى آيات الحبّ والتّقدير.

كم تمنّيت أن يلبثوا عندنا أكثر، خاصّة لّما حضر عمّي «خالد» وزوجته، متأخّرين بسبب ازدحام الطّريق.

تمنّيت لو توقّف الزّمن هنا، ولا أعرف لماذا لم يتوقّف، كي يظلّ «سميري» جالساً مع أبي، يتجاذبان أطراف الحديث، متناغمين كأنشودة عذبة متعدّدة الأصوات.

– هل ستقصّين شعرك عند هذا الحدّ؟.

وراحت تريني بيدها في الرّواق الشّكل الذي تخيّلته لي، واللّون الذي سيناسبني، فهمست لها دون أن أرفع بصري عنه:

– إذا أراد زوجي.

ابتسمت قائلة:

– انظري لهما، إنّهما مثل «دو» و«مي»، ستكونين «صول»... ألف مبروك «سوبرانو».

وكرّرت تهنئتها وهي تطبع على وجنتي أعمق قبلة أخويّة.

★★★

– «سوبرانو»... هناك من تريدك.

جاءني صوتها من بعيد، فأسرعت نحوها للمطبخ.

كانت والدته جالسة أمام المائدة تتناول فنجاناً ثانياً من القهوة العربيّة التي حضّرتها، وما إن رأتني أمامها حتّى ابتسمت لي قائلة:

– لديكِ صديقات كثيرات، وأظن أن هاتفكِ لن يتوقّف عن الرّنين مدّة أسبوع.

– نعمة من الله «طاطا خديجة».

وأخذت الجوّال من خالتي التي انشغلت بضبط الفرن الكهربائيّ.

– من «ماما سوسو»؟.

قلتها وأنا أحاول التّعرّف على الرّقم الظّاهر على الشّاشة.

– لم تذكر اسمها، قالت إنّها صديقتك القديمة وتريد تهنئتك بصفة شخصيّة.

واستمرّت في عملها دون اهتمام.

– نعم أنا «إلهام» من معي؟.

– مبروك «سوبرانو».

كانت الصّوت مستتراً بشيء ما وُضع على ميكروفون الهاتف، غير أنّي ميّزتها لامرأة ليست غريبة عنّي.

– شكراً شكراً... من معي؟.

– سلي عمّا يهمّك يا من تسكنين بين الغيوم.

– أسكن بين الغيوم؟... ماذا تعنين؟، من أنتِ أوّلا؟.

قلتها متأفّفة محاولة التكتّم على نبرة صوتي المرتعشة، لكنّها أجابت ببرود شديد:

– تستطيعين مناداتي «نغم».

- «نغم»... «نغم»... لحظة كي أستجمع تركيزي.

في نبرة بلغت أعلى مراتب القسوة، ألقت بما عكّر صفوي لذلك اليوم سرّاً.

- لا تتفاءلي كثيراً «سوبرانو»... إنّه مخادع، أنا أعرفه أكثر منك.

وتسمّرت عيناي بعينيّ والدته، التي ألصقت الفنجان المذهّب الصّغير... بشفتها السّفلى.

تمّت الرّواية

عبد الرزاق بن عمر (عبد الرزاق أنفو)

• من مواليد 1978 في «الجزائر» العاصمة، متزوّج وأب لـــ 3 أطفال، باحث مختصّ في الفكر الإنشاديّ الحديث منذ سنة 2002، كاتب وروائي، من أبرز أعماله التشاركيّة والفرديّة؛ «المنظار في النّقد الإنشادي» و«تأمّلات في الفلسفة الإنشاديّة»، ورواية «المثلّث الأحمر».

مكوّن نظري ومدرّب تطبيقي، مصمّم أغلفة وضابط فيزيولوجي للكتب الرّقميّة، خرّيج جامعة «البليدة» بشهادة ليسانس في علم الاجتماع التّربويّ، عن مذكّرة «دور الأنشودة الإسلاميّة في تربية المراهق».

مؤسّس عدّة نواد وفرق إنشاديّة، ومصحّح أصوات للمنشدين والمؤذّنين ومرتّلي القرآن الكريم، وفق أحدث الطّرق العلميّة، ومبتكر عدّة مناهج واختبارات وبرامج تدريب، «التّقليد الصّوتيّ للدّيوان الموسيقيّ»، كشف الفحص العامّ للقدرة الصّوتيّة المعروف اختصارا (SV 5)، كشف الفحص العام للقدرة الإستيعابيّة الصّوتيّة (SV 6)، كشوف المساحة الصّوتيّة بنسخها الثّلاثة، (SVS 1.1)، (SVS 1.2)، (SVS 1.3)، إضافة إلى برنامج التّدريب الصّوتي القرآني «أفق 1» و«أفق 2».

أتشرّف باستقبال ملاحظاتكم وآرائكم على البريد الإلكترونيّ :

Abderezak.info@yahoo.com

كما أُسعد كثيرا إذا تابعتم باستمرار ما أنشره على المنصّات الآتية :

www.twitter.com/nadikondos

www.instagram.com/nadikondos | www.facebook.com/nadikondos